

الأسفراء والمنهج العلمي

دكتور محمود فهمي زيدان
الأستاذ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر

دار الجامعات المصرية
تليفون ٤٤٦٩٩ بالاسكندرية

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة الدكتور الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

الأسفراء والمنهج العلمي

دكتور محمود فهمي زيدان
الأستاذ بكلية الآداب - جامعة الأزهر

١٩٧٧

الناشر
دار الجامعات المصرية
تليفون ٢٢٤٦٩١٩٠ - ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

تصدير

غرضنا من هذا الكتاب الاشارة إلى ثلاثة أفكار : الأولى أن ليس لكلمة استقراء معنى واحد ، وإنما لها معان متعددة - معنيان متميزان تأتي بها ارسطو ، ومعنى ثالث تحمس له فرنسيس بيكون وچون ستوارت مل وأتباعها ، ومعنى رابع متعلق بالعلوم الرياضية ؛ ومن ثم حين تقول إن هذا العلم أو ذاك ، أو هذا الباحث أو ذاك يستخدم الاستقراء منهجاً ، فعليك أن تحدد أي معنى للاستقراء تقصد .

الفكرة الثانية هي التمييز بين « المنهج الاستقرائي » و « المنهج العلمي » ، إذ ليسا صورتين لغويتين لمنهج واحد : كان المؤلف في القرون السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أن الاستقراء كما تصوره بيكون ومل منهج البحث في العلوم التجريبية ، ولكننا نخطئ حين نظن أن هذا الاستقراء هو كل ما ينطوي عليه المنهج العلمي ، خاصة من الثلث الأخير من القرن الماضي إلى يومنا هذا ؛ هذا المنهج وإن كان يستخدم ذلك الاستقراء في جوهره ، غير أنه يختلف عنه في كثير من التفاصيل ؛ ومن ثم لكي نميز ذلك الاستقراء عن المنهج العلمي ، وكلامنا منهجان في العصر الحديث ، فقد سمينا الأول « الاستقراء التقليدي » والثاني المنهج العلمي المعاصر أو كما يسميه علماء المناهج « المنهج الفرضي » .

الفكرة الثالثة هي الاشارة إلى خطأ من يتحدث عن المنهج العلمي كمنهج لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، أو كمنهج يتضمن اليقين والصحة

المطلقة ؛ المنهج العلمي في أي عصر من العصور عرضة للنقد أو الهجوم والتعديل أو التبديل .

لم نعالج كل فكرة من هذه الافكار الثلاثة في فصل مستقل ، ولكن كانت هذه الافكار موجّهة لنا في ترتيب فصول الكتاب . الموضوع الرئيسي في هذا الكتاب هو تصور « الاستقراء » : كيف بدأ ، كيف تطور ، وما وصل إليه حاله الآن . ولم يكن عرضنا لتطور الاستقراء عرضاً تاريخياً دائماً ، أي مراعين في ذلك الترتيب الزمني ، ولكن غرضنا الرئيسي تتبع الاستقراء كتصور تام . نشير الى مل مثلاً قبل أن نشير الى هيوم رغم أن الثاني اسبق من الأول في الزمن ، ذلك لأن مل يصور مرحلة في تقويم الاستقراء أقل نضجاً من المرحلة التي يعبر عنها موقف هيوم .

. . .

موضوع الفصل الأول كلمة موجزة - نرجو ألا يكون ايجازها مغللاً - عن المنطق الصوري والاستدلال القياسي ، والفصل بمثابة مدخل الى « الاستقراء التقليدي » ، حيث بدأت الحاجة للاستقراء التقليدي باكتشاف عقم ذلك المنطق وهذا الاستدلال كوسيلة لتقدمنا العلمي والفلسفي على السواء ، ومن ثم ففي مقارنة المنطق القديم بالاستقراء التقليدي توضيح للثاني .

يشير الفصل الثاني إلى اول من استخدم الاستقراء وهو ارسطو ، اعترافاً بفضلِهِ؛ يتضمن هذا الفصل نوعي الاستقراء الارسطي وهما « الاستقراء التام » ، وما سمي من بعد « الاستقراء الحدسي » ، ووجدنا أن ليس الاستقراء الارسطي عقياً إذا فهم على ضوء جديد .

حين نظرنا الى الاستقراء التقليدي وجدنا من جهة أنه مقترن باسمي فرنسيس بيكون وچون مل ، ووجدناه من جهة أخرى يتلخص في أساسين ومراحل ثلاثة : الأساسان هما مبدأ العلية واطراد الحوادث في الطبيعة ، والمراحل هي الملاحظة والتجربة ، وتكوين الفروض ، وتحقيقها . لكننا

لاحظنا أن الاستقراء بهذه الصورة كان سائداً في القرن الثامن عشر وطرف من القرن التاسع عشر ، وأنه يصور لا موقف بـ يكون وإنما موقف مل الذي بلغ بهذا الاستقراء الى قـته - لاحظنا أن بـ يكون لم يـم اهتماماً خاصاً بالدفاع عن أساسي الاستقراء وإيراد أدلة برهانية على صدقها، وإنما اتخذها مصادرتين، كما أنه أنكر مرحلة تكوين الفروض ؛ ومن ثم لم يضع طرقاً محددة لتحقيقها، ووجدنا مل يسد تلك الثغرات في موقف بـ يكون . لذلك جعلنا الفصل الثالث بمثابة مقدمة للاستقراء التقليدي أشرنا فيه إلى نشأته، وإلى قيمة الملاحظة والتجربة في البحث العلمي، وإلى ضرورة تكوين الفروض العلمية . وخصصنا الفصل الرابع للاستقراء كما تصوره بـ يكون : أشرنا إلى هجومه على المنطق الصوري، وإلى تشخيص بعض امراض العقل الانساني التي تعوق تقدم البحث النزيه ، بيننا أيضاً فضل بـ يكون في صياغته لما سماه « منهج العزل او الاستبعاد»، وهو منهجه لتحقيق التعميم التجريبي . وكان موقف مل الاستقرائي موضوع الفصل الخامس : يتلخص موقفه في دفاعه عن أساسي الاستقراء ومحاولة البرهنة عليها، وفي رؤية قيمة مرحلة تكوين الفروض، وفي صياغته طرق تحقيق الفروض . ومن ثم تعالج الفصول الثالث والرابع والخامس موضوعاً واحداً هو الاستقراء التقليدي .

أشرنا في الفصل السادس الى فكرتين لدافيد هيوم اعتبرناهما نقطة تحول في النظر الى الاستقراء التقليدي ، هما موقفه من مبدأي « العلية واطراد الحوادث » . لم ينكر هيوم العلية ، ولكنه أنكر انه مبدأ فطري أو قبلي او يتضمن قضية ضرورية صادقة صدقاً مطلقاً ؛ العلية موضوع اعتقاد ، والخبرة الحسية مصدر هذا الاعتقاد ، ولكن كل ما هو متضمن في الخبرة الحسية يمكن تصور نقيضه ، واذن فليس مبدأ العلية يتضمن الضرورة والصدق المطلق . وصل هيوم أيضاً الى ان مبدأ الاطراد - وهو ما عالجناه تحت اسم « مشكلة الاستقراء»، لا يمكن البرهنة عليه ومن ثم لن يكون القانون العلمي كـلـسيّ الصدق ، واذن لن يكون الاستقراء نوعاً من البرهان بالمعنى الدقيق، وبهذا شككنا هيوم في

قيمة الاستقراء .

الفصل السابع يختص بالاحتمال . لكلمة « احتمال » معان عديدة أهمها معنيان : ١، هو متضمن في نظريات الاحتمال الرياضية ، وما يمكن تسميته الميل القوي للاعتقاد بصدق قضية أكثر من الميل لإنكارها . وجدنا - إزاء موقف هيوم من انكار اليقين والصدق الكلي للنتيجة الاستقرائية - أن تلك النتيجة احتمالية الصدق إذا اتسقت مع ملاحظاتنا وتجاربنا ، وجدنا أنه ينبغي أن يؤخذ الاحتمال هنا بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول ؛ وقد يبدو ذلك غريباً - ذلك لأننا نلاحظ في العلوم التجريبية في صورها المتطورة أن النظريات والقوانين ذات طابع رياضي : يعبر عن كثير من المقدمات والنتائج بلغة رياضية بحتة وأن الاستدلال من تلك المقدمات الى النتائج إنما هو استدلال رياضي ، وبالرغم من ذلك فليس لتلك النظريات والقوانين يقين رياضي ولا حتى الاحتمال الرياضي - ولكن تزول الغرابة إذا أدركنا أن استخدام تلك العلوم التجريبية للرياضة لا يجعلها علماً رياضياً .

موضوع الفصل الثامن المنهج العلمي المعاصر أو « المنهج الفرضي » . أشرنا فيه إلى اختلاف هذا المنهج عن المنهج الاستقرائي التقليدي . يختلف المنهج العلمي المعاصر عن الاستقراء التقليدي - أولاً - في عدم اتخاذ مبدأ العلية أساساً أول للبحث العلمي ؛ لا عداً بين العلماء المعاصرين والعلية وإنما تركوا للتجارب تأييدها أو إنكارها ، ومن ثم لم تجيء كل التفسيرات العلمية عليه كما كانت عليه في الماضي ، وإنما أصبح لدينا تفسيرات عليية وأخرى غير عليية . يختلف المنهج الفرضي عن الاستقراء التقليدي - ثانياً - في عدم اتخاذ مبدأ اطراد الحوادث مصادرة أولى ، وأصبح العلماء على يقين من استحالة البرهنة عليه ، ومن ثم فالنظريات العلمية احتمالية بالمعنى الذي حددناه ، ومن ثم لم تعد الحتمية والآلية أقانيم نسعى اليها . يختلف المنهج الفرضي عن الاستقراء التقليدي - ثالثاً - في تصور الفرض العلمي وفي أولوية مرحلة الملاحظة والتجربة : الفروض العلمية المعاصرة « فروض صورية » تشير الى ما لا يدرك بالحوس ، وإنما يعبر

عن مضمونها بلغة رياضية خالصة. ويأتي دور الملاحظة والتجربة حين يراد تحقيق تلك الفروض بطريقة غير مباشرة، أي باستنتاج نتائج تلزم عن تلك الفروض مما يمكن تأييدها أو إنكارها بالخبرة بطريقة مباشرة .

موضوع الفصل الأخير إشارة إلى مشاركة الفلسفة التحليلية المعاصرة في تقويم المنهج العلمي ؛ هو إشارة إلى « مبدأ إمكان التحقيق التجريبي » عند إير وتأثره بمدرسة الوضعية المنطقية وتأثيره . هو بدوره في بعض الوضعيين . يتضمن هذا المبدأ ومناقشة الفلاسفة له أولاً - أن القضية التجريبية إنما تنطوي في طبيعتها على ما يسمى « التركيب المفتوح »، أي تنطوي على أن التحقيق الكامل لهذه القضية غير ممكن ؛ يتضمن هذا المبدأ - ثانياً - أن تحقيق أي قانون علمي إنما هو الحصول على شواهد تزيد من احتمال صدقه ، ولكن تلك الشواهد لن تقوم برهاناً عليه .

بيروت في ابريل ١٩٦٦

محتويات الكتاب

٥

تصدير

١٣

الفصل الاول : مدخل الى الاستقراء

موضوع علم المنطق - الحدود - المفهوم والمصادق -
اسم العلم والمفهوم والمصادق - القضايا - الاستدلال -
المنطق الصوري - مدخل الى الاستقراء - الفرق بين
القياس والاستقراء .

٢٧

الفصل الثاني : الاستقراء عند ارسطو

الاستقراء التام - ملاحظات على الاستقراء التام -
الاستقراء الحدسي .

٤١

الفصل الثالث : الاستقراء التقليدي

تعريف بالاستقراء التقليدي - مراحل الاستقراء التقليدي -
الملاحظة والتجربة - فرض الفروض - انواع الفروض -
شروط تكوين الفرض العلمي - موقف نيوتن من الفروض .

٥٩

الفصل الرابع : الاستقراء التقليدي (فرنسيس بيكون)

مقدمة - الاورجانون الجديد - نقد بيكون لمنطق
ارسطو - نظرية الاوهام الاربعة - نظرية بيكون

الاستقرائية - منهج الرفض او الاستبعاد - تصنيف
الوقائع - ملاحظات على نظرية بيبكون الاستقرائية .

الفصل الخامس : الاستقراء التقليدي (جون ستوارت مل) ٧٣

الاستدلال والاستقراء - أسس الاستقراء - اطراد الحوادث
في الطبيعة - مدخل الى العلية-العلية-ملاحظات على نظرية
مل في العلية - الفرض العلمي - تحقيق الفروض -
ملاحظات على طرق مل في تحقيق الفروض .

الفصل السادس : هيوم والاستقراء التقليدي ١٠١

مقدمة - موجز نظرية هيوم في العلية - مشكلة الاستقراء .

الفصل السابع : الاستقراء والاحتمال ١١٥

معاني الاحتمال - مدخل الى نظريات حساب الاحتمال -
نظرية تكرار الحدوث - نظرية كينز في الاحتمالات -
مشكلة الاستقراء ونظريات الاحتمال .

الفصل الثامن : المنهج العلمي المعاصر ١٣٥

القانون العلمي والاطراد والعلية - الاستدلال الصوري -
التفسير العلمي - القانون العلمي تفسير أم وصف - الفروض
الوصفية المثمرة - الفروض الصورية - نظرية نيوتن في
الجاذبية - النظرية الموجية في طبيعة الضوء - النظرية
الذرية - المنهج الفرضي والاستقراء .

الفصل التاسع : التحقيق التجريبي ١٨٧

مقدمة - مبدأ إمكان التحقيق عند إير - القضايا القبليه -
القضايا الأولية - تحقيق القضايا التجريبية العامة .

الفصل الأول

مدخل إلى الاستقراء

موضوع علم المنطق :

ليس غرضنا في هذا الكتاب أن نقدم تعريفاً لعلم المنطق ، فذلك موجود في الكتب المدرسية في ذلك العلم قديماً وحديثاً ؛ ولكن لا بأس من ذكر كلمات موجزة عن موضوعات علم المنطق ليتيسر لنا الحديث عن المنهج الاستقرائي - أحد موضوعات ذلك العلم ، وهو موضع اهتمام ذلك الكتاب .

موضوع علم المنطق هو الاستدلال ، ووضع القواعد التي تميز صحيح الاستدلال من فاسده ؛ ولكن الاستدلال شيء مركب ، ولكي نعرف ما هو ، يلزم الإشارة إلى العناصر أو الوحدات التي تؤلفه وهي الحدود والقضايا ؛ إذ يتألف الاستدلال من عدة قضايا ، وتتألف القضية بدورها من عدة حدود .

الحدود :

الحد لفظ أو عدة الألفاظ التي ننطق بها أو نفكر فيها وتدل على شيء أو على نوع من الأشياء هي موضوع الحديث أو التفكير في سياق معين . فإذا كنا نتحدث عن الأنهار مثلاً في سياق لنميزها من البحار أو الجبال كان «نهر» حدّاً ؛ وإذا كنا نتحدث عن النهر الذي يشق مصر من جنوبها إلى شمالها كان «نهر النيل» حدّاً . «نهر» ، «جبل» ، «كلية» ،

«جامعة» ، «جبل المقطم» ، «جامعة الاسكندرية» ... الخ نسمي كلا منها حداً . يدرس المنطق أنواع الحدود فيصنفها أصنافاً مختلفة على أسس أربعة :

أ - الحدود جزئية وعامة . يسمى الحد حداً جزئياً حين يشير الى شيء معين في مكان وزمان محددين ؛ ويندرج تحت الحد الجزئي أسماء الأعلام جميعاً كأسماء أفراد الانسان وأسماء المدن والدول والأنهار والبحار والجبال والأماكن المشهورة . ويسمى الحد حداً عاماً^(١) حين يدل على عدد معين من الصفات أو الخصائص يندرج تحتها نوع من الجزئيات يتميز من الأنواع الأخرى . «انسان» ، «أبيض» ، «حيوان» ، «جبل» ، «معدن» ، «حديد» . أسماء عامة .

نلاحظ أن الحد العام - إذا سبقناه باسم إشارة أو بكلمة أخرى تتضمن التعيين المكاني والزماني - يصبح اسم علم ؛ ومن ثم هذا النهر ، تلك المنضدة ، القلم الذي اكتب به الآن ، أسماء أعلاء ، وسبب ذلك أنه تتوفر في مثل هذه الحدود خصائص اسم العلم^(٢) .

ب - الحدود محسوسة ومجردة . يسمى الحد حداً محسوساً حين يشير الى شيء ندركه بأحواس ويندرج تحت الحدود المحسوسة كل الحدود الجزئية ويسمى الحد حداً مجرداً حين يدل على شيء عام أو على كائنيّ مثل أبيض وبياض ، احمر وحمرة ، ونحو ذلك .

(١) نظن أن بعض الكتب العربية في المنطق تخطيء حين تسمي «الاسماء العامة» «أسماء كلية» . هناك فرق بين الاسم العام والكلّي - هو الفرق بين أبيض وبياض . ليست الكلّيات أسماء وإنما هي نوع من الأشياء متميز من الأشياء الجزئية سواء ألفت علماً على حدة أو كانت معان في الذهن . وقد يعترض الاسميون على تمييزنا بين الاسم العام والكلّي وجوابنا ان الاسم العام حين يشير الى نوع من الأشياء أو الصفات إنما يفترض المشابهة ، والمشاوية علاقة ، والعلاقة فكرة يعبر عنها بكلمة لكنها ليست كلمة .

(٢) انظر P. Geach, Reference and Generality, Cornell university Press, New York, 1962, p. 40.

ح - الحدود موجبه وسالبة . ويسمى الحد موجباً حين يدل على اثبات صفة لشيء ، ويسمى الحد سالباً حين يدل على نفي صفة عن شيء . ابيض ، حد موجب ، لا ابيض أو غير عضوي ، او غير بسيط ، حدود سالبه . ونلاحظ أن هذا التقسيم للحدود يندرج تحته الصفات لا الاشياء . فالصفات موضوع للإيجاب والسلب ولكن اسماء الاعلام واسماء الاشياء الجزئية لا تسلب ؛ « ليس مجتهداً » حد ذو معنى ، بينما « لا محمد » ، حد لا معنى له .

د - الحدود نسبية ومطلقة . يسمى الحد نسبياً حين يدل على شيء لا يمكن التفكير فيه دون التفكير في شيء آخر مثل ابن وأب ، ذكر واثني ، طالب وأستاذ وما الى ذلك . أما الحد المطلق فهو ما يدل على شيء تفكر فيه دون التفكير في شيء آخر مثل ماء ، شجرة ، منزل . تلبنفي ملاحظة أن من الممكن تداخل تصنيف مع آخر من هذه التصنيفات الاربعة ، فمثلاً تجد اسماء الاعلام حدوداً جزئية وحدوداً محسوسة ، كما نجد بعض الاسماء العامة وهي الدالة على صفات او خصائص حدوداً عامة وحدوداً مجردة .

المفهوم والمصدق

يدرس المنطق في الحدود الى جانب اصنافها مفوماتها وما صدقاتها . أما مفهوم الحد فهو معناه أو ذكر الصفات التي تميز ما يشير اليه الحد عن غيره من الاشياء ، وإذا كانت الصفات اسامية في ذلك الشيء ألقت ما يسمى بالتعريف . ما صدق الحد هو الإشارة الى الأفراد الجزئية التي تنطبق عليها تلك الصفات . مفهوم الحد معدن ، أنه عنصر بسيط لا يمكن تحليله الى عناصر أبسط منه وأنه موصل جيد للحرارة والكهرباء... وبذا نميز الحديد من غيره من الجواهر الاخرى . وما صدق الحد معدن هو ذهب ، فضة ، حديد ، نحاس ... الخ .

مفهوم الحد ألصق به من ما صدقه أي أن هنالك حدوداً لها مفومات ولكن ليس لها ما صدقات ، وعدم وجود ما صدق لحد ما لا يجعل ذلك

الحد بلا معنى؛ قد يكون للحد معنى بالرغم من أنه لا يشير الى شيء جزئي محسوس. الحد حصان ذر أجنحة له مفهوم ولكن لا ما صدق له : ان الحصان ذا الاجنحة كائن خرافي لا وجود له في الواقع ، ولكن له معنى محدد في الذهن ؛ ولكي نميز هذا النوع من الحدود يحسن أن نقابلها بحدود لا ما صدق لها ولا مفهوم لها مثل الدائرة المربعة. فهذه تتناقض تناقضاً ظاهراً لأن الشكل الدائري لن يكون شكلاً مربعاً في نفس الوقت والعكس صحيح ، أي أن الشكلين لا يجتمعان في رسم واحد واذن فالدائرة المربعة لا معنى لها .

اسم العلم والمفهوم والمصدق

هناك حدود لها مفهومات وما صدقات ، وحدود لها مفهومات وليس لها ما صدقات كما قلنا. وقد حدث خلاف في اسماء الاعلام اذ اعلن جون ستوارت مل أنها حدود لها ما صدقات وليس لها مفهومات . لا خلاف في أن لاسم العلم ما صدقا ، ولكن كان لرأي مل مناهضون ومعارضون . يقصد مل أن «على» مثلاً رمز لغوي لشخص معين يمكن الإشارة اليه ولكن ذلك الرمز لا يدل على مجموعة من الصفات مثلما تدل كلمة «انسان» على مجموعة من الصفات – ولرأي مل بعض الوجاهة من حيث ان اسم العلم أو أي شيء جزئي لا تعريف له : فالتعريف للاسماء العامة لا للاسماء الجزئية : انك لن تستطيع أن تضع تعريفاً لفرد من أفراد الانسان تتضمن فيه صفات اساسية فيه تميزه عن غيره من افراد الناس ، مثلما تضع تعريفاً للحد العام «انسان» لتمييزه من بقية الحيوانات والكائنات . ولكن الخطأ الذي وقع فيه مل ، والذي اظهرته الأبحاث الحديثة في المنطق أنه سوّى بين التعريف والمفهوم . تعريف اسم العلم غير ممكن من حيث اننا لا نستطيع ان نشير الى صفة اساسية تؤلف ماهية من يشير اليه هذا الاسم تميزه بها عن بقية الناس . ولكن لاسم العلم مفهوم بالمعنى الواسع الذي لا يتضمن التعريف . فمثلاً «نابليون» لا تعريف له وانما يرتبط هذا الاسم بمجموعة من الاوصاف والظروف التي إذا ذكرت أمكن تطبيقها على شخص بعينه وامكن تمييزه عن باقي الناس . تلك الأوصاف

والظروف لا تؤلف ماهية نابليون (إذ لا ماهية له) وإنما تؤلف معنى نشير بها الى نابليون دون غيره . بل ذهب بعض المناطقه المحدثين الى ابعاد من القول بان لاسم العلم مفهوماً بالمعنى الواسع - حين قالوا إن لاسم العلم معنى حتى في غياب صاحبه. اذا كان مل على حق فانا لن نستطيع ان نتحدث عن صديق في غيابة ، وهذا مخالف للواقع . بل ذهبوا الى القول بان لاسم العلم معنى حتى بعد موت صاحبه ، وإلا لما أستطيع أن أقول (إن فلانا قد مات) ، ويكون لعبارتي معنى لدى سامعها ^(١) .

القضايا

يدرس المنطق موضوع الصدق والكذب كما يدرس الحدود ، ولكن لا صدق أو كذب في الحدود أي ليس هنالك حد نسميه حداً صادقاً أو كاذباً إلا بمعنى ضيق حين ينطق طفل بكلمة «حديد» مثلاً ويشير بأصبعه إلى كوب زجاجي ويظن أن الكوب الزجاجي ما صدق لتلك الكلمة - نقول حينئذ إن الطفل لم يستخدم الحد «حديد» استخداماً صادقاً؛ فاذا عرفنا كيف نستخدم الحدود استخداماً صادقاً فلا معنى للصدق أو الكذب في الحدود . إن الصدق أو الكذب يخصان القضايا وهذه هي الموضوع الثاني للمنطق . وثمة سبب آخر يدعونا الى القول بان القضايا أحد موضوعات علم المنطق : حين نستخدم الحدود لا نستخدم حداً واحداً أو لا نستخدم الحدود منعزل بعضها عن بعض ، وإنما نستخدم الحدود مضاف بعضها إلى بعض . حين يريد الانسان ان يعبر عن فكرة انما يعبر عنه من صورة حكم ، والحكم هو الصورة السيكلولوجية للفكر ، ويقابله القضية وهي الصورة المنطقية لذلك الفكر . والحكم أو القضية انما يتألف من حدين أو أكثر بينها علاقة ، وهذان هما اللذان يخصهما الصدق أو الكذب .

والقضية في المنطق تقابل ما يسميه علماء اللغة بالجملة الخبرية ، وبذا يستبعد

(١) انظر . Wittgenstein, Philosophical Investigations, translated by G. E. M. Anscombe, Blackwell, Oxford, 1958, pt. 1, S. 41

المنطق من بحثه الجمل الانشائية وهي جمل الأمر والنهي والاستفهام والتعجب والنداء . والجمل الخبرية تلقى اليك خبراً ، سواء كان ذلك الخبر جديداً عليك تكتسبه حيث كنت تجهله من قبل ، أو كان مألوفاً لك من قبل ، وهذا النوع الاخير هو ما سماه المناطق منذ أيام لينتز وهيوم بالقضية التحليلية . والقضية التحليلية هي التي لا يتضمن محمولها جديداً ليس موجوداً في موضوعها من قبل ، وإنما محمولها شارح لذلك الموضوع أو جزءاً من الموضوع : قضايا التعريف وقضايا الرياضة والمنطق كلها قضايا تحليلية . الجسم ممتد ، الانسان حيوان مفكر ، المساويان لثالث متساويان ، ما ينطبق على الكل ينطبق على جزء ذلك الكل : تسمى هذه وامثالها قضايا تحليلية . أما القضية الخبرية التي تلقى اليك خبراً جديداً أي يحوى محمولها معرفة جديدة لم تكن تعرفها في الموضوع من قبل ، نسميها القضية التأليفية مثل الخشب يطفو فوق الماء أما الحديد فيغوص فيه ، وكل قضايا العلوم التجريبية وقوانينها قضايا تأليفية . وباختصار تضم الجمل الخبرية ما كان تحليلياً أو تأليفاً ، وكل جملة خبرية إنما هي قضية .

تتألف القضية من عنصرين في بعض اللغات ومن ثلاثة في لغات اخرى . والعنصران حدان ، يسمى أحدهما الموضوع والآخر محمولاً ، والعنصر الثالث هو ما يسميه المناطق ، الرابطة ، وهو فعل الكينونة الذي يربط بين الموضوع والمحمول . فالقضية «المكتشفون للنظريات العلمية مستحقون لتقدير الانسانية» تتألف من حدين : «المكتشفون للنظريات العلمية» ويسمى الموضوع ، و «مستحقون ..» ويسمى المحمول . في اللغات العربية والصينية مثلاً تخلو القضية من الرابطة ، وفي اللغات الانجليزية والفرنسية وغيرها وجود الرابطة لازم . وكان يظن المناطق حتى وقت قريب ان الرابطة عنصر ضروري لصورة القضية ويتضمن قولهم هذا ان اللغات التي لا رابطة في قضاياها لغات لم تصل الى درجة عالية من التطور ، ولكننا الآن نعلم أن الرابطة ليست لها ضرورة منطقية : توجد الرابطة أو لا توجد حسب طبيعة هذه اللغة أو تلك . فمثلاً في بعض اللغات نجد الصفات يجري عليها التصريف كالأفعال ،

كاللغة اليابانية والكورية ؛ وهنالك لغات لا تصرف فيها الصفات كالعربية .
تختلف بعض اللغات عن بعضها الآخر في ترتيب وضع الفعل والفاعل والمفعول
من عباراتها فمثلاً يوضع الفاعل ثم الفعل ثم المفعول في العبارات الانجليزية والفرنسية
والصينية ، ويوضع الفعل فالفاعل فالمفعول في العربية ، ويوضع الفعل فالمفعول
فالفاعل في الإسبانية ، ويوضع الفاعل فالمفعول فالفاعل في اللاتينية . نريد ان نقول
إن تصريف الصفات او اختلاف وضع أجزاء الكلمة في الجملة ليس له أي دلالة
منطقية . أما القول بأن الرابطة عنصر لازم في القضية فهو قول تبين الآن
خطؤه . لقد تضمن هذا القول الفكرة القائلة بأن المحمولات أشياء كالموضوعات
وأن وظيفة الرابطة أن تربط بين هذين النوعين من الأشياء . هذا القول خطأ
لأن من المناطق الذين تظهر الرابطة في لغاتهم مثل أرسطو وكنت لم يقولوا
بالفكرة القائلة بأن المحمولات أشياء : انهم يعتقدون ان الشيء هو ما يشير اليه
الموضوع فقط أما المحمول فهو حد مجرد يعبر عن صفة تدخل في تركيب
الموضوع وليس شيئاً مستقلاً عنه . نستنتج من ذلك أن وجود الرابطة -
مثلها في ذلك كمثل تصريف الصفات أو ترتيب وضع أجزاء الكلمة في العبارة -
ليست لها دلالة منطقية .

يصنف المنطق القضايا اصنافاً مختلفة على أسس مختلفة ، فمن جهة الإطلاق
والاشتراط يصنف القضايا الى حملية وشرطية ، ويصنف القضايا الشرطية الى
شرطية متصلة ومنفصلة ؛ اينشتين مكتشف لدمج المكان والزمان في كل
متصل واحد ، إذا كان نيوتن على حق في فصل المكان عن الزمان إذن
فاينشتين على خطأ ، إما ان يكون نيوتن على حق او ان يكون اينشتين على
حق - تمثل هذه القضايا القضايا الحلية والشرطية المتصلة والمنفصلة على
التوالي . ومن حيث الكم يصنف المنطق القضايا الى كلية وجزئية مثل كل
العلماء مخلصون في سعيهم لاكتشاف الحقيقة في النظام الطبيعي ، أغلب الفلاسفة
يختلفون فيما بينهم . ومن حيث الكيف يصنف المنطق القضايا الى موجبة
وسالبة مثل كل العرب محبون للوحدة والتعاون ، ليس التسامح مع المجرمين
بفضيلة . وبادهاج القضايا الكلية والجزئية والموجبة والسالبة يخرج لنا اربعة

أصناف من القضية : القضية الكلية الموجبة والقضية الكلية السالبة والقضية الجزئية الموجبة والقضية الجزئية السالبة .

الاستدلال

يدرس المنطق الاستدلال كما قلنا ، والاستدلال استنتاج . والاستدلال نوعان : مباشر وغير مباشر . اما الاستدلال المباشر فهو استدلال قضية من قضية أخرى دون توسط قضية ثالثة . مثال : لما وقعت عينا روبنصن كروزو على آثار أقدام في مكان مهجور من بني الإنسان صاح وقال هاهي ذي آثار قدم واذن فلا بد أن كان ها هنا انسان . يمكن صياغة هذه العبارة في صورة استدلال مباشر مؤلف من قضيتين : آثار أقدام شوهدت على الأرض المجربة من الناس ، اذن سار انسان على هذه الارض . نسمي القضية الأولى مقدمة والثانية نتيجة . وفي الاستدلال المباشر يدرس المنطق الصحة والفساد في الاستدلال اي لا بد لنا من قواعد نتخذها معياراً للحكم عما اذا كان استدلالنا نتيجة من مقدمة استدلالاً صحيحاً أو خاطئاً ، وتلك هي المشهورة في كتب المنطق بقواعد التقابل بين القضايا . والقضايا متقابلة هي تلك التي تختلف في الكيف أو الكم أو فيها معاً مع ابقاء الحدود على حالها . والتقابل أنواع أربعة : تناقض وتضاد وتداخل ودخول تحت التضاد . فنقول القضايا المتناقضة والقضايا المتضادة والقضايا المتداخلة والقضايا الداخلة تحت التضاد . ومعنى هذا أن اي قضية لها ثلاثة قضايا مقابلة لها فالقضية الكلية الموجبة مثلاً يقابلها الكلية السالبة (وهي القضية المضادة لها) والجزئية الموجبة (وهي القضية المتداخلة معها) والجزئية السالبة (وهي القضية المتناقضة معها) . ويصع لنا المنطق القواعد التي على اساسها نستدل استدلالاً مباشراً من قضية ما على أي من القضايا الثلاثة الأخرى .

والاستدلال غير المباشر استدلال قضية من قضيتين أو اكثر ، فاذا كان استدلال قضية من قضيتين سمي الاستدلال قياساً ، واذا كان الاستدلال من اكثر من قضيتين سمي الاستدلال استقراء ، ونسمي القضايا المستدل منها

مقدمات والقضية المستدلة نتيجة . مثال القياس : كتب المنطق متسقة موجز ، التحليلات الاولى كتاب في المنطق ، . التحليلات الاولى متسقة موجز . نلاحظ ان مقدمتي القياس يحويان اربعة حدود ولكن اثنان منها مكرران في المقدمتين اي ان لدينا في المقدمتين ثلاثة حدود . نسمي الحد المشترك الحد الأوسط ، والحدان الآخران تسمى احدهما بالحد الاكبر والثاني بالحد الاصغر . نميزهما بالنظر في النتيجة : موضوع النتيجة هو الحد الاصغر ومحمولها هو الحد الاكبر . ونسمي المقدمة التي بها الحد الاصغر المقدمة الصغرى والمقدمة التي بها الحد الاكبر المقدمة الكبرى .

يقول لنا المنطق أن القياس ليس صورة واحدة وانما أشكال اربعة : الشكل الأول والثاني والثالث والرابع ، وتختلف هذه الاشكال فيما بينها باختلاف موضع الحد الأوسط في المقدمتين ، فقد يكون محمولا في المقدمة الصغرى وموضوعاً في الكبرى ، وقد يكون محمولا في المقدمتين ، أو موضوعاً من المقدمتين ، أو محمولا في الكبرى موضوعاً في الصغرى ؛ يضع لنا المنطق قواعد نتخذها معياراً لمعرفة ما إذا كانت النتيجة القياسية صحيحة أي لازمة أم فاسدة أي لا تلزم .

المنطق الصوري

لقد اصطلح المناطق على تسمية مبحث الاستدلال المباشر والاستدلال القياسي « المنطق الصوري » . وتفهم عبارة « المنطق الصوري » على النحو التالي . لكل قضية صورة ومادة - صورتها هي القالب او الشكل الذي صيغ فيه مضمون الفكر المعبر عنه بالقضية . أما مادتها فهي ذلك المضمون . خذ القضايا الثلاثة الآتية : الكائنات الحية فانية ، الاشتراكية مذهب اقتصادي يهدف لمصلحة الطبقات الكادحة ، القسوة رذيلة . تختلف هذه القضايا في مضمونها إذ تختص الاولى بحقيقة عن علم الاحياء والثانية عن علم الاقتصاد والثالثة عن الاخلاق، لكنها تتفق جميعاً في صورتها وهي صورة القضية الحلية . لا يهم المنطق الصوري أن يبدى بقضايا صادقة او كاذبة من حيث انطباقها على

الواقع ولكن يهمه ان تصاغ الأحكام في صورة منطقية معينة . لا يهم المنطق ان يميز بين الافكار من حيث صدقها أو كذبها على الواقع وإنما يهمه فقط أن يميز بين الصور المختلفة التي صيغت بها الفكرة الواحدة أو الصورة الواحدة التي صيغت فيها أفكار مختلفة . فالقضايا الثلاثة السالفة مختلفة المضمون متفقة في الصورة . كذلك يمكننا أن نصوغ حكماً واحداً في صورتين منطقيتين مختلفتين : نقول القسوة رذيلة ، ونقول اذا قسا الطفل على حيوان استحق التأنيب من والديه . صورة الحكم في القضيتين مختلفة اذ اتخذت القضية الاولى صورة القضية الحلية واتخذت الثانية صورة القضية الشرطية .

ننتقل الآن الى الصورة في الاستدلال المباشر . من المقدمة (كل علماء الطبيعة الآن يبينون ما في نظريات نيوتن من أوجه النقص) نستطيع أن نستدل أن (بعض علماء الطبيعة المحدثين يبينون ما في تلك النظريات من أوجه النقص) . لا يهم المنطق الصوري ان كانت المقدمة أو النتيجة صادقتين من حيث تأييد الواقع لهما وإنما يهمه فقط ما اذا كانت هذه النتيجة تلزم عن تلك المقدمة : كأنه يقول : افرض أن المقدمة صادقة فهل من الصواب ان نصل إلى هذه النتيجة أم لا ؟ ما يهم المنطق هو مراعاة قواعد صورية معينة هي قواعد التقابل بين القضايا وهل استدلالنا متفق وتلك القواعد .

قل مثل ذلك في صورة الاستدلال القياسي . لا يهم المنطق الصوري ان كانت مقدمات القياس ونتيجته مطابقة للواقع ولكن يهمه هل صيغت المقدمتان والنتيجة حسب ما تقتضيه قواعد القياس الصحيح ، وهي قواعد ليس بوسع أحد أن ينكرها أو يتشكك فيها فمثلاً القاعدة الاساسية في القياس وهي المسماة بمبدأ القياس تقول ان ما يصدق على الكل يصدق على الجزء المدرج تحته ، أو ما يحمل على حد مستغرق ايجاباً او سلباً يحمل بنفس الطريقة على أي حد مدرج تحت الحد الاول . ويمكن ان ينحل هذا المبدأ إلى بديهيتين : أ - ان اتفق حدان مع حد ثالث يجب ان يتفقا فيما بينهما . ب - ان اتفق حد مع آخر بينما اختلف مع ثالث فان الحدان الاول والثاني مختلفان . وبمعنى

آخر يمكن التعبير عن (أ) و (ب) بقولنا ان الحدين المساويين لحد ثالث متساويان فيما بينهما والحدان المختلفان عن ثالث مختلفان فيما بينهما .

نعود الى القول بان ليس الغرض من الاستدلال القياسي أن نضع مقدمات صادقة صدقاً واقعياً لتؤدي الى نتيجة مطابقة للواقع ، وانما المقصود هو الصحة الصورية في الاستدلال متجاهلين مدى انطباق المعاني المتضمنة في القضايا على الواقع . وباختصار يسأل المنطق فقط هل النتيجة القياسية تلزم بالضرورة عن المقدمتين ؟ والضرورة هنا منطقية لا تجريبية . نقول عن فكرة ما انها ضرورية ضرورة منطقية إن كان يستحيل على العقل ان يتصور نقيضها مثل تصور الدائرة المربعة أو تصور الجزء اكبر من الكل (في مجال الكم في مساحات متناهية) ونقول عن فكرة ما ان ضرورتها تجريبية ان كان نقيضها ممكناً . فمثلاً حين أقول ان من الضروري ان يخضع هذا العالم لقانون الجاذبية الذي نادى به نيوتن والذي عدله اينشتاين، هذه الضرورة تجريبية لا منطقية: بمعنى ان عالمنا هذا مركب بصورة يتحتم معها أن يخضع للجاذبية ، ولكن تصور عالم لا جاذبي ممكن : ليس العالم اللاجاذبي عالمنا ولكن تصور مثل ذاك العالم اللاجاذبي ممكن أي كان ممكناً ان يعطانا بدلاً من عالمنا الذي نعيش الآن فيه . ان ضرورة النتيجة القياسية ضرورية ضرورة منطقية : أي يجب ان تتسق والقواعد المعينة التي لا يمكن تصور نقيضها .

مدخل الى الاستقراء

قلنا ان الاستدلال غير المباشر نوعان قياس واستقراء . ومن الاستقراء ما نسميه الاستقراء القديم ونقصد به الاستقراء كما تصوره ارسطو، والاستقراء الذي نسميه الاستقراء التقليدي ونقصد به الاستقراء كما تصوره فرنسيس بيكون واتباعه. اما الاستقراء القديم فهو موضوع الفصل الثاني وأما التقليدي فهو موضوع فصول تالية . غير أننا نود الإشارة هنا الى الاستقراء التقليدي في كلمات موجزة كي يتسنى لنا ان نميزه من القياس .

الاستقراء التقليدي استدلال يتألف من مقدمات ونتيجة تؤدي اليها تلك المقدمات ولا يشترط ان يكون عدد تلك المقدمات محدوداً بل كلما كثر عدد المقدمات كثر احتمال صدق النتيجة . يشترط في مقدمات الاستقراء ان تكون تعبيراً صادقاً عن الوقائع في العالم الخارجي ، ومن ثم يخرج الاستدلال الاستقرائي من دائرة المنطق الصوري . ولا يعني قولنا ان الاستقراء يجب ان يطابق الواقع ويتفق وما يجري في العالم من وقائع وحوادث وظواهر ان ليست له قواعد صورية . هذه لا بد وان تستوفى في الاستقراء ، لا بد وان يتسق اي استدلال استقرائي مع قوانين الفكر الاساسية وألا يتضمن تناقضاً ويجب أن نراعي فيه قواعد الاستدلال الصورية مثل مبدأ القياس وقواعد التضمن . وللإستقراء بالاضافة الى هذه القواعد الصورية قواعد أخرى - هي قواعد الملاحظة السليمة والتجربة السليمة وكيفية الانتقال من المقدمات للنتيجة . ونلاحظ أن الإستقراء منهج البحث في العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والاحياء كما تستخدمه بعض العلوم الانسانية كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ . وهدف المنهج الاستقرائي أن يوصلنا الى كشف القوانين فالنتيجة الاستقرائية هي صيغة القانون العلمي ؛ ومن ثم سمي الاستقراء منهج الكشف أو منطق العلوم التجريبية .

الفرق بين القياس والاستقراء

ا - يجب ان تكون إحدى مقدمتي القياس على الاقل كلية ، ومن ثم تكون نتيجته كلية أو جزئية ، بينما مقدمات الاستقراء جزئية دائماً ونتيجته كلية دائماً .

ب - يعني القياس بالصورة في المقدمات دون الصدق الواقعي بينما يعني الاستقراء في مقدماته بالصدق الواقعي الى جانب التزامه قواعد الاتساق المنطقي

ج - نتيجة القياس صادقة صدقاً مطلقاً أما نتيجة الاستقراء فهي دائماً احتمالية ولن يكون لها اليقين المطلق ذلك لاننا نصل في النتيجة الاستقرائية

الى قانون عام يخص الظاهرة الطبيعية قيد البحث مع اننا لم نختبر إلا مجموعة محدودة من الملاحظات ، ثم نعمم حكنا في النتيجة على هذه المجموعة موضوع البحث وغيرها من بنات نوعها مما سوف يحدث في المستقبل وحيث ان هذا التعميم يتناول ظواهر المستقبل التي لم نلاحظها بعد والتي قد تأتي بغير ما نتوقع فان حكنا الآن عليها دائماً احتمالي لا يقيني - قد تقارب درجة الاحتمال من اليقين لكنها لن تصل اليه .

د - تحوي النتيجة الاستقرائية جديدا عما هو مثبت من قبل في المقدمات، بينما ليس في نتيجة القياس شيء جديد إذ الحكم فيها متضمن في المقدمة الكبرى .

الفصل الثاني

الاستقراء عند أرسطو

كان أرسطو أول من استخدم كلمة استقراء . والكلمة اليونانية التي يشير بها أرسطو الى «استقراء» تعنى « مؤدّ إلى » ، leading to ، ولكن الاشتقاق غير معروف فيرى البعض انه حين استخدم أرسطو الكلمة في كتبه كان يعني ما يؤدي بالطالب الى الانتقال من الجزئي الى الكلي ، ويرى البعض الآخر ان أرسطو كان يعني ايراد الامثلة التي تقوم دليلاً على صدق نتيجة عامة ^(١) . ويعرّف أرسطو الاستقراء بأنه إقامة قضية عامة ليس عن طريق الاستنباط وإنما بالالتجاء الى الامثلة الجزئية التي يكن فيها صدق تلك القضية العامة ، أو هو البرهنة على أن قضية ما صادقة صدقاً كلياً باثبات أنها صادقة في كل حالة جزئية اثباتاً تجريبياً ^(٢) . وكان يتصور أرسطو الاستقراء بمعنىين مختلفين ، ذكرهما في موضعين مختلفين من كتبه ولم يربط بينهما ، ومن ثم لا نستطيع ان نقول إنها كانا مرتبطين في ذهن أرسطو ، ولذلك سنعرض لكل منها على حدة. نوعا الاستقراء هما الاستقراء التام وما يمكن أن يسمى الاستقراء الحدسي.

(١) W. Kneale, Probability and Induction, Clarendon Press, Oxford, 1949, p. 24.

(٢) H. W. B. Joseph, An Introduction to Logic, Clarendon Press, Oxford, 1916, p. 350-51

الاستقراء التام

يسمى الاستقراء تاماً حين نحصى كل الأمثلة الجزئية (وسنعرف بعد قليل أن الأمثلة الجزئية مقصود بها ما يدل على انواع لا ما يشير الى جزئيات) في مقدمات تنتهي بنا إلى نتيجة عامة تندرج تحتها كل تلك الأمثلة . وهاك المثل الذي ضربه أرسطو نفسه : « الانسان والحصان والبغل طويلة العمر » ، « لكن الانسان والحصان والبغل هي كل الحيوانات التي لا مرارة لها » ، اذن كل الحيوانات التي لا مرارة لها طويلة العمر . أهم خصائص الاستقراء التام أنه استدلال مقدماته كلية ونتيجته كلية ، ومن ثم فالنتيجة لازمة عن المقدمات ، وأن ليس بالنتيجة غير ما قررته المقدمات من قبل . وذلك يذكرنا بالقياس .

يمكن التعبير عن الاستقراء التام أو الاستقراء بالاحصاء التام Induction by complete enumeration في صورة قياسية متخذة صورة الضرب الاول من الشكل الثالث : أ وب وح ... الخ هي س ، أ وب وح ... الخ هي كل ص ، ... كل ص هي س .

ملاحظات عن الاستقراء التام

١ - نشير الى أن تسمية هذا النوع من الاستدلال باستقراء تسمية غير مشروعة لاننا نميز عادة بين القياس والاستقراء كنموذجين متباينين من الاستدلال : ما هو قياس ليس باستقراء ، والعكس صحيح . وحيث اننا نحمل على الاستقراء التام بعض الخصائص الاساسية للقياس وهي كلية المقدمات ولزوم النتيجة كما انه يمكن رده الى القياس ، فأولى بنا أن نسميه بالاستقراء القياسي ، أو ننظر اليه على أنه نحو من القياس .

٢ - تتضمن كلية مقدمات الاستقراء التام صعوبات مستحيلة الحل . كيف عرف أرسطو أن كل انسان وكل حصان وكل بغل طويل العمر؟ وكيف عرف أن الانسان والحصان والبغل هي كل الحيوانات التي لا مرارة لها؟ لأرسطو جواب عن السؤال الأول ، وذلك في نظريته للانواع الثابتة المحدودة . كان

يعتقد ان الحيوانات والنباتات منقسمة إلى أنواع يتميز بعضها عن بعض ، وان عدد الانواع في الطبيعة محدود لا يزيد ولا ينقص ؛ نعرف بعضها ونجهل بعضها الآخر ولكن الزمن كفيل بإمدادنا ما نجهله ، وان النوع دالّ على كل افراده ؛ فاذا عرفنا طبيعة النوع استطعنا أن نصدر حكماً كلياً بأن تلك الطبيعة موجودة في الافراد موضوع ملاحظتنا وموجودة كذلك فيما لم يقع بعد تحت ملاحظتنا – يكفيننا أن نلاحظ بعض بني الانسان ونلاحظ انهم بالنسبة لأنواع حيوانية اخرى طويلة العمر لنحكم أن كل إنسان طويل العمر . ولنا على هذا الجواب ردان :

أ – اننا نقبل قول أرسطو أنه ليس من الضروري أن نحصى جميع افراد النوع لكي نصل الى طبيعة النوع أي ماهيته بل يكفي ملاحظة بعض افراده . ملاحظة بعض افراد النوع تكشف عن ماهية ذلك النوع ، وان كانت لا تبرهن عليها اذ لا برهان على الماهية وانما نكشف عن تلك الماهية بالادراك المباشر فقط . هذا حق . ولكن لا نظن أن أرسطو يعتقد ان طول العمر أو امتلاك المראה أو عدم امتلاكها مما يؤلف ماهية الانسان . واذن فنظريته في التعريف لا صلة لها وليست اساساً لمقدمات الاستقراء التام الذي يوردها . وحيث ان تلك المقدمات لا تعبر عن ماهيات ما تشير اليها اذن فهي مقدمات ظنية وليست مطلقة الصديق .

ب – حيث ان طول العمر لا يؤلف ماهية الانسان اذن فهي صفات عرضية ، ولكي يصبح الحكم في تلك الصفات حكماً كلياً يلزم ارسطو أن يحصى أفراد النوع كله للتأكد من صدق الحكم . وفي ذلك استحالة عملية ومنطقية . من المستحيل عملياً ان احصي احصاء تاماً كل افراد الانسان او الحصان لأعلم انها طويلة أو أنه لا مرارة لها؛ سيكون ذلك متعباً حتى ان استطعت . وهنالك استحالة منطقية في القيام بهذا الاحصاء التام لان من التناقض احصاء كل الافراد الذين ينتمون الى نوع عدد افراده لا متناه . ان الانسان يكون عدداً لا متناهياً من الافراد .

ننتقل الآن الى مناقشة السؤال الثاني وهو كيف وصل ارسطو الى الانسان والحصان والبغل هي كل الحيوانات التي لا مرارة لها ؟ ان جواب ارسطو متضمن كذلك في نظريته في الانواع وهي نظرية باطلة. ليست هذه النظرية نظرية منطقية او فلسفية وانما هي نظرية طبيعية ومن ثم تضعفها نظرية التطور الحديثة : لا نقول ان هذه النظرية الاخيرة كلية الصدق ولكنها فرض قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً ولكنها تتضمن على اي حال أمثله تتناقض ونظرية ارسطو . اننا لا ننكر تصور تصنيف الكائنات في انواع . هنالك لا شك انواع طبيعية . لا شك ان الاشياء مرتبة في انواع سواء من صنع الطبيعة كما رأى ارسطو أو دارون (وارسطو ودارون هنا متفقان : متفقان في ان هنالك انواعاً) أو صنع الذهن كما رأى جون لوك. لقد رتبنا الطبيعة الاشياء في مجموعات ، أو هكذا رتبها الذهن : ان الفرد انما هو فرد في نوع وإلا تعددت الانواع بتعدد الافراد وتعذر إقامة تعريفات وتعذر تصنيف الاشياء في مجموعات . تصور الانواع تصور مقبول بل واجب القبول . إن ما ننكره على ارسطو ان الانواع ثابتة ومحدودة . يمكن ان ينتقل فرد من نوع الى نوع آخر ؛ كذلك الانواع غير محدودة العدد إذ ليست الانواع المعروفة هي كل الانواع فقد توجد انواع نجهلها وقد توجد في المستقبل انواع لم تكن موجودة الآن وتطورت عما هو موجود . واذن فالاحصاء التام للانواع مستحيل ، وبالتالي الاحصاء التام للانواع التي هي طويلة العمر أو التي لا مرارة لها مستحيل . احصاء اللاحدود تناقض . زد على ذلك : لو أمكننا احصاء كل افراد النوع الذي عددهم لا متناه ولو أمكننا احصاء كل الانواع الذي عددها لا محدود فان ذلك لا يكفي للقيام بالاحصاء التام لانه يجب على ايضاً ان اكون قادراً على معرفة انه لا يوجد اي نوع آخر لا يدخل ضمن الجنس او اي فرد آخر لا يدخل ضمن النوع ، ومن المستحيل ان احاول اثبات ذلك إلا باختبار كل شيء في الكون لأعلم إن هنالك فرداً او نوعاً لم احتويه من قبل . ذلك مستحيل في الاصناف اللامتناهية ^(١) .

(١) Kneale, Op. cit, p. 27

٣ - لقد تضمن النقد السابق ان الاستقراء التام غير ممكن ، وذلك في حدود المثال الذي ضربه ارسطو؛ ولا يعني ذلك ان الاستقراء التام غير ممكن بأي حال، وإنما يعني انه غير ممكن فقط حين تدل مقدماته على جنس ذي عدد لا متناه من الانواع أو على نوع ذي عدد لا متناه من الافراد. ولكن الاستقراء التام استدلال مقبول ولا غبار عليه حين تدل مقدماته على أجناس انواعها متناهية العدد او على انواع عدد أفرادها متناهية . ان خطأ ارسطو بمعنى آخر لا يمكن في فساد الاستدلال وإنما في فساد المثال . الاستقراء التام استدلال مقبول حين تشير مقدماته الى اجناس او انواع يندرج تحت أي منها أنواع او أفراد محدودة العدد . هنالك أجناس وانواع يمكن حصر كل ما يندرج تحتها من أنواع او أفراد. ونسوق هنا نوعين من الأسئلة : مثال من موضوعات الرياضة وآخر من موضوعات الادراك الحسي . يمكننا ان نقسم المثلث من حيث تساوي اضلاعه او عدم تساويها الى متساوي الساقين او متساوي الاضلاع او مختلف الاضلاع إذ لا يوجد نوع رابع من المثلثات من هذه الجهة. وبذا يمكننا أن نقرر بيقين أن أي مثلث كائناً ما كان رأيناه او نراه او سوف نراه يمكن ان يصبح حالة جزئية تندرج تحت واحد من تلك الانواع الثلاثة . كذلك الدائرة والشكل البيضاوي والشكل المخروطي هي كل الاشكال الهندسية التي لا تقطع خطاً مستقيماً في اكثر من نقطتين ^(١) .

في هذا النوع من الاستقراء التام نجد المقدمات احصاء تاماً والنتيجة كلية

(١) ولم يكن من قبيل المصادفة أن أحد كبار المناطق حين أراد في كتاب مبسط ان يشرح الاستقراء التام الارسطي بمثال لم يشر الى مثال ارسطو وإنما وضع المثال الآتي : إن القضية « كل شهر من شهور السنة أقل من ٣٢ يوماً » نتيجة استقراء قام لأتينا فصل اليها بعد احصاء شهور السنة من يناير الى ديسمبر ، ونحن نعلم ان السنة ليس بها إلا ١٢ شهراً وأن بعض الشهور فيها ٢٨ يوماً وبعضها ٣٠ او ٣١ يوماً ولكن أيها لن يبلغ ٣٢ يوماً . ويمكن وضع هذا الاستقراء التام في صورة قياسية على النحو التالي : يناير ، فبراير ، ... الخ يتألف كل منها من أقل من ٣٢ يوماً ، يناير ، فبراير ، ... الخ هي كل شهور السنة ، ... كل شهر من شهور السنة يتألف من أقل من ٣٢ يوماً . (S. Jevons, Elementary Lessons in Logic, Macmillan, London, 1st. ed. 1870. reprinted 1948, p. 215.)

ضرورية لازمة من المقدمات وهو ما هدف اليه أرسطو .

والنوع الآخر من الأمثلة التي قد توضح موقف أرسطو من الاستقراء التام والتي لم يستطع أرسطو نفسه ان يقدمها هو تلك التي تشير مقدماتها الى افراد محدودة العدد ، محدودة المكان والزمان . مثال : محمد يلبس معطفاً أسود اللون ، علي يلبس معطفاً اسود اللون ، حسن يلبس معطفاً أسود اللون ، لكن محمد وعلي وحسن هم كل الافراد الجالسون الآن في الحجرة المجاورة . كل الافراد في الحجرة المجاورة يلبسون معاطف سود .

٤ - من الممكن ان نجعل الاستقراء التام استدلالاً معقولاً كما وضعنا في الفقرة السابقة وأن نجعل فيه الخصائص التي أرادها أرسطو له مثل استناد المقدمات الى احصاء كامل لمضمونها وكلية النتيجة وضرورتها، ولكننا نلاحظ حينئذ أنه يمكن أن يوجه الى الاستقراء التام نفس النقد الذي يوجه الى القياس وهو أن ليس بنتيجته ما ليس موجوداً من قبل في المقدمات . وقد أشرنا من قبل ان ذلك الاستقراء سمي باستقراء قياسي . ومن ثم يحسن ان نسميه الاستقراء التلخيصي Summary induction بدلاً من الاستقراء التام . أما وقد ظهر هذا العيب في الاستقراء فلم يسلم من نقد المناطقة المحدثين ، فقد أعلن جون ستوارت مل انه ليس باستقراء على الاطلاق ، حيث انه مجرد تلخيص لما سبق لنا معرفته ، وأنه لم يأت بجديد في نتيجته ، وكان مل قد فهم الاستقراء على انه الاستدلال من معلوم الى مجهول . في نقد مل للاستقراء التام بعض الوجاهة ولكن ينبغي ألا نحرم هذا الاستدلال من أي قيمة . لا زالت له قيمة كبرى لاننا نستخدمه في حياتنا اليومية والعلمية على السواء ؛ بدون الاستقراء التام لا يتسنى لنا ان نقيم قضية عامة بل نضطر الى احصاء كل حالة جزئية : افترض اني فحصت مكتبتي يوماً ما لأتأكد أن كل الكتب التي بها كتب فلسفية ثم قلت ، «كل ما في مكتبتي فلسفي » . هذا حكم عام أصدره اليوم ولست محتاجاً لفحص مكتبتي كل مرة أريد ان أتأكد من مضمون ذلك الحكم . كذلك علم الحساب مثلاً قائم في أساسه على مجموعة

عمليات جمع وطرح وضرب وقسمة ، وفي ذلك يمكننا هذا العلم من تناول عدد كبير من الوحدات العددية في اقصر وقت ممكن ، وإلا لما استطيع ان اكتب العدد ١٠٠٠ و كنت محتاجاً لأن أعد الأعداد من ١ الى ١٠٠٠ كل مرة اريد ان أدون ان لدي ألفاً من كذا وكذا . الحياة العملية والعلمية مليئتان بالتلخيص ، يشير الى ذلك استخدامنا لكلمات « كل » و « جميع » ونحن نعرف ابتداء ما افرادهما . ننتهي من ذلك الى ان للاستقراء التلخيصي قيمة كبرى ولكننا نوافق مل واتباعه على ان ليس له قيمة في الكشف عن الجديد ، ليست له قيمة كاستدلال نصل منه الى قانون تجريبي في العلوم الطبيعية .

هـ - سنعلم من بعد أن فرنسيس بيكون يتحمس لاستقراء آخر غير الذي ذهب اليه ارسطو ، لكننا نلاحظ هنا أن بيكون يتوجه الى الاستقراء التام الارسطي بنقدين اساسيين . خلاصة النقد الأول ان ارسطو لم يكن مهتماً بقيمة التجربة رغم كل ما قاله في كتابه « الحيوان » وغيره من الكتب التي قد تشير الى قيمة الملاحظات : لم يتضمن الاستقراء التام ملاحظات جزئية وانما يتضمن احكاماً عامة عن بعض صفات تتعلق ببعض الأنواع ثم اصدار تعميم كلي عن كل الانواع ما لوحظ وما لم يلاحظ . نقد بيكون بمعنى آخر هو أن الاستدلال الذي مقدماته كلية ليس استقراء . أما نقد بيكون الثاني للاستقراء التام الارسطي فانه قائم على نقده لنوع آخر من الاستقراء يسميه الاستقراء بالاحصاء البسيط Induction by Simple enumeration . يعرف بيكون هذا النوع الاخير من الاستقراء بأنه انتقال من مقدمات تتناول عدداً محدوداً من الأمثلة الجزئية الدالة على أفراد الى تعميم يضم تلك الأمثلة وغيرها مما يندرج تحت نوع واحد ، والصورة الرمزية لهذا الاستقراء هي « كل أ الملاحظة هي ب » . « كل أ هي ب » . يقول بيكون إن في اعتبار نتيجة هذا الاستقراء نتيجة كلية تهوراً كبيراً لانك تحصى أمثلة ايجابية تؤيد النتيجة ولم تأخذ حذرك من عدم وجود امثلة سلبية تناقض النتيجة ، واحتمال وجود هذه الامثلة السلبية ممكن ، لأن أ الملاحظة اضيق في نطاقها من أ وقد يحدث أن يأتي مثل ل أ في المستقبل

يناقض النتيجة ومن ثم فتلك النتيجة كاذبة . كنا نعلم فيما مضى مثلاً أن كل البجع أبيض ولكننا لاحظنا في القرن الماضي أن في استراليا يحماً أسود . « الاستقراء الذي يبدأ بالاحصاء البسيط صياني ، نتائج غير مأمونة ، ينكرها مثل سلمي واحد ، وهو يصدر بوجه عام عن عدد بسيط جداً من الوقائع ، وعن تلك الوقائع التي في حوزتنا فقط ، ^(١) . ينتقد بكون الاستقراء التام الارسطي بأنه الوصول الى نتيجة كلية من استقراء عدد بسيط من الملاحظات ، وعدد موجب فقط ، ولم يتأكد من عدم وجود امثلة سلبية تنقض تلك النتيجة . وقد كرر جون مل النقد الاول البيكوني للاستقراء التام الارسطي بالاضافة الى النقد الذي سبق الاشارة اليه الخاص بعقم النتيجة في الاستقراء التام وعدم جدواها للتقدم العلمي . ولكن كان جون مل اقل هجوماً من بكون على الاستقراء بالاحصاء البسيط اذ يقول: « تؤسس الافكار الشعبية عادةً على الاستقراء بالاحصاء البسيط ؛ ولا يؤدي بالعلم خطوات كبرى نحو التقدم . نحن مضطرون ان نبدأ به ، ويجب ان نعتمد عليه اعتماداً مؤقتاً حين نعدم طريقة للبحث اكثر تأكيداً ووثوقاً ، ^(٢) . ولك ان تتساءل : لكن بكون نفسه يتحسس للاستقراء الذي يبدأ بعدد من الملاحظات الجزئية لينتقل منها الى نتيجة عامة ، وإذن فما معنى نقده للاستقراء بالاحصاء البسيط ؟ الجواب أن بكون حقاً يفهم الاستقراء بأنه الانتقال مما هو ملاحظ الى حكم عام ينطبق على ما هو ملاحظ وغير ملاحظ من نوع الظاهرة او الواقعة قيد البحث ، ولكنه كان يعطي أهمية كبرى للامثلة السالبة — حين نحاول تفسير ظاهرة ما يجب ألا نعتمد فقط على أمثلة تؤيد تفسيرنا وإنما يجب ان نبحت عن امثلة تنقض تفسيرنا فان لم نجد كان تفسيرنا مطابقاً للواقع وكان من ثم صادقاً .

(١) F. Bacon, Novum Organum, Book 1, Aphorism 105.

(٢) J. S. Mill, A System of Logic, Longmans, London, new impression 1961, BK. III, Ch. III, § 2.

الاستقراء الحدسي

لم يستخدم ارسطو عبارة الاستقراء الحدسي ؛ هذه العبارة من وضع جونسون^(١) . أما ما نسميه بالاستقراء الحدسي فكان يشير اليه ارسطو بكلمة « استقراء » فقط ، لكن بمعنى مختلف عما سماه هو الاستقراء التام . يعرف ارسطو ما يسمى بالاستقراء الحدسي بأنه العملية التي بواسطتها ندرك أن مثلاً جزئياً دليل على صدق تعميم ما ، أو أنه تلك العملية التي عن طريقها نصل الى ادراك ما يسميه بالمقدمات الاولى أو الحقائق الضرورية بواسطة بعض الامثلة الجزئية التي تكشف عنها . والسبب الذي من اجله اقترح جونسون كلمة « حدس » للدلالة على هذا النوع من الاستقراء هو أن ارسطو كان يرى أن ذلك النوع يوصلنا الى الحقائق الضرورية بحدس عقلي أو ان العقل (نوس) يدركها ادراكاً مباشراً^(٢) .

لقد تعرض ارسطو للاستقراء الحدسي في سياق حديثه عن « البرهان » . وكان يقصد بالبرهان « القياس المؤدي الى المعرفة العلمية - القياس الذي إدراكه هو تلك المعرفة ذاتها »^(٣) . إن البرهان عند ارسطو بمعنى آخر هو القياس الذي مقدماته ضرورية ، والقضية الضرورية هي الواضحة بذاتها ولا تحتاج لاثبات . على ارسطو إذن أن يثبت أن هناك قضايا ضرورية هي مبادئ البرهان لكنها ذاتها لا تحتاج اليه .

وقبل ان يقول لنا ارسطو ما هو الاستقراء الحدسي وكيف نصل الى المقدمات الضرورية يقدم لذلك بنظرية أخرى هي ضرورة وجود حدود

(١) W. E. Johnson, Logic; Cambridge University Press, 1921, Pt. II, Chs. VIII and IX

(٢) Aristotle, The Works of Aristotle, translated by Smith and Ross, Oxford University Press, London, reprinted, 1955, Post. An., 100b 12.

(٣) Post. An. 71b 17 - 18.

أولى - يرى انه توجد موضوعات لن تكون محمولات في قضية وهذه سيسميتها جواهر أولى ، وتوجد محمولات لا يمكننا ان نسند اليها محمولات أعم منها أي لن تكون موضوعات لمحمولات اعم منها - وهذه سيسميتها مقولات . يضع ارسطو هذه النظرية بأن سأل ثلاثة أسئلة : السؤال الاول هل من الممكن ان يكون موضوع ما محمولا وذلك المحمول موضوعاً لمحمول آخر ونصعد في هذه السلسلة الى ما لا نهاية ؟ السؤال الثاني هل من الممكن ان يكون محمول ما موضوعاً لمحمول آخر وهذا المحمول موضوع لمحمول آخر وننزل في هذه السلسلة الى ما لا نهاية ؟ والسؤال الثالث اذا كان الموضوع والمحمول متناهيين فهل من الممكن ان توجد بينهما حدود وسطى لا متناهية ^(١) ، لن تعرض هنا لاجابة ارسطو بالتفصيل عن الاسئلة الثلاثة لانها ستخرجنا عن موضوعنا - يهدف تفصيلها إلى إثبات نظريته في التفرقة بين « الحمل الطبيعي » و « الحمل المتكلف » . سنوجز فقط جوابه عن السؤال الثالث وبعض جوابه عن السؤالين الآخرين .

يجيب ارسطو أولاً عن السؤال الثالث فيقول : اذا كان للحمل حد من اعلا ومن اسفل فلا يمكن للحدود الوسطى ان تكون لا متناهية في العدد لانه لو كانت الحدود الوسطى لامتناهية فلن نصل الى الحد الادنى الذي بدأنا منه أي لو كانت الحدود الوسطى لامتناهية لكان يجب ان نجد حداً آخر أدنى منه أي محمولا آخر ، ومحمولا أدنى من هذا وهكذا إلى غير نهاية ، وقل مثل ذلك في عملية الصعود اللامتناهية في سلسلة الموضوعات . ولكن يجب أن نرفض هذه العملية لانها مناقضة لفرضنا وهو حصولنا على حدين ثابتين من أول الامر .

وخين يجيب ارسطو عن السؤالين الاول والثاني أي ما إذا كانت هنالك حدود أولى أم لا ، فإنه يجيب من زاوية تنامي المحمولات . قد يكون المحمول مؤلفاً لماهية الموضوع أو ذاكرة عرضاً له . سنقتصر هنا على ذكر

Post. Anj. 81 b 38 - 82 a 8.

(١)

أرسطو للحالة الأولى . يقول لنا انه يجب أن تنتهي سلسلة المحمولات لأنه اذا كان الفرد (وهو الجوهر الاول وهو الموضوع الذي لن يكون محمولاً أبداً) موضوع معرفة ، وهو كذلك ، فانتسابا نعرفه حق المعرفة بذكر ماهيته ، والماهية محدودة لأنه لو كان المحمول هنا مؤد بنا إلى سلسلة لامتناهية لما كانت هنالك ماهية محددة ، ولما عرف الموضوع . ننتهي من ذلك العرض الموجز لموقف أرسطو فيما نحن بصدده إلى ان هنالك موضوعات لا يمكن ان تكون محمولات ، ومحمولات لا يمكن ان تكون موضوعات . واسماء الاعلام مثال على الموضوعات الاولى ، وجنس الاجناس مثال على المحمول الأول . واذا كان الطرفان محدودين إذن فالحدود الوسطى كذلك متناهية العدد .

نعود الى البرهان والقضايا الضرورية عند أرسطو . لقد رأى أن ضرورة التسليم بموضوعات أولى ومحمولات أولى مقدمة للتسليم بمقدمات أولى أو حقائق ضرورية : نسلم بها ولا نشك في صدقها ، ونذكر ما فيها من وضوح وبداهة دون برهان ، والبرهان عليها مستحيل ولا بد ان تبدأ المعرفة من مقدمات أولى . ويتساءل أرسطو وكيف نصل الى معرفة تلك المقدمات الاولى ؟ ويجيب نصل اليها بالاستقراء - يعني الاستقراء الحدسي . ليس هذا الحدس هو التذكر الافلاطوني أو الحدس الديكارتي أي الكشف عن شيء فطري في العقل ولكنه نوع من الاستقراء الذي « يعرض الكلّي المتضمن في الشيء الجزئي المعروف معرفة واضحة » . و « ذلك مستحيل بدون الخبرة الحسية » - ونوضح الاستقراء الحدسي بالامثلة . إذا رأيت في مثال واحد معين أن أ تستلزم ب فإنه يمكنني معرفة أن كل أ تستلزم ب . حين أقول ان كل الاشياء الملونة ممتدة فإنني اتكلم عن أي شيء ملون في أي مكان وأي زمان . اننا لا نقيم القضية « كل ما له لون ممتد » بالاحصاء التام لأنه يلزمنا ان أحصي عدداً لامتناهياً من الاشياء الملونة وهو محال من حيث المنطق كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وإنما نقيم هذه القضية باستقراء أي أن نفهم علاقة ضرورية ومن ثم علاقة كلية بين اللون والامتداد كما تكشف عنها معرفتنا للجزئيات .

خذ مثلاً آخر . افرض ان امامك وردة حمراء فاقعة وغبرت عن رؤيتك لها بالقضية هذه الوردة حمراء فاقعة ، وافرض ان هنالك وردة اخرى قرمزية اللون إلى جوار هذه وعبرت عن رؤيتك بالقضية وهذه وردة قرمزية . افرض انك أطلت النظر في الوردتين لتوازن بين ما في اللونين من تشابه أو اختلاف فسوف تعبر عن خبرتك الاخيرة بقولك ان الوردة الحمراء الفاقعة أدكن في لونها من الوردة القرمزية . هذه القضية الاخيرة ليست مشتقة من الخبرة الحسية لكنها تعتمد على تلك الخبرة بمعنى انك لم تر الدكن وإنما رأيت اللونين فقط ، وبمعنى انه اذا لم تكن امامك الوردتان لما حكمت بهذا الدكن . قد ننتقل من هذه القضية الاخيرة الجزئية الى قضية عامة مثل كل لون احمر فاقع أدكن من كل لون قرمزي . هذه القضية الاخيرة إنما تعبر عما سماه ارسطو قضية ضرورية تصدق لا على الوردتين موضوع ادراكك الحسي فحسب وإنما تصدق كذلك على أي شيئين اتصفا بهذين اللونين . لقد وصلنا إلى هذه القضية العامة بإدراك مباشر وهي قضية حدسية عند ارسطو . ومثل هذه القضية القضايا كل جسم ممتد ، الابيض ليس بأسود ، الدائرة ليست مثلثاً ، العدد ٣ اكبر من العدد ٢ ومساو لـ ١+٢ ، القلم الاحمر لا يمكن أن يكون كذلك أخضر في نفس الوقت - هذه قضايا عامة لا شك فيها ولا برهان عليها - ندرك صدقها بإدراك مباشر أو بحس . لاحظ أنه يكفيك في هذه الحالات مثال واحد لاصدار القضية الكلية ، وعدم وجود كثرة الامثلة لا يقلل من صدق القضية الحدسية ، كما أن كثرة الامثلة لا تزيد القضية الحدسية صدقاً . قد تلاحظ أن كل قضايا الحساب والهندسة من ذلك النوع - تقوم على الاستقراء الحدسي .

ولكي تتضح نظرية ارسطو في الاستقراء الحدسي نورد تمييزاً بين الوقائع والمبادئ . اذا قلت ان هذا القلم احمر اللون فإني بذلك أعبر عن إدراكي لواقعة جزئية ، ولكني اذا قلت ان القلم - أي قلم - قد يكون أحمر أو قد يكون أخضر أو أسود أو أصفر ولكن لا بد وان يكون له لون ، أو أن

القلم – أي قلم – لا يمكن ان يكون أحمر وأصفر في وقت واحد ، فإن هذه القضايا تعبر عن مبادئ هي مستندة الى الخبرة الحسية ولكن تلك الخبرة ليست مصدر صدقها. إن التمييز بين الواقعة والمبدأ الحدسي تميز بين الحادث من جهة والممكن او المستحيل من جهة . الاستقراء الحدسي انما يسدل على مبادئ ولا يشير الى وقائع : قبول القضية الحدسية انما هو إدراك أن بين حدودها اتفاقاً أو ان بين حدودها اختلافاً – ادراك أن بين اللون والامتداد اتفاقاً وادراك أن في الشيء الملون بلونين مختلفين في وقت واحد وفي بقعة واحدة اختلافاً وتنافراً . وادراك الائتلاف أو التنافر بين الحدود انما بالحدس او بادراك مباشر ، وإن كان هذا الادراك غير ممكن ما لم نر وقائع امامنا نعتبرها شواهد على صدق هذه القضية الحدسية أو تلك .

الفصل الثالث

الاستقراء التقليدي

تعريف بالاستقراء التقليدي :

لقد فرغنا في الفصل السابق من الإشارة الى نوعي الاستقراء عند ارسطو: التام والحدسي. أشرنا كذلك الى نوع ثالث من الاستقراء نسميه الاستقراء التقليدي وهو ذلك الاستقراء الذي كان مألوفاً في القرن السابع عشر والذي أشار اليه فرنسيس بيكون وزاد في شرحه وتحمس له اتباعه واكثرهم شهرة جون ستوارت مل . قلنا عن ذلك الاستقراء أنه استدلال يتألف من عدد من المقدمات لا نلتزم فيه بعدد معين وانما كلما زاد عددها زاد احتمال صدق النتيجة ؛ يشترط في تلك المقدمات ان تكون تصويراً للواقع أي تعبيراً صادقاً عن سير الوقائع أو الظواهر أو الحوادث في العالم من حولنا ؛ وننتقل من تلك المقدمات إلى نتيجة عامة تتطوي على تفسير لتلك الوقائع مضمون تلك المقدمات وان تلك النتيجة هي صيغة القانون العلمي ، ومن ثم يكون هذا الاستقراء منهج البحث في العلوم التجريبية ومنهج كشف القوانين العلمية ؛ ومن ثم يخرج ذلك الاستقراء من نطاق ما يسمى في علم المنطق بالمنطق الصوري . في هذا الفصل نتحدث عن ذلك الاستقراء بشيء من تفصيل .

لقد اعتادت بعض الكتب المدرسية في المنطق ان تسمي ذلك الاستقراء «بالاستقراء الناقص» ، ونرى ان التسمية غير موفقة ، إذ ليس ذلك الاستقراء

ناقصاً بمعنى أنه لا يحقق غايته وهي كشف القوانين وتفسير الظواهر الطبيعية، بل انه على العكس من ذلك يسير خطوات نحو تحقيق تلك الغاية . لقد سمي ناقصاً لتمييزه من الاستقراء التام الارسطي ، ذلك لأنه بينما ينطوي الاستقراء التام على إحصاء كل انواع الامثلة التي يمكن أن تندرج تحت نتيجة عامة ، نرى الإستقراء الآخر لا يحصي في مقدماته كل أمثلة الظاهرة موضوع البحث ، وإنما يقتصر على عدد منها ، ويتضمن أن ما ينطبق على ذلك العدد من الامثلة ينطبق كذلك على الامثلة الاخرى التي لم تكن في متناولنا والتي قد تحدث أو تلاحظ في المستقبل . ولكن ذلك التمييز بين الاستقراء التام والآخر لا يؤدي الى اعتبار ذلك الآخر ناقصاً . لا نريد أن نسميه الاستقراء التام حتى لا نخلط بينه وبين استقراء ارسطو . ولا نريد أن نسميه الاستقراء العلمي فقد كان يسمى كذلك في بدء نشأته ولكن لما تطورت الابحاث العلمية وطالعتنا الكشوف الجديدة وتطور البحث في المناهج العلمية اصبحنا - كما سنرى في الفصول الاخيرة من هذا الكتاب - لا ننظر الى الاستقراء البيكوني المبني على انه منهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة حيث نجد اختلافاً بين ذلك الاستقراء وهذا المنهج . هيا نسميه الاستقراء التقليدي تمييزاً له من الاستقراء الارسطي الذي يمكن ان نسميه بالاستقراء القديم ، وتميزاً له من المنهج العلمي الذي يزاوله العلماء منذ الثلث الاخير من القرن الماضي .

لقد استعرنا تسمية الاستقراء التقليدي من علم الطبيعة التقليدي أو الكلاسيكي . لدينا ما نسميه بعلم الطبيعة القديم وهو الذي شاع فيما بين الفلسفة الاغريقية والعصر الوسيط ، والذي بدأ جاليليو يسدله الستار ، ولدينا علم الطبيعة التقليدي أو الكلاسيكي وهو الذي يؤلف علم الطبيعة كما يرويه لنا جاليليو واسحق نيوتن والمدرسة النيوتونية التي استمرت حتى قبيل اواخر القرن التاسع عشر ، ثم لدينا الآن علم الطبيعة المعاصر وهو الذي يتمثل في النظريات التي قدمت في اواخر القرن الماضي ولا زالت تقدم لنا في قرننا الحالي ، والتي تتمثل في نوعين اساسيين من النظريات وهي نظريات النسبية التي

نادى بها ألبرت اينشتين وتلاميذه ، ونظريات الكوانتم التي نادى بها ماكس بلانك M. Plank واخوانه ومعارضوه . بدأ علم الطبيعة المعاصر حين بدأ القضاء على نظريات نيوتن في المكان المطلق والزمان المطلق والتميز بين المكان والزمان تمييزاً حاسماً - قضى على ذلك اينشتين . وبدأ علم الطبيعة المعاصر ايضاً حين بدأت الثورة على علم الميكانيكا النيوتوني باكتشافات نظريات الكوانتم: لم تنكر هذه النظرية نظريات نيوتن وانما انكرت ان تلك النظريات كلية الصديق ، لم تصدق تلك النظريات في عالم الذرة . كان منهج البحث في علم الطبيعة القديم هو المنطق الصوري والاستقراء القديم ، وكان منهج البحث في علم الطبيعة التقليدي هو الاستقراء التقليدي بوجه عام ، ومنهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة هو ما سنسميه فيما بعد بالمنهج الغرضي .

لقد سمينا الاستقراء التقليدي في الفقرات السابقة بالاستقراء البيكوني المبني . لم يكن هذا الاقتران دقيقاً فان الاستقراء التقليدي الذي سنعرضه في هذا الفصل يصور موقف بيكون أو مل بوجه عام ولكن لا يصور موقفها على نحو دقيق . أما الاستقراء عند كل من بيكون ومل فانه موضوع الفصلين التاليين . نحن هنا نحاول تقديم صورة عامة للاستقراء الذي شاع في القرون السابع عشر الى التاسع عشر ؛ سنعرض في هذا الفصل - بمعنى آخر - الموقف العام للمنهج العلمي الذي شاع في تلك القرون ، وقد يكون بعض ما نقوله لم يقبله بيكون مثلاً . ولكن ذلك الموقف العام يعبر عن اتجاهه بوجه عام . نلاحظ ايضاً أن قولنا ان ذلك الاستقراء التقليدي منهج القرون السابع عشر الى التاسع عشر قول غير دقيق لانه قد توسط هذه الحقبة بعض اتجاهات تعارض مواقف الاستقراء التقليدي مثل جاليليو الذي اختلف عن التقليديين في اعطاء هؤلاء الملاحظة والتجربة أولوية في البحث ، وهو قد اعطى الأولوية للاستدلال الرياضي ، ومثل هيوم الذي اختلف عن الاستقراءيين في ذلك العهد في رأيه ان ليس الاستقراء باستدلال منطقي بالمعنى الدقيق ، بينما رأى الاستقراءيون في تلك الحقبة أنه منطق العلم وأنه بديل بالاستدلال الصوري .

وقبل الإقدام على بيان ما الاستقراء التقليدي تلزم الإشارة الى الجو الذي نشأ فيه . يعتبر الاستقراء التقليدي رد فعل للمناهج التي شاعت حتى عصر النهضة ، والتي تتمثل في الاستدلال القياسي بوجه خاص ، لقد وُجِّه الى القياس نقدان اساسيان : أولهما ان مقدمات القياس مقدمات كلية واننا نفترض صدق تلك المقدمات مع انها في اغلب الحالات ليست كذلك . ونريد أن نجعل مقدماتنا صادقة ولا يتأتى ذلك الا اذا كانت مقدمات الاستدلال جزئية ومطابقة للواقع وتعبيراً عنه . والنقد الثاني هو أن نتيجة القياس صادقة صدقاً ضرورياً ولكن لا صلة لها بالواقع : يتضمن القياس الصدق المطلق أي من مجموعة من المقدمات تلزم عنها نتيجة ما لزوماً منطقياً وبالرغم من ذلك ليس بالنتيجة القياسية علم جديد لان النتيجة متضمنة في المقدمة الكبرى . ولكن لن نتقدم معارفنا الا اذا كنا نصل الى ما كان مجهولاً لدينا من قبل ، واذن فلا قيمة من استخدام القياس اذا اريد بنا ان نتقدم معارفنا عن عالم الظاهرات . وباختصار نريد استدلالاً مقدماته جزئية ومطابقة للواقع ونريد نتيجة تتضمن علماً جديداً . ومثل هذين النقيدين يقالان على الاستقراء التام الارسطي لانه كما أوضحنا نحو من القياس . أما الاستقراء الحدسي الارسطي فهو أدخل في نطاق نظرية المعرفة منه في نطاق المناهج . ومن ثم قامت الثورة على منطق أرسطو والتي كان قوامها إفساح المجال لمنطق تجريبي : لقد بدأ فرنسيس بيكون هذا الاتجاه . ولم يمض علينا وقت طويل حتى خرجت لنا ما نسميه بالفلسفة التجريبية الانجليزية على يد توماس هوبز وجون لوك .

مراحل الاستقراء التقليدي

لهذا الاستقراء مراحل ثلاثة : (١) الملاحظة والتجربة (٢) وضع الفروض (٣) تحقيق الفروض . ما نقوله عن المرحلة الاولى يكاد يصور موقف كل من خمس للاستقراء التقليدي ، فهي الاساس العام للثورة على المنطق القويم . أما المرحلة الثانية فلا تصور موقف فرنسيس بيكون مثلاً - على الاقل اذا أخذنا

عباراته أخذاً حرفياً فهو يقول لنا إنه ينكر الفروض . وإذا كان ينكر
بيكون الفروض فهو بالاحرى منكر لتحقيقها . وحين نعرض له في الفصل
التالي سنشير الى المراحل التي يراها تالية لمرحلة الملاحظة والتجربة لتقودنا الى
النتيجة العامة التي قنطوي على كشف قانون طبيعي جديد . ولما كان جون
مل أول من صاغ المرحلة الثالثة في وضوح فانا نرجى الحديث عنها حتى
نتعرض لجون مل . وبالرغم من تلك الخلافات فان الاستقراء التقليدي لما
شاع وذاع وتطور كانت تتصوره القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع
عشر على انه يتضمن المراحل الثلاثة كي يكون منهجاً علمياً متكاملأ .

الملاحظة والتجربة

« الملاحظة » من الالفاظ التي لا يمكن تعريفها تعريفاً دقيقاً لأن أي
تعريف لها سيتضمن لفظاً مرادفاً لها أو يتضمن اللفظ نفسه . ولكن يمكن
الاشارة فقط الى معناها حين نقول مثلاً إنها توجيه الحواس والانتباه إلى
ظاهرة معينة أو مجموعة من الظواهر رغبة في الكشف عن صفاتها أو خصائصها
توصلاً إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو الظواهر . ويمكن
تعريف « التجربة » بأنها ملاحظة ظاهرة ما أو مجموعة من الظواهر ملاحظة
مقصودة تتضمن تغيير بعض الظروف الطبيعية التي تحدث فيها تلك الظاهرة
رغبة في الوصول الى صفاتها أو خصائصها التي لا يكون في استطاعتنا الوصول
اليها بمجرد الملاحظة دون تعديل في ظروفها الطبيعية . وأوضح مثل على
الملاحظة ما يقوم به علماء الفلك حين يلاحظون النجوم والكواكب وحركاتها
بغية الوصول الى قوانين تلك الحركات ، وما يقوم به علماء الطبقات الهوائية
(المتيورولوجيون) حين يلاحظون اختلاف الاجواء في مختلف البقاع واتجاه
الرياح وقوتها ، وما يقوم به علماء الجيولوجيا حين يلاحظون طبيعة الصخور
ونحو ذلك . وأوضح مثل على التجربة ما يقوم به علماء الكيمياء حين
يكشفون العناصر التي تؤلف سائلاً ما أو مادة ما باحداث تفاعلات خاصة :
كأن تستخدم تياراً كهربياً في كوب به ماء فينفصل الايدروجين عن

الاكسيجين، ومثل علماء الحيوان والنبات حين يعزلون الحيوان أو النبات عن ظروفها الطبيعية ليتوصلوا الى بعض خصائصها .

ويلاحظ أن التجربة أكثر أهمية من الملاحظة حيث تقيدها الأولى في كشف القوانين التي لا تسمح به مجرد الملاحظة البحتة للظواهر: قد نضطر الى الانتظار سنوات بل قروناً كي نصل الى ظاهرة ما تحدث حدوثاً طبيعياً ؛ ونصل اليها في وقت قصير حين نخلق ظروف إيجادها في المعامل : إننا مثلاً لا نجد ثاني اوكسيد الكربون في الطبيعة الا في صورة غازية نتيجة لاحتراق قطعة من الفحم ، ولكن حين نعرض هذه القطعة لدرجة ضغط عالية ودرجة معينة من البرودة يمكننا الحصول على ذلك الحامض في صورة سائلة . وبالرغم من هذا الاختلاف بين الملاحظة والتجربة فان الخط الفاصل بينهما غير موجود - الاختلاف بينهما اختلاف في الدرجة لا في النوع : ان الفلكي حين يستخدم آلاته لتسجيل حركات نجم ما في اماكن مختلفة في نفس الوقت وفي اوقات مختلفة فانه يقوم بتجربة لا بملاحظة، وحين يقوم الكيائي بتجربته على مركب ما فانما ينتظر ما تنجم عنه التجربة فتصبح مهمته رصد الملاحظة . يمكننا التمييز بينهما فقط بالإشارة - كما يقول هرشل J. Herschel - الى الملاحظة المنفعلة والملاحظة الفعالة : في الملاحظة المنفعلة لا نقوم بجهد من جانبنا لتغير من الظاهرة : جهداً إنما هو مجرد تسجيل ما نرى أو نسمع ، مثلنا هنا كمثل من يجلس في استرخاء ليستمع الى قصة تروى له ، وقد تروى له في غموض ، وقد تروى له اجزاء منها فقط ، وفي اوقات متفرقة ، وقد يتوزع انتباهنا الى حد ما في سماعها ، ولكن قد نبداً في ادراك مغزى القصة وأهميتها فيما بعد ، حينئذ لا نجد الراوي ولن تعاد القصة . أما في التجربة فنحن نحضر هذه الظاهرة او تلك وكأنا نسأل الطبيعة أسئلة وننتظر الجواب .

وللملاحظة والتجربة شروط عامة يجب مراعاتها حتى تكونا موضع ثقتنا، أهمها الدقة والموضوعية - والمقصود بالدقة العناية في تسجيل الظاهرة كأن تكون حواس الباحث سليمة وان تتوفر الآلات والمقاييس اللازمة لتسجيل

ما يصعب أو يستحيل على الحواس الظاهرة تسجيله. وأما الموضوعية فالمقصود بها أن نبتعد عن إدخال العناصر الذاتية في تسجيل الظاهرة - أي لا نسجل ما نرغب في تسجيله فقط وإنما نسجل ما نراه ، أحببنا أم كرهنا (١) .

فرض الفروض

أول مرحلة من مراحل البحث الاستقرائي هي مرحلة ملاحظة الوقائع والظواهر والحوادث أو إجراء التجارب على ما من شأنه الوصول الى الوقائع والظواهر والحوادث موضوع البحث . ولكن لا قيمة لتكديس تلك الملاحظات والتجارب أو مجرد وضع قائمة بها ؛ لأننا حين نقوم بتلك الملاحظات والتجارب فلنأخذ نقوم بها بقصد الوصول الى قانون عام يفسر مجموعة معينة من الظواهر أو الوقائع . تسجيل واقعه ما ليس كل ما نسمى اليه ، ولكننا نسمى ايضاً الى تفسيرها ، والقانون العام هو ذلك التفسير . ومرحلة الوصول الى القانون العلمي هي المرحلة الثالثة من مراحل البحث الاستقرائي . تسبق تلك المرحلة مرحلة التفسير: تفسير الملاحظات والتجارب وهي ما نسميها مرحلة فرض الفروض .

يبدو أن كلمة « فرض » تعني تخيل شيء يعبر عن علة لمجموعة معينة من الظواهر أو الحوادث موضوع الاختبار ، وأن تلك العلة عامل أساسي في إنتاج تلك المجموعة . حين نضع فرضاً انما نضع علة تكون الظواهر أو الاشياء الملاحظة أو موضوع التجربة معلولات لها وآثاراً . ويمكن ان نسمي تلك المرحلة - مرحلة وضع الفروض - بمرحلة محاولة لتفسير الظواهر . ومعنى « التفسير » أن تتفق واقعة مع أخرى او مع قانون . حين نسمع صوت زلزالا في مكان ما ثم بعد قليل نعلم عن حدوث بركان في مكان مجاور نقول إن البركان يفسر حدوث الزلزال : يكشف لنا الانكسار أن كانت هنالك عوامل تفعل

(١) تجد تفصيلاً لشروط الملاحظة والتجربة في كتاب الدكتور محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث .

تحت سطح الارض وان الزلزال أثر لتلك العوامل . وقد نقصد بالتفسير أن تتفق واقعة مع قانون عام ونعني بذلك أن علة وقوع الواقعة وطريقة وقوعها قد تكون نفسها علة وقوع وقائع اخرى مشابهة تفسرها تلك العلة . فمثلاً حين نضع كوباً من الزجاج على النار ونلاحظ أنه تكسر أو تهشم ، فإن من الممكن تفسير تلك الواقعة بقولنا ان الحرارة تزيد من أبعاد الاجسام الصلبة . وذلك فرض أصبح قانوناً . يمكن تعريف الفرض اذن بأنه تكهن أو محاولة للتفسير ، وظيفته أن يربط بين عدد من الملاحظات والتجارب ويكشف عن بعض العلاقات الثابتة بين تلك الملاحظات التي يتضمنها سلوك طائفة من الظواهر أو الحوادث . وحين نضع تفسيراً ، قد يكون ذلك التفسير صادقاً أو كاذباً ، فإن كذب فإن علينا أن نحاول تفسيراً آخر يتفق مع الوقائع ، وإن صدق وأيدته الوقائع قيد البحث في الحاضر والمستقبل القريب أصبح ذلك الفرض قانوناً .

انواع الفروض

كنا نتحدث عن الفرض والفرض العلمي دون تمييز بينها ، ولكن ما الفرض العلمي الا نوع واحد من الفرض . ولكي نوضح معنى الفرض العلمي - وهو موضوعنا - ينبغي ان نميزه من الانواع الاخرى من الفروض . وأهم تلك الانواع : الفروض الاسطورية ، والدينية ، والحيوية ، والتاريخية ، والفلسفية ، والعلمية . سنقول كلمة عن الفروض الاسطورية والعلمية فقط ، أما الانواع الاخرى من الفروض فهي خارجة عن موضوع بحثنا .

نسمي الفرض اسطورياً اذا كان ينطوي على تفسير ظاهرة ما بفكرة أو افكار لا سبيل لنا في عالم الخبرة الحسية إلى تحقيقها ، لا بطريق مباشر ولا بطريق غير مباشر . تبدو الفروض الاسطورية واضحة في العصور السابقة على عصر العلم التجريبي . ونسوق مثلين على الفروض الاسطورية ، مثل من اساطير القدماء المصريين ، ومثل من احد العلماء البارزين في أول هذا القرن . كان المصريون القدماء يفترضون أن الكون أشبه بصندوق كبير ، الارض

قاعه والسماء سقفه ، وأن النجوم مصابيح حملتها الآلهة أو هي معلقة في حبال تتدلى من سقف الصندوق . وافترضوا الشمس إلهاً - رع - يسير كل يوم في قارب في نهر ، ما نهر النيل إلا احد فروعها ، وأن هذا الآله يولد كل صباح وتتضاعف قوته شيئاً فشيئاً حتى الظهيرة ، وبعدئذ ينتقل من قارب الى قارب متجهاً آخر النهار نحو المشرق . هذا افتراض القدماء المصريين لتفسير ما شاهدوا من وقائع شروق الشمس وغروبها وظهور النجوم والانهار . فلما ارادوا تفسير كسوف الشمس افترضوا ثعباناً ضخماً يهاجم القارب المقدس مما يؤدي الى غروب الشمس . وحين ارادوا تفسير خسوف القمر افترضوا ان للقمر أعداءه كما ان للشمس اعداءها - فقالوا إن خنزيرة تهاجمه في اليوم الخامس عشر من كل شهر ، وبعد اسبوعين من العذاب وشحوب اللون المتزايد يموت القمر ثم يولد من جديد (١) .

يروي لنا پيرسي ن العالم الطبيعي الانجليزي في أول القرن القصة التالية مشيراً الى الفرق بين التفسير الاسطوري والعلمي . كان رحالة علمي التفكير متنقلاً على هضبة في جبال الأنديز يرافقه دليل من أهل الجبل . لاحظ الرجلان - وهما على قمة الهضبة حين ارادا طهو طعامهما من البطاطس - ان البطاطس لم تنضج بعد غليان الماء فترة كبيرة . فسر الدليل هذه الظاهرة بان وعاء الطهي قد حلت به الشياطين فنعت البطاطس من النضج ، أما العالم ففسر نفس الظاهرة بقوله ان البطاطس لا ينضج على قمة الجبل في نفس الزمن الذي ينضج فيه فوق سطح البحر لأن درجة الغليان تتوقف على الهواء . وكلما كان ضغط الهواء على قمة الجبل قليلاً تطلب غليان الماء درجة من الحرارة اقل (٢) .

نقول عن الفروض الاسطورية أنها فروض غير علمية - أي تفسيرات غير مأمونة ولا اساس لها - لانها فروض يستحيل علينا أن نحققها أي نثبت من

(١) S. Stebbing, A Modern Introduction to Logic, p . 295 .

(٢) المثل مأخوذ من الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه المنطق الوضعي الجزء الثاني ص ١٤٦

صحتها بالخبرة الحسية - لا يمكننا تحقيقها تحقيقاً مباشراً أو غير مباشر :
لا نستطيع مثلاً أن نجد وسيلة لرؤية الصندوق الكوني أو الحبال التي تتدلى
منها النجوم أو الثعبان الذي يطعن الشمس ، كما أننا لا نجد وسيلة لاستنباط
هذه الحوادث . الفرض الاسطوري فرض غير علمي لسبب آخر هو أنه لا
يتفق ومعرفتنا للأشياء فمثلاً ليس من سلوك الخنازير أن تبتلع الأقمار وأن
التوالد المستمر للشمس ليس مستمداً من معرفتنا لتوالد الكائنات الحية فهذه
لا تولد كل صباح . يتميز الفرض الاسطوري ثالثاً بأنه يربط وقائع حسية
مشاهدة بأشياء خارقة للطبيعة .

أما الفروض العلمية فهي كما قلنا مرحلة في البحث تلي مرحلة الملاحظة
والتجربة وتسبق مرحلة صياغة القوانين العامة ، وهدفنا من فرض الفروض
هو محاولة تفسير الوقائع قيد البحث والوصول الى صياغة مبدأ عام يفسر
سلوك تلك الوقائع . ومن مميزات الفرض العلمي (أ) امكان تحقيقه تحقيقاً
تجريبيّاً بطريق مباشر أو غير مباشر أو تحقيقاً حتى من حيث المبدأ .
(ب) أن يفسر الوقائع بأشياء تدخل في نطاق المعرفة التجريبية لا بأشياء
خرافية أو خارقة للطبيعة .

شروط تكوين الفرض العلمي

يمكن القول بوجه عام ان تكوين الفرض الناجح محتاج الى شرطين اساسيين
هما اكتساب المعارف الواسعة في موضوع البحث والاستعداد الشخصي الذي
قد نعبّر عنه بمستوى عال من الذكاء والقدرة على الحكم السديد . فالمعرفة
الواسعة والاحاطة شاملة بفرع التخصص شرط أساسي لتفسير الوقائع
أو الظواهر التي تبدو جديدة علينا أو غريبة ، فقد يستطيع العالم أن يفسر
تلك الوقائع وذلك بأن يوجد علاقات جديدة بين وقائع امامنا بفضل ما
لديه من معارف سابقة عن تلك الوقائع أو وقائع مشابهة . ولا شك أن قدرة
العالم على التخيل عامل هام في تكوين الفرض . وليس الخيال هنا خيلاً جاحماً

لا صلة له بالواقع ، وإنما الواقع أساس له . يشترط في العالم بمعنى آخر ان تكون له قدرة على الابتكار . أما الذكاء وسداد الرأي فهما منحتان طبيعيتان ومن ثم ليس كل انسان عالماً ، وليس كل انسان بقادر على اكتشاف قوانين الطبيعة .

ولكن هذين الشرطين عامان لا يساعداننا كثيراً في تكوين الفرض . ما نأمل في الوصول اليه هو قواعد معينة ان التزمناها جاءنا الفرض مقبولا . نشير هنا الى ان ستانلي جيفوتز احد كبار المناطق الانجليز دوتن ما ظن انها الشروط التي يجب ان تتحقق في الفرض كي يكون مقبولا أو محتمل الصدق . لقد وضع ثلاثة شروط أساسية هي :

أ - يجب أن يسمح الفرض باستخراج نتائج يمكن اختبارها بالخبرة الحسية .
ب - يجب ألا يكون الفرض معارضا للقوانين الطبيعية التي سلمنا بصدقها في الماضي كما يجب ألا يكون معارضا لقوانين الفكر .

ج - يجب ان تكون النتائج المستنبطة من الفرض متفقة والوقائع ^(١) .

نريد ان نعلق على تلك القواعد او الشروط . تقول القاعدة الاولى أنه لا يكون الفرض فرضاً الا اذا كان يسمح باستنباط نتائج يمكن ان تكون موضوع ملاحظة . ونود ان ننبه الى أنه لا يلزم أن تكون الملاحظة المطلوبة هنا ملاحظة مباشرة ، لأنه ليس كل فرض يمكن تحقيقه تحقيقاً مباشراً فهناك فروض هي علمية أصيلة لكننا نستطيع ان نحققها تحقيقاً غير مباشر فقط مثل الفرض الذري في علم الطبيعة : الذرة لا ترى ولكننا نستدل على وجودها من وجود آثارها الكهربائية والحركية ^(٢) . ولذلك يمكن القول ان القاعدة الاولى ليست قاعدة بالمعنى الدقيق بقدر ما هي تعريف للفرض .

(١) S. Jevons, Principles of Science, Dover Publication inc. ,
N. Y. , 1 st. ed. , 1873 , reprinted 1958 , pp. 510 f f .

(٢) قارن الفقرة المتعلقة بالنظرية الذرية في الفصل الثامن .

والقاعدة الثانية مقبولة فقط اذا كان القصد منها حثنا على الحرص والعناية في تكوين الفرض ، لكنها قاعدة مرفوضة اذا كان القصد منها انكار اي فرض يتعارض مع معارفنا السابقة . سوف يترتب على التمسك بتلك القاعدة تمسكاً حرفياً أن يستحيل التقدم والكشف العلميين . لا نرى مانعاً من ان يكون هنالك فرض وفرض ناجح ويكون معارضاً لبعض القوانين التي سلمنا بها من قبل . ذلك لأن وقائع العالم الطبيعي وظواهره ليست كلها من نوع واحد ولا يحكمها قانون واحد بل هي متعددة . لا مانع من ان يتعارض قانون في علم الطبيعة مع قانون في علم الفلك مثلاً او الجيولوجيا . ونلاحظ انه حين نرى صحة قانون ما لا نعتقد بهذه الصحة اعتقاداً مطلقاً وانما الصدق الذي في القوانين صدق احتمالي فقط بمعنى ان ما لدينا من وقائع حتى الآن يؤيد القانون . ولكن قد يرد لنا من الوقائع المستقبلية ما يجعلنا نعدل من القانون الذي سلمنا بصحته من قبل وقد ننكره انكاراً تاماً ونضع بدلاً منه قانوناً يتفق مع ما لدينا من الوقائع جميعاً .

وتعليقنا على القاعدة الثالثة شبيه بتعليقنا على القاعدة الثانية . اذا كان لدينا فرض ما تؤيده كل الوقائع الماضية والحاضرة وتؤيده الوقائع التي نلاحظها في المستقبل القريب فالفرض اذن فرض ناجح ، ولكن اذا جدت وقائع في المستقبل لا تؤيد ذلك الفرض فمن الواضح أن ذلك الفرض ليس الفرض الصحيح ، ولكن ينبغي ألا نقذف به في طي النسيان لأن واقعة واحدة وإن كانت تطعن في صحة فرضنا غير انها قد تساعدنا على تعديل ذلك الفرض ومن ثم للفرض الخاطئ قيمته (١) .

موقف نيوتن من الفروض

يهمنا في هذا السياق أن نشير الى موقف نيوتن من الفروض العلمية اذ كثيراً

(١) تعليقنا السابق على القواعد التي نادى بها جيفونز ليس تعليق الاستقراءيين التقليديين وانما هو نقد لهم ؛ هم يقولون بتلك القواعد دون مناقشة .

ما يستخدم بعض فلاسفة العلم عبارته المشهورة « انا لا اكوّن فروضاً Hypotheses non fingo » للدلالة على عدائه للفروض . نريد ان نحدد ما اذا كان نيوتن ينكر حقاً أن تكوين الفرض مرحلة أساسية في البحث العلمي ، وان كان قد انكره فكيف وصل الى ما وصل اليه من قوانين ونظريات واكتشافات . وقبل مناقشة رأى نيوتن يجب الاشارة الى اننا حين نتحدث عن نيوتن في سياق الاستقراء التقليدي لا نقرر أنه من دعائه ولا من اعدائه — نيوتن عالم طبيعي وليس عالماً في المناهج أو في المنطق ، فهو متفق والاستقراء التقليدي في تمسكه بالملاحظة والتجربة ولكنه يختلف عنه في امور اخرى سنذكرها في حينها ^(١) ؛ وانما نتحدث عنه هنا لتحديد موقف احد عمالقة العلم من مرحلة في البحث العلمي يراها الاستقراء التقليدي وغير التقليدي مرحلة أساسية .

لنبدأ بالنص الذي كتبه نيوتن واحتوى عبارته المشهورة المذكورة آنفاً . يقول في نهاية كتاب «المبادئ» ما يلي :

« لقد فرغنا من تفسير ظواهر السماء والبحار بقوة الجاذبية، ولكننا لم نحدد بعد علة تلك القوة . من المؤكد أنها تصدر عن علة كائنة في اعماق مراكز الشمس والكواكب دون أن يعترى تلك الجاذبية نقص في قوتها لا طبقاً لكمية سطوح الجزئيات التي تؤثر عليها (كما تفعل العلل الميكانيكية عادة) وانما طبقاً لكمية المادة الصلبة التي تحويها، وانها تنشر قوتها في كل جانب في مسافات هائلة ، وتتناقص دائماً كلما تضاعفت المسافات ... لكنني لم اكن قادراً على اكتشاف علة تلك الخصائص للجاذبية من الظواهر ، وأنا لا اكوّن فروضاً ، لان ما لم يكن مستنبطاً من الظواهر انما هو فرض ، وليس للفروض مكان في الفلسفة التجريبية سواء كانت الفروض ميتافيزيقية أو فيزيقية، سواء كانت فروضاً عن كفيات خفية مجهولة occult qualities أو عن صفات ميكانيكية . في تلك

٠ (١) انظر ما كتبناه عن نظرية الجاذبية وقوانين الحركة عند نيوتن في الفصل الثامن .

الفلسفة تستنبط القضايا الجزئية من الظواهر ، ثم نجعلها قضايا عامة بالاستقراء ؛ وقد اكتشفت بهذه الطريقة خواص مثل عدم قابلية الاجسام للنفاذ وحركاتها وقوتها الدافعة وقوانين الحركة والجاذبية . إننا قانعون بمعرفة ان الجاذبية موجودة في الواقع وانها تؤدي دورها حسب قوانين شرحناها ، وانها تفسر كل حركات الاجرام السماوية والبحار ^(١) .

من هذا النص يتبين لنا تصور نيوتن لنوع الفروض التي يعلن انكارها ، كما يتبين السياق الذي يذكر فيه ذلك الإنكار . لقد فهم نيوتن من الفرض كل ما لم يستنبط من الظواهر موضوع المشاهدة او التجربة ، أي فهم منه كل ما لم يكن مصدره الأول ملاحظات أو تجارب . ولقد أردف هذا الفهم بتلك الانواع من الفروض المنكرة وهي الفروض الميتافيزيقية بما تنطوي عليه من كيفيات خفية مجهولة ، والفروض الفيزيقية بما تنطوي عليه من صفات ميكانيكية . أما ما كان في ذهن نيوتن حين اشار الى الفروض الميتافيزيقية فهو ارسطو . يذكر نيوتن ارسطو في مكان آخر من المبادئ فيما يتعلق بالكيفيات الخفية المجهولة فيقول ان تلك الكيفيات لا ندركها في الخبرة او التجربة وانما نفترض أنها علة ما ندركه - يفترضها ارسطو كاثنة وراء الظواهر موضوع الملاحظة أو التجربة ويرى انها علل مجهولة لآثار معروفة لنا هي الظواهر . ويرى نيوتن ان من امثال تلك العلل الخفية البحث عن علة الجاذبية أو المغناطيسية أو الجذب الكهربائي أو التخمر . أما ما كان في ذهن نيوتن حين اشار الى الفروض الفيزيقية فهو نظريات العلم الطبيعي عند ديكارت ومن امثالها فرض الدوامات الهوائية والارواح الحيوانية ، وهي فروض لم تقم على اساس من التجربة ولا توصف بصدق أو بكذب . أما السياق الذي يذكر فيه نيوتن انكاره للفروض هو انكاره افتراض علة لخصائص الجاذبية . نعم . الجاذبية قائمة في عالم الارض والكواكب والنجوم وقد وصلنا الى خصائصها

(١) I. Newton, The Mathematical Principles of Natural Philosophy, trans. by A. Motto, 3 vols. edition, 1803, Vol. II, pp. 313-314.

وشرحناها بقوانين ، ولكن البحث في عملة تلك الخصائص يعتبره نيوتن من قبيل الفرض الميتافيزيقي او الفيزيقي . ومن ثم فالفرض الذي ينكره نيوتن ليس الفرض الذي يشترطه الاستقراء التقليدي .

ونريد الآن أن نشير الى موقف نيوتن من المنهج العلمي لنكتشف ما اذا كان الفرض بالمعنى الذي ذكره في النص السابق هو المعنى الوحيد للفرض عنده أم ان هنالك أنواعاً أخرى من الفروض يسمح بتكوينها. لقد سمح نيوتن أولاً ببضع فروض عامة مرتبطة بالنظام الطبيعي ويمكن الإشارة إليها فيما سماه « قواعد البرهنة في الفلسفة » ، وفيما يلي هذه القواعد :

القاعدة الاولى : « يجب ألا نسمح بعزل الاشياء الطبيعية اكثر من العزل التي تكون صادقة وكافية لتفسير ظواهر تلك الاشياء » .

القاعدة الثانية : « يجب ان نعتن قدر المستطاع لنفس الآثار الطبيعية نفس العزل » .

القاعدة الثالثة : « صفات الاجسام صفات كلية تنطبق على كل جسم موجود ، وهي تلك الصفات التي لا تسمح بزيادة او نقصان في الدرجة والتي لوحظ انها تنتمي الى كل الاجسام في حدود تجاربنا » .

القاعدة الرابعة : « ينبغي ان نبحت في الفلسفة التجريبية عن القضايا التي نصل اليها باستقراء عام من الظواهر بكل دقة او صدق تجريبي ، بالرغم من اي فرض يمكن تخيله معارضاً لتلك القضايا ، الى ان يمين الوقت الذي تحدث فيه ظواهر أخرى تجعل تلك القضايا اما اكثر دقة او استثناء للظواهر الجديدة . يجب علينا اتباع تلك القواعد حتى لا يفسد منهج الاستقراء باستخدام الفروض » .

يتبين من تلك القواعد مصادرة نيوتن على العلية والاطراد في الطبيعة ، وهما فرضان كان يعتقد الاستقراءيون التقليديون ان التقدم في البحث العلمي غير ممكن بدونهما - لم يذكر نيوتن هذين الفرضين عرضاً وإنما كانت مهتماً

بأنسجبلها بل وشرحها: كان يذيل كل قاعدة من القواعد الاربعة بشرح موجز: تنطوي تلك الذبول على ان الطبيعة تسير سيرا مطردا وان لكل شيء علة وان لم تفعل الطبيعة شيئا عبثا^(١). وهذا لحن يخالف اللحن الذي اعلن فيه نيوتن عداوه للفرض اي عداوه لأي شيء لم يقم على استقراء، ذلك لأن العلية والاطراد فرضان لا يقومان — ولا يمكن ان يقوما — على الاستقراء او الملاحظة والا وقعنا في الدور كما سنبين في حينه ؛ ان الاطراد والعلية أساس للاستقراء ولا يقومان عليه .

الى جانب تصور نيوتن للمنهج العلمي على أنه البداية دائما بالملاحظات والتجارب الجزئية واتخاذ العلية والاطراد مبدأين أساسيين ، كان يرى كذلك ان تكوين الفروض خطوة ضرورية للوصول الى القضايا العامة من تلك الملاحظات الجزئية . يتبين ذلك من خطاب الى أولدنبرج Oldenburg يقول فيه : يبدو ان أسلم طريقة وأفضلها للتفلسف هي ان نبحث في خصائص الأشياء ونثبتها بالتجربة ، ثم بعد ذلك نبحث في فرض ليشرح تلك الخصائص ولا نحاول ان نحددها بطريق قبلي إلا ما قد تعيننا التجربة على الوصول اليه ،^(٢) .

ولم ينس نيوتن حين يعرض للمنهج العلمي ان يثبت أهمية الاستدلال الرياضي في البحث وانه يجب الاستعانة به الى جانب الملاحظة والفروض ، وان كان نيوتن يستلزم الا نثق بالنتائج الرياضية الا حين تؤيدها التجارب المستقبلية . ومن ثم يمكن ان نلخص تصور نيوتن للمنهج العلمي في الخطوات التالية :

- ١ — اتخاذ العلية والاطراد مبدأين أساسيين تخضع لهما ظواهر الطبيعة .
- ٢ — الملاحظة والتجربة سبيلنا الى تحديد خصائص الظاهرات التي تختلف فيما بينها اختلافا كليا .

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) النص مأخوذ من: Stebbing, A Modern Introduction to Logic, p. 311

٣ - افترض فرض يفسر تلك الخصائص .

٤ - استخدام الاستدلال الرياضي الذي يمكننا عن طريقة ان نعبر عن تلك الاختلافات تعبيراً يعيننا على تطوير البحث في تلك الخصائص .

٥ - اجراء التجارب الدقيقة التي بواسطتها يمكننا تحقيق تلك النتائج الرياضية على حالات جديدة .

٦ - اذا لم توجد ظاهرات جديدة تعارض تلك الفروض المدعمة تدعيماً رياضياً كانت الفروض صحيحة . أما اذا حدث في المستقبل اي استثناء لفروضنا فانتا حينئذ نعلن فروضنا هذه مع الاشارة الى تلك الاستثناءات .

الفصل الرابع

الاستقراء والتقليد

(فرنسيس بيكون)

(١٥٦١ - ١٦٢٦)

مقدمة :

يعتبر فرنسيس بيكون أول من حاول صياغة منهج البحث في العلوم التجريبية ، ومن ثم نعتبره من طليعة المتحمسين للمنهج الاستقرائي بالمعنى الذي أشرنا إليه في الفصل السابق . لا ينسى التاريخ لبيكون الفضل الكبير في قيامه تلك المحاولة حيث قدم لنا المنهج الاستقرائي في وقت كانت ميتافيزيقا أفلاطون وأرسطو ومنطق الثاني ولاهوت توماس الاكوييني مصادر الفكر الرئيسية في الجامعات . لا نستطيع أن نقول أن بيكون هو أول من نادى بالمنهج الاستقرائي فقد سبقه علماء أخذوا بمنهج الملاحظة والتجربة وجمع الوقائع بقصد اكتشاف القوانين الطبيعية قبل ان يصوغ بيكون قواعد منهجه ، ومنهم وليم جلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) مؤلف كتاب «في المغنطيس» De Magnete (١٦٠٠) ؛ نعم أيضاً ان جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) أول عالم تجريبي في العصر الحديث ، جعل الملاحظة والتجربة من بين القواعد الاساسية للمنهج العلمي ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إنه أخذ عن بيكون : لم يذكر

يكون في مؤلفات جاليليو وانما نرى جاليليو يذكر أرشميدس من العلماء .
أغلب الظن أن جاليليو لم يتأثر ببيكون بل ان كتب الأول العلمية مليئة
بالإشارة الى ارسطو والكتاب المقدس بقصد معارضتها في مواقفها العلمية .
كان جاليليو نضجه في صف رواد العلم التجريبي الى جانب بيكون ، لا ان
الاول تأثر بالثاني . أضف الى ذلك أن الاشارات المنهجية التي نجدها في كتب
جاليليو تتضمن معارضته لبيكون في امرين اساسيين على الأقل : هما اعطاء
تكوين الفروض واستخدام الاستدلال الرياضي قيمة المنهج العلمي اكبر من
الملاحظة والتجربة ، بينما لم يشر بيكون الى الاستعانة بالرياضة في البحث
العلمي ؛ كما جعل الفروض شرطاً في المنهج العلمي بينما رفض بيكون صراحة
مرحلة تكوين الفروض .

ولعل بيكون كان يعلم أنه ليس أول من نادى بالمنهج الاستقرائي ولكن
آراءه في الاستقراء جديرة بالتسجيل . وقبل أن نسجل موجزاً لتلك الآراء
تلزم الإشارة الى أن الاستقراء عند بيكون لم يكن هدفاً وانما كان وسيلة .
كان هدف بيكون الاكبر هو بيان انه ينبغي أن يكون لافكارنا ونظرياتنا
نتائجها على حياة الفرد والجماعة ودفعها الى حياة عملية أفضل . ينبغي ان
نعتقد أن العلم قادر على تحسين أحوال الناس وتحقيق رفاهيتهم . ينبغي ان
تثمر المعرفة العلمية أو الفلسفية في رفع مستوى الناس في حياتهم اليومية ورفع
مستواهم الصناعي . ومن ثم كان يعتقد بيكون ان لا قيمة للعلم النظري والفلسفة
التأملية حيث لا صلة لها بالواقع ، ويجب أن نعطي القيمة لتلك المعرفة التي
تمكنا من السيطرة على العالم لاختضاعه لرفاهيتنا . علينا ملاحظة ما يجري
حولنا لفهمه ومن ثم للسيطرة على قواه . يمكننا ملاحظة ما يحدث امامنا من
حوادث كما يمكننا اجراء التجارب عليها . نستطيع مثلاً أن نحرك جسماً نحو
آخر ونشاهد ما يحدث . يمكننا ملاحظة خروج البحار مثلاً من ماء يغلي
وبذا نكتشف ان بالماء تلك القدرة ومن ثم نصل الى صناعة الآلات البخارية .
بالملاحظة والتجربة نستطيع أن نفهم الظواهر ، ومن ثم نسيطر عليها بما يؤثر
في حياتنا ويحقق حياة اجتماعية أفضل . هذا الموقف انما هو موقف من يرى

قيمة العلم في قيمته العملية فقط . وليس من الصعب ان تكشف الدافع اليه -
لقد سئم بيكون المناهج الدراسية التي كانت سادت جامعة كمبردج وقتئذ
كان طالباً بها وكان يدرس في تلك الجامعة منطق أرسطو وميتافيزيقاه
ولاهوت الاكوييني . ووصل بيكون من تلك الدراسة الى عدم فائدتها
لحياتنا العملية وانها لا تعيننا على السيطرة على الطبيعة والعمل على رفاهية
الانسانية .

يتبين اتجاه بيكون نحو الفلسفة العملية من كتاباته . ما كتبه بيكون في
الاستقراء ليس إلا جزءاً من عمل كبير يسجل ذلك الاتجاه العملي . لقد سجل
هذا الاتجاه في كتاب أسماء «الاحياء العظيم» Instauratio Magna ، وقد عزم
أول الأمر أن يتألف هذا الكتاب من ستة أجزاء: تصنيف العلوم، الاورجانون
الجديد ، ظواهر الكون أو تاريخ طبيعي تجريبي تقوم الفلسفة على أساسه ،
سلم العقل ، التمهيدات أو استباقات الفلسفة الجديدة، ثم الفلسفة الجديدة أو العلم
الايجابي. كان هدف بيكون في هذا الكتاب تدوين دائرة معارف للعلوم الطبيعية
والصناعات والفنون الانسانية حتى يمكن اقامة فلسفة على اساس واقعي
سليم لم يتم بيكون من هذه الاجزاء الستة إلا جزءاً واحداً هو الجزء الثاني.
وكان قد كتب من قبل كتاباً سماه النهوض بالعلم جعله الجزء الأول من كتاب
الاحياء العظيم . أما الاجزاء الاربعة الاخرى فلم يكتب بيكون منها إلا
فصولاً متفرقة . ننتقل بعد هذه المقدمة عن بيكون الى الاشارة الى الجزء من
الاحياء العظيم المتعلق بالمنهج الاستقرائي وهو الاورجانون الجديد .

الاورجانون العظيم Novum Organum

نشر بيكون هذا الكتاب عام ١٦٢٠ ويحوي نظريته في الاستقراء . كان
يسمي ارسطو الاورجانون أو الأداة ما نسميه علم المنطق ، وكان يقصد أنه
يجب علينا امتلاك الاداة قبل أن نشرع في البناء -- والبناء هو اي بحث
فلسفي وكان علم الطبيعة عند ارسطو أحد العلوم الفلسفية - ولكي نقيم
البناء لا بد من التمكن من الاداة وهي التسليح في المنطق . جاء بيكون

وسمى كتابه الاستقرائي «الأورجانون الجديد» والتسمية اشارة إلى اعلان الثورة على ارسطو وأنه بسبيل وضع منطق جديد يحل محل المنطق الارسطي . وفي الأورجانون الجديد ثلاثة مواقف اساسية: نقد المنطق الارسطي والاشارة إلى بعض الاخطاء التي يقع فيها العقل البشري وتعوقه عن الفكر السليم ، وهذان بمثابة الجانب السلبي من المنهج الجديد، ثم موقفه من المنهج الجديد الاستقرائي وهو الجانب الايجابي .

نقد بيكون لمنطق ارسطو

يمكن تلخيص نقد بيكون لمنطق ارسطو في النقاط الآتية :

أ - المقصود بالمنطق أن يضع لنا المنهج السليم لاكتشاف قوانين العالم الطبيعي لكي يتيسر لنا أن نفهم ذلك العالم ونسيطر على قواه ونخضعه لارادتنا ومن ثم يمكننا ان نفيد من القوانين العلمية فيما ينفع الفرد والجماعة ، ولكن القياس الارسطي لا يهتم بعالمنا الطبيعي اذ هو استدلال صوري لا يهتم سوى صحة الانتقال من مقدمات الى نتائج تلزم عنها ، سواء كانت تلك المقدمات صادقة من حيث الواقع أو كاذبة . لا قيمة للقياس اذن في تحقيق هدفنا الاكبر (١) .

ب - يبدأ القياس الارسطي من أفكار جزئية محسوسة ويجعلها أفكاراً عامة ويفترض أنها مقدمات صادقة وحقائق لازمة ، ولكن ما تلك المقدمات إلا محتوية على أفكار شائعة قد تكون غالباً كاذبة واذن فضررها اكثر من نفعها (٢) .

ج - اذا فرضنا ان مقدمات القياس الارسطي صادقة على الواقع واذا فرضنا أن انتقالنا الى النتيجة سليم صحيح ، كانت النتيجة عقيمة ، أي لا تحوي جديداً عما اثبتنا من قبل في المقدمات ، ولكننا نبغي من المنطق أن

F. Bacon, Novum Organum, 1. 11.

(١)

Ibid., 1. 12, 19.

(٢)

يدفعنا الى نتائج جديدة ومعارف جديدة واذن فالقياس مضیعة للوقت (١) .

نظرية الاوهام الاربعة

يشير بيكون في الاورجانون الجديد الى أربعة انواع من الاخطاء التي يقع فيها الانسان بطبيعته ومعنى ذلك أننا لا نستطيع التخلص منها تخلصاً تاماً ، ولكن الإشارة اليها هي بمثابة تنبيه وتحذير وقد تجعل نصيبتنا من الوقوع فيها أقل .

أ - أوهام الجنس : Idols of the tribe : هي اخطاء عامة ينطوي عليها الجنس البشري كله ، ولا حصر لها ، ولذلك يمكن الإشارة اليها على سبيل المثال لا الحصر . من اوهام الجنس ضعف الحواس عن ادراك كل شيء ، فالعين لا ترى كل شيء قريب منها فهناك ألوان مثلاً تعجز العين الانسانية المجردة عن رؤيتها؛ أضف الى ذلك انها لا ترى بوضوح ما في السماء ، وقل مثل ذلك في باقي الحواس ، وخاصة اليد والأذن . ويؤدي هذا الضعف في قدرة الحواس الى قصورنا عن بلوغ المعارف الدقيقة . ومن تلك الاوهام أيضاً تعود الذهن البحث عن العلل الغائية في العالم الطبيعي ، ذلك لأن تصور علة لكل حادثة تصور قديم قدم الانسان ، ولكن الانسان لا يقنع بتعيين علة لكل حادثة بل يريد أن ينتقل في سلسلة العلل حتى يصل إلى علة أولى هي مقصد كل الحوادث؛ والواقع أن لذلك التصور أصوله في العقل الانساني اكثر منه في العالم الطبيعي؛ يقصد بيكون أن الغائية مصدرها انساني نلاحظها في خبراتنا السلوكية ونرتكب الخطأ حين نسقطها على الطبيعة . ومن اوهام الجنس أيضاً إسقاط الرغبات الانسانية على العالم الطبيعي فمثلاً يميل الانسان إلى تفسير الظواهر كلها بمجموعة قليلة من المبادئ الثابتة بدعوى البساطة متجاهلاً كثيراً من التفاصيل التي لها أهميتها البالغة في النظام الطبيعي (٢) .

Ibid., Preface.

(١)

Ibid., 1. 46.

(٢)

ب - أوهام الكهف Idols of the cave : هذه اخطاء ليست عامة وانما تتنوع بتنوع الافراد وتختلف من فرد لآخر ، ويمكن الاشارة إليها بالاشارة إلى الميول الانسانية وما تتضمن من اتجاهات ورغبات . للميل الحزبي مثلاً أو سيطرة بعض الافكار الثابتة أو تحكم بعض الرغبات الفردية أسوأ الآخر في توجيه البحث العلمي إذ تفقده النزاهة وسلامة الحكم ^(١) .

ج - أوهام السوق Idols of the market : يرى بيبكون أن هذه الاخطاء أخطر الاربعة . والسوق هنا رمز الى المكان الذي يتبادل فيه الناس السلع بيعاً وشراءً ، والمقصود أن اللغة هي وسيلة ذلك التبادل . الاصل في اللغة انها الوسيلة التي يتبادل بها الناس آراءهم وأفكارهم . يحذرنا بيبكون من خطر استخدام اللغة في البحث العلمي استخداماً غير دقيق فهو يرى ان اللغة في الاصل وسيلة التقام بين الناس في حياتهم اليومية ومن ثم فالالفاظ لا تعرف مدلولاتها بكل دقة ولسنا في حياتنا اليومية في حاجة لتلك الدقة ، ولكن اذا استخدمنا تلك الالفاظ في الحياة العلمية بأن قصورها . توجد في اللغة الفاظ لا تشير إلى موجودات كالقدر والحرك الاول ، والفاظ تشير الى صفات فعلية لكنها جردت من الاشياء على عجل فاضطرب معناها مثل « رطوبة » ، وهي كلمة تعددت معانيها بحيث يصعب تحديدها . ولذا يجب مراعاة الدقة فيما نستخدم من الفاظ وفيما نغطي تلك الالفاظ من معان ^(٢) .

د - أوهام المسرح Idol of the theatre : كان يقصد بيبكون بأوهام المسرح خطأ النظريات الفاسدة التي سيطرت أو تسيطر على العقول فتتحرف عن الحقائق . وكان يشير بوجه خاص الى النظريات الطبيعية والميتافيزيقية الاغريقية .

Ibid., 1. 55.

Ibid. 1 . 59.

(١)

(٢)

نظرية بيكون الاستقرائية

بعد أن فرغ الاورجانون الجديد من نقد المنطق القديم والاشارة الى الاوهام الاربعة التي تعوق البحث العلمي ، يتجه الى الجانب الايجابي من المنهج التجريبي الجديد . ويذكر ليبيكون بوجه خاص ثلاثة نقط رئيسية تصور نظريته في المنهج الاستقرائي : أ - تصنيفه للملاحظات والتجارب ، وهو ما يسميه «القوائم الثلاثة»^(١). ب - اصراره على إنكار الفروض . ج - طريقته في التأكد من صدق القانون العام الذي يصل اليه بعد جمع الملاحظات وتصديقها وهو ما يسميه منهج الرفض او الاستبعاد Method of elimination . وسنتحدث عن النقطة الثالثة أولاً لاهميتها القصوى عند بيكون ولأنها تحتل مكان الصدارة من منهجه ، ولعلها النقطة الجديدة التي اضافها بيكون الى المنهج الاستقرائي .

منهج الرفض او الاستبعاد

كان يقصد بيكون بهذا المنهج معنيين : الأول : ينبغي ان نستبعد القانون العام الذي وصلنا اليه وايدته ملاحظات سابقة حين تظهر لنا ملاحظة او حالة جزئية واحدة تتنافر والقانون (ونسميها وقتئذ حالة سلبية) ، مهما تعددت الحالات المؤيدة الموجبة . والمعنى الثاني : يمكننا ان نؤيد القانون العام ونؤكد به باثبات ان كل القوانين او النظريات المناقضة له او المنافسة له باطلة . وسنهتم الآن بالمعنى الاول . أشرنا من قبل الى ان بيكون كان يعتبر الاستقراء بالاحصاء البسيط - الوصول الى قضية عامة نتيجة لعدة ملاحظات تؤيد تلك القضية - كان يعتبره ناقصاً قاصراً ، ذلك لان الملاحظات والتجارب التي تؤيد القانون لا تكفي وحدها للتأكد من صدق القانون ، ولكن ينبغي ان نتأكد من انه لا توجد ملاحظة او حادثة او ظاهرة تحدث وتتعارض مع القانون . ان ظهور حالة سلبية واحدة كفيلة برفض القانون حتى اذا كانت

(١) Ibid. , 1. 59

الحالات الايجابية مئات الآلاف. واذا لم تظهر تلك الحالة السلبية اذن فالقانون صادق . ان البحث عن حالة تعصي القانون انما هي المعيار الوحيد لصدق القانون .

ويرتبط منهج الاستبعاد عند يكون أتم ارتباطاً بنظريتين في معنى القانون العلمي : أ - القانون العلمي تفسير للملاحظاتنا وتجاربنا وان التفسير هنا عليّ . كان يعتقد بكون بمعنى آخر ان مبدأ العلية مبدأ كلي وكان يتخذ كمقدمة ، ولم يحاول مناقشته او البرهان عليه ^(١) . فقد ترك البرهنة على هذا المبدأ لجون ستوارت مل كما سنرى . بالرغم من هجوم بكون اللاذع على منطق أرسطو وميتافيزيقاه الا انه قبل نظرية أرسطو في ان العلم الحق هو معرفة العلل . ومن ثم كان يرى ان هدف القوانين العلمية هي محاولة التفسير العلمي للظواهر الطبيعية . اما فيما يختص بالعلل الاربعة الارسطية فانه يصرح بان لا فائدة من النظر في العلل المادية والفاعلية والغائية ^(٢) . هل يعني ذلك ان يكون يقصر العلة على العلة الصورية ؟ سنرى بعد قليل ان كلمة صورة تعبر عن تصور اساسي في ذهن بكون ، لكنها ليست الصورة الارسطية لسبب بسيط هو ان يكون لم يعتنق نظرية المادة والصورة . الصورة عند ارسطو متضايقة مع المادة اي تلك المادة التي يمكن ان تتخذ صورة معينة او تركيباً وظيفياً معيناً ، ولم يكن عند بكون تلك الثنائية . ان اقوال بكون في الصورة غامضة ولا تكشف عن تحديده معناها تحديداً دقيقاً ، ولكن يبدو ان احد المعاني التي يقصدها هو ان الصورة عنده تعني الطبيعة الخفية او ما يمكن ان نسميه بالماهية . فالقانون العلمي بهذا المعنى تفسير علي لظاهرة ما او عدد من الظواهر ويكشف عن (صورة) تلك الظواهر . وهذا ينقلنا الى النظرية البيكونية الثانية من معنى القانون .

ب - منهج الاستبعاد مرتبط عند يكون بمبدأ الحتمية الكلية في العالم

(١) W. Kneale, Probability and Induction , p. 110

(٢) Ibid. . pp, 51-2

الطبيعي ، كما هو مرتبط ببداً العلية الكلية . والحتمية الكلية هي القول بأن كل حادثة في الطبيعة تحددها حادثة او سلسلة من الحوادث سابقة عليها ، بحيث نقول ما كان ينبغي ان تحدث حادثة ما لو ان تلك السلسلة السابقة عليها لم تحدث . ولعل الاعتقاد بالحتمية هو الذي وجه بكون نحو منهج الاستبعاد ، لان العالم الحتمي تسيره قوانين ثابتة ، والعالم الحتمي لا توجد فيه حوادث تعصي تلك القوانين ، فان وجدت اذن فالقوانين هي الكاذبة لانها حينئذ لن تكون القوانين الحتمية . الواقع ان بكون لم يكن مهتماً بالدفاع عن هذه الصورة العامة للحتمية وانما كان يدافع - بسذاجة - عن صورة خاصة لها يمكن ايجازها فيما يلي : بالكون عدد محدود من الطبائع ، Natures من اجتماعها وتفرقها تتألف الاشياء الجزئية . ان كل ما بالعالم من اشياء انما هو نتيجة ترابط تلك الطبائع بدرجات مختلفة ^(١) . وكان يرى بكون ان مشكلة العلم هي معرفة تلك الطبائع واكتشاف قوانينها . لكي نعرف ما تلك الطبائع وكيف نكتشفها ننقل الى موقف بكون من تصنيف الوقائع كي نصوغ قانونها العام . وقبل ان ننقل الى ذلك لا بد من اشارة الى أن منهج الاستبعاد لا يزال هذا المنهج موضع احترامنا حتى الآن ، ويعود فضله اذن الى بكون ، ولكننا ادخلنا عليه بعض التطورات فاتخذ صورة اخرى ، وخلصناه من العلية المرتبطة به لان ليس كل تفسير تفسيراً عالياً بالضرورة ، كما خالصناه من نظرية الطبائع .

تصنيف الوقائع

يرى بكون ان المرحلة التالية للملاحظة الوقائع المراد بحثها او إخضاعها للتجربة هي مرحلة تصنيفها او تبويبها او وضعها في قوائم . والقوائم ثلاثة : قائمة الحضور Tabula praesentia ونضع تحتها ونسجل فيها كل الوقائع او الاشياء التي شوهدت فيها الظاهرة قيد البحث . وقائمة الغياب Tabula absentia

(١) Bacon, Advancement of Learning, ed. by g. W. Kitchen, Everyman's, Library , N. Y. 1915

ونسجل فيها تلك الوقائع او الاشياء التي لا تبدو فيها الظاهرة . وقائمة الدرجات Tabula graduum ونسجل فيها وقائع الحضور بالاشارة الى درجة او كمية ظهور وجود الظاهرة ، فقد يتفاوت كمية وجود الظاهرة في مختلف الوقائع والاشياء وقد اعطانا ليكون مثلاً واحداً لتوضيح منهجه الاستقرائي هو بحث ظاهرة الحرارة ^(١) . وضع في قائمة الحضور سبعة وعشرين حالة تتمثل فيها الحرارة مثل حرارة الشمس وحرارة الاحتكاك وحرارة الكائنات الحية ، وحرارة بعض المركبات النخ ، ووضع في قائمة الغياب حالات مشابهة للحالات الاولى لكن تغيب فيها الحرارة مثل ضوء القمر وغيره من الكواكب النخ ، ووضع من قائمة الدرجات الحالات التي تصدر منها حرارة بدرجات متفاوتة مثل تفاوت حرارة الشمس في الساعات المختلفة من النهار وحالة النار الارضية المشتعلة ونحو ذلك .

يستخدم ليكون بعد اعداد تلك القوائم منهج الرفض او الاستبعاد - يستخدمه بالمعنى الثاني الذي اشرنا اليه سابقاً وهو تأييد قانون ما باستبعاد قوانين اخرى معارضة له . هدف ليكون ان يكشف عن مصدر الحرارة او علتها . ومن ثم يستبعد النظريات القديمة في مصدر الحرارة التي تتعارض مع قوانيننا؛ فمثلاً استبعد ليكون النظرية القائلة بان الحرارة تأتي من مصدر خارج عن الارض ، ذلك لان الارض احد مصادر الحرارة طبقاً لقائمة الحضور التي لدينا واستبعد كذلك النظرية القائلة بان الحرارة تتوقف على وجود عنصر معين في الجسم الحار كالنار مثلاً - احد العناصر التي نادى بها ابنادوقليس ، ذلك لان لدينا مصادر حرارة لكنها لا تحوي عنصر النار . وظل يستبعد ليكون عدة نظريات حتى وصل الى حل يتفق وما ورد في القوائم . لقد وصل الى ان الحرارة كائنة في كل جسم متحرك - الحركة الممتدة التي تشمل كل اجزاء الجسم ومن ثم قال ان الحركة « صورة » الحرارة . نلاحظ هنا ان يكون نادى بان بالكون عدداً معيناً من الطبائع ، ولم يذكر لنا مثلاً آخر غير .

(١) Bacon, Novrim Organum, 2. 11.

الحرارة. ولا يبدو ان كان سيكون يميز بين الصورة والطبيعة والعلة فالكلمات الثلاثة تشير الى ما يبحث عنه العلم ويسمى الى صياغته القانون العلمي . ولم تكن كتابات سيكون لتدلنا بوضوح وتحديد على معنى الطبيعة او الصورة ، وقد اشرنا الى معنى محتمل فيما سبق وهو الماهية . كان سيكون نفسه يتحدث احياناً عن التركيب الخفي latent configuration لجزيئات الاشياء ، وكان يعترف ضمناً انه لا يمكننا الوصول الى هذا التركيب من قوائمنا ، وقال في مكان واحد بعد ان نجمع الشواهد كلها على موضوع بحثنا قد نترك للذهن Intellect الحرية في التأمل - تأمل الصورة الخفية Hidden form ^(١) .

ملاحظات على نظرية سيكون الاستقرائية :

١ - اعتقاد سيكون بان ما بالكون من مركبات انما هي مؤلفة بدرجات متفاوتة من عدة طبائع محدودة العدد اعتقاد ساذج . ان الكون اكثر تعقيداً مما تصوره سيكون . لم يكن واسع الاطلاع في النشاط العلمي وقتئذ ، مثال ذلك أنه كان يجهل بما قام به كوبرنيك . وتبدو سذاجته اكثر وضوحاً في اعتقاده اننا نكتشف كل ما بالكون من اسرار اذا ما توصلنا الى الطبائع .

٢ - لم يشرح لنا الطريقة التي نتوصل بها الى تلك الطبائع ، كما انه لم يثبت لنا وجود تلك الطبائع . قد يقول اننا نصل الى طبيعة ما اذا وجدناها حاضرة مع ظاهرة ما غائبة بغيابها ؛ ولكننا نرد بقول من جنس قوله ان احصاء الامثلة التي تثبت ذلك الارتباط قد لا تكفي اساساً لاثبات الطبيعة المفترضة لأن الاحصاء لا زال يشمل عدداً محدوداً من الامثلة؛ قد يرد سيكون بقوله اننا نقوم بمنهج الرفض والاستبعاد فنحصى كل الطبائع التي تتضمن التركيب الخفي الحاضر في الاشياء أو الظواهر موضوع البحث ثم نبحث عن الامثلة التي يوجد هذا التركيب فيها ولا يوجد في امثلة اخرى أو يغيب في واحد ولا يغيب في آخر ومن ثم نستبعد هذه الطبيعة أو نزداد وثوقاً فيها .

Ibid., 2. 20 ; See also Kneale, op. cit., p. 53.

(١)

ولكننا نجب بكون حيثئذ بقولنا انه افترض ابتداءً اننا نعرف كل الطبائع الممكنة ومن بينها ما نبحث عنها ^(١) .

٣ - ان بكون باعتقاده بالطبائع الخفية وان وظيفة العلم اكتشافها انما يرتقي في أحضان الجو الفكري القديم الذي آلى على نفسه الثورة عليه ومهاجمته وتلك خيانة لمنهجه .

٤ - رفض بكون مرحلة تكوين الفروض مرحلة اساسية في المنهج الاستقرائي تلي الملاحظة وتسبق صياغة القانون - كان يعتقد أن مجرد جمع الوقائع والتجارب في قوائمه الثلاثة كفيلاً بالوصول الى القوانين . وكان يسمى الفروض « استباق الطبيعة » Anticipation of nature أي الإدلاء بآراء غير تجريبية تظن أنها تفسير لما امامنا من وقائع وتجارب . كان يحل بكون قيمة مرحلة تكوين الفروض وأهميتها لصياغة أي قانون علمي . ولكن يمكننا أن نقول أن بكون كان في الواقع مستخدماً تلك المرحلة وهو لا يدري . كيف وصل الى ان الحركة علة الحرارة ؟ ليست الحركة هي الظاهرة التي بحثها وانما كان يبحث ظاهرة الحرارة ، ولم تكن الحركة مذكورة في اي من القوائم الثلاثة . يبقى أن الحركة اقترح لتفسير تلك القوائم . قد يكون بكون اعلن انكار الفروض حذراً من التعميم السريع أو القول بآراء لا يمكن تمحيصها بالتجربة . وفاته أن الفرض السريع والذي لم تمحصه التجربة مآله الى الرفض . وهذا يذكرنا بما سيقوله اسحق نيوتن من بعد والذي أشرنا اليه من قبل ، مع الفارق أن كان نيوتن اكثر نضوجاً من بكون حيث رفض انواعاً من الفروض وأباح انواعاً أخرى .

٥ - لقد جهل بكون او تجاهل دور التصورات الرياضية والاستدلالات الرياضية في المنهج الاستقرائي . لم يشر الى تلك التصورات والاستدلالات في منهجه وذلك عيب لا يغتفر له . نسي اننا باستخدامنا للمناهج الرياضية في

Joseph, An Introduction to Logic, pp. 365 - 6.

(١)

المباحث الطبيعية قد تتنبأ بنتائج تجارب بطريق صوري لم نقيم بها بعد وحين
نجري تلك التجارب ونضع نتائجها موضع الاختبار قد نتحقق من صدق
التنبؤات . وهذا ما قام به جاليليو الى جانب اتجاهه التجريبي قبل نشر
بيكون «الأورجانون الجديد» بسنوات. نلاحظ هنا ملاحظة على جاليليو هي
أنه كان أكثر ثقة بالمنهج الرياضي من منهج الملاحظة والتجربة بمعنى أنه لم
يكن يستلزم أن توضع النتائج الرياضية موضع التحقيق التجريبي ؛ سلامة
الاستنتاج الرياضي شرط كاف لصدق النتائج . ولا حاجة للملاحظة والتجربة
إلا حين تكونان لازمتين .

هنالك نقطة هي اساس المنطق الاستقرائي التقليدي ، وأساس منهج
بيكون، لكننا لم نتحدث عنها بعد هي أن الاستقراء كمنهج يعتمد على اساسين:
مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة ومبدأ العلية . أول من أبان اهميتها وقدم
الحجج للدفاع عنها هو جوت ستوارت مل ولذا لم نتحدث عنها في الفصل
الثالث وأردنا ابقائها للفصل التالي . وكان بيكون يمتد بها ضمنا وان لم يفرد
لها مكانا خاصا : أما اعتقاده بالعية فواضح مما قلناه في الصفحات السابقة ،
واما اعتقاده بالاطراد فهو متضمن في اتجاهه نحو قيمة العلم العملية بمعنى أنه
يمكننا الانتفاع في حياتنا من العلم على اساس إننا وصلنا الى القوانين العامة التي
تحكم ظواهر الطبيعة ، والاعتقاد بعمومية القوانين يتضمن الاعتقاد بالاطراد .

الفصل الخامس

الاستقراء التقليدي

(جون ستوارت مل)

(١٨٠٦ - ١٨٧٣)

الاستدلال والاستقراء :

جون ستوارت مل من أعلام الفلاسفة التجريبيين الانجليز في القرن التاسع عشر ، ويرتبط اسمه بوجه خاص بالمذهب المنفعي في الاخلاق وتدعيم المنهج الاستقرائي في المنطق . له كذلك نظريات في الفلسفة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية وموقف ميتافيزيقي خاص في النظر الى العالم المادي الخارجي . سنتناول هنا فقط نظريته في تدعيم الاستقراء .

قد يتضح اتجاه جون مل الفلسفي إذا أشرنا إلى تأثيره بفرنسيس بيكون ودافيد هيوم وأوجست كونت . رفض المناهج الصورية والفلسفات الميتافيزيقية التي شاعت في الفلسفة الإغريقية القديمة وفلسفة العصر الوسيط . أنكر أي نوع من أنواع المعرفة الفطرية أو القبلية ، تلك التي لا تقوم على اساس من الخبرة الحسية ولا تتجه مباشرة نحو الوقائع الجزئية .

لقد وافق جون مل بكون على انتقاداته للقياس الارسطي وعدم جدواه

في المعرفة العلمية لعقم نتيجته أي أنها لا تأتي بجديد غير ما هو مثبت من قبل في المقدمة الكبرى . لقد اضاف مل الى هذا النقد المؤلف وقتئذ نقداً آخر مؤداه أن القياس ليس نوعاً مستقلاً من الاستدلال وإنما هو تابع للاستدلال الاستقرائي معتمد عليه ؛ ذلك لأنه يجب أن تكون إحدى مقدمات القياس على الأقل كلية ، ولكن تلك المقدمات القياسية الكلية نصل إليها أولاً باستقراء ، فالاستقراء إذن سابق والقياس تابع . حتى تبعية القياس للاستقراء يناقشها مل فيقول لقد فرغنا من اثبات عقم القياس واذن يجب ان نرفضه كاستدلال ذي قيمة : ان العلم الذي يبحث في الاستدلال أو البرهان هو المنطق ، ولما كان أي استدلال يرد الى استقراء اذن فالاستدلال الاستقرائي هو كل المنطق - أي يرد مل كل انواع البراهين الى البرهان الاستقرائي . ومن ثم فالمنطق والاستدلال والاستقراء الاستقرائي والبرهان كلمات مترادفة عند جون مل . ولم يكن الاستقراء الارسطي بالنوع من الاستقراء الذي يتحمس له جون مل فاعلن انه ليس استقراء بالمعنى الدقيق لأن مل يعرف الاستقراء بأنه انتقال من معلوم الى مجهول ولكن الاستقراء التام الارسطي لا ينتقل الى مجهول وإنما يكتفي بتلخيص ما هو من قبل معلوم .

أسس الاستقراء :

ان الخطوات الاستقرائية التي يريدنا مل أن نتبعها للانتقال مما هو معلوم الى ما هو مجهول خطوات ثلاثة رئيسية سنذكرها فيما بعد بتفصيل ، لكن لا بأس من الإشارة إليها الآن وهي مرحلة الملاحظة والتجربة ، ثم مرحلة تكوين فرض نظن أنه يفسر تلك الملاحظات والتجارب ، وأخيراً مرحلة تحقيق ذلك الفرض تحقيقاً تجريبياً ، فان أيدته الوقائع التجريبية في الحاضر والمستقبل القريب كان الفرض ناجحاً أو صادقاً واتخذ صورة القانون العام . ولكننا نلاحظ أن هذه الخطوات المنهجية تهدف الى صياغة القوانين العامة التي نكتشف أن العالم الطبيعي يسير وفقاً لها ، والعمومية التي في القانون تفترض أساسين هامين هما مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة Uniformity of nature

ومبدأ العلية Causality . ذلك لأننا حين نقول إن فرضاً ما أيدته الوقائع الحاضرة ونظرنا إليه على أنه قانون عام ، فانا نفترض أن الوقائع التي سوف تحدث في المستقبل سوف تتسق وهذا القانون ، وهذا يعني اننا نفترض أن نوع الحوادث التي حدثت في الماضي وتكرر في الوقت الحاضر سوف تتكرر بنفس الطريقة في المستقبل ؛ أو أن المستقبل سوف يكون على مثال الماضي والحاضر – وهذا ما يسمى بإطراد الحوادث . والاعتقاد بصحة هذا الفرض هو سندنا الوحيد للتنبؤ بمستقبل الحوادث والوقائع . والمنهج الاستقرائي من حيث هدفه اكتشاف القوانين العامة التي عن طريقها نفس ظواهر الطبيعة ونتنبأ بها إنما يعتمد على الاعتقاد بهذا الاطراد . وهذا الاعتقاد يستلزم تدعيماً وتأسيساً ، وإلا يكون الاستقراء بغير أساس .

كان ينظر مل كذلك للقانون انه تفسير للوقائع ، وكان يقصر التفسير على نوع واحد منه هو التفسير العلي . كان يعتقد ان لكل حادثة علة وان الوقائع يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً علياً ، وان العلية تحكم ظواهر العالم الطبيعي . كان سيكون يسلم بمبدأي الاطراد والعية ، لكنه لم يحاول ان يقيم أساساً لهذا التسليم ؛ أضف الى ذلك ان تسليمه بالعية كان مستمداً من نظرية العلية الارسطية كما رأينا ، ولكن هذه النظرية جزء لا يتجزأ من الميتافيزيقا الارسطية التي جاءت الفلسفة الحديثة للثورة عليها . فاذا أضفنا الى ذلك ان نظرية هيوم في العلية بعثت الشك على الاقل في مبدأ العلية – كان علينا اذن إذا اردنا للاستقراء ان يحتل مكانته ، ألا نكتفي بمجرد التسليم بالاطراد والعية وإنما يجب ان نناقشها ونوضحها ونجعل لها أساساً متيناً . والا يكون الاستقراء بلا اساس . لقد حمل جون مل هذا العبء – عبء الدفاع عن هذين المبدأين – سنشير الى موقف مل من كل من المبدأين على حدة .

اطراد الحوادث في الطبيعة

اطراد الحوادث في العالم الطبيعي مبدأ يعتقد الرجل العادي بصدقه ولا يشك فيه . اعتدنا ان نرى الشمس تشرق كل صباح في موعد معين فيبدأ

النهار ، وان تغرب في موعد معين فيبدأ الليل ، وان نرى القمر في زمن معين ويتغير شكله كل ليلة حسب نظام خاص . اعتدنا ان نرى الثلج اذا اقترب من النار ذاب ، وان الرجل الذي اصابته رصاصة في قلبه مات ونحو ذلك . تلك حوادث او ظواهر او وقائع يرتبط كل زوجين منها احدهما بالآخر ارتباطاً متكرراً لا يتغير. وقد تنتاب الرجل العادي ذعر ودهشة واستغراب بل يصاب باضطراب في سلوكه وتفكيره إذا أصبح ليتوقع شروق الشمس في موعد معين حسب الدليل الفلكي الذي معه ولم تشرق ، او اذا قرب قطعة من الثلج من النار ولم تذوب ، او وضع قطعة من السكر في قدح الشاي ولم تذوب ، وقل مثل ذلك في بقية حالات الاطراد . ذلك الذعر والاضطراب الذي ينتاب الرجل العادي من وقوع الحوادث على غير ما يتوقعها يشير الى انه يعتقد ان تجري الحوادث في العالم الطبيعي على نحو مطرد ، وان ما ألف وقوعه بالامس يتوقع حدوثه اليوم ، وانه يعتقد باستمرار حدوث ما يتوقع ، تلك الملاحظات اليومية التي يلاحظها الرجل العادي ويلاحظها العالم والفيلسوف في غير لحظات اداء مهنته هي مصدر اعتقادنا بمبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة .

كان يرى جون مل ان اعتقاد الرجل العادي هذا مصدر تصورنا لمبدأ الاطراد ، ولكنه اراد ان يدعم ذلك التصور ويجعل له اساساً متيناً - لقد تساءل مل : هل وصلنا الى هذا التصور باستدلال ؟ ويحيب بالنفي . ان ما نصل اليه باستدلال هو ما له ضرورة منطقية ، والضروري ضرورة منطقية يستحيل تصور نقيضه ، وتصور الاطراد ليست له تلك الضرورة . فالقضية « لا اطراد في الطبيعة » قد تكون كاذبة ولكنها ليست مناقضة لذاتها . وليس هنالك من سبيل للاتيان باستنباط تكون نتيجه ان الحوادث مطردة لاننا لا نعلم كيف تكون صورة مقدمات ذلك الاستنباط . يقول مل انه بالرغم من اننا لم نصل الى الاطراد باستدلال الا اننا نعتقد بصحته ، وراح يبحث عن مصدر هذا الاعتقاد . يشير اولا الى نظرية لتوماس ريد (١٧١٠

(١٧٩٦) مؤداها ان اعتقادنا بمبدأ الاطراد مشتق من استعداد طبيعي في العقل الانساني - هو استعداد للتعميم من الخبرة الانسانية ، هو بمثابة غريزة طبيعية او اعتقاد حدسي ، بان المستقبل سوف يشبه الماضي . يعترض مل على نظرية ريد بنقطتين اساسيتين احدهما انه لا صلة للزمن ومقولاته باي اعتقاد ، والاخرى ان الاستقراء ليس انتقالاً من حاضر الى مستقبل ولكنه انتقال من معلوم الى مجهول . يقول مل اولاً انه لا علاقة للزمن ومقولاته بالاعتقاد - يقصد ان الزمن بما يتضمن من ماض وحاضر ومستقبل وماتنطوي هذه عليه من حوادث مستقل عن الخبرة الانسانية : يمكنك ان تعتقد بشيء غير موجود في الواقع كما يمكن لشيء خارجي ان يوجد ولا نحس به او ان نعتقد بوجوده . حين نعتقد ان النار تحرق من يقرب منها في الغد نعتقد ايضاً انها تحرق اي مقرب منها حتى قبل ان يولد . فالاعتقاد في الاطراد ليس اذن قائماً على الانتقال من ماض الى مستقبل ، وانما قائم على الانتقال من معلوم الى مجهول - من وقائع شوهدت الى وقائع لم تشاهد بعد .

تصور الاطراد في نظر مل ليس قائماً على استدلال ولا عن استعداد طبيعي او اعتقاد حدسي ، وانما قائم على استقراء . الاستقراء يقوم على الاطراد ولكن الاطراد ندعمه باستقراء . ولا يرى مل في ذلك دوراً ، ذلك لاننا لا نقدم برهاناً على الاطراد وانما نبرره فقط . ومعنى ان الاطراد قائم على الاستقراء انه تبرره الخبرة الانسانية اي ملاحظتنا اليومية تؤكد وقدمه . نلاحظ ان حجة مل السابقة ليست برهاناً على مبدأ الاطراد ولا حتى تدعيماً وانما مجرد تسجيل لوجهة نظر الرجل العادي . ومن ثم لم يحقق ما وعدنا به من وضع اساس لمبدأ الاطراد . وهو كان يعلم انه لا يوجد سبيل للبرهان على هذا المبدأ . لكنه من جهة اخرى كان يعتقد بان مبدأ الاطراد مرتبط بمبدأ العلية : كان يعتقد بمعنى آخر ان الاطراد انواع ، وان النوع الذي يعنيه ويدافع عنه هو ما يسميه بالاطراد العلي أي ذلك الاطراد بين حوادث الارتباط بينها ارتباط علتي ، واذن فالحكم على نظرية مل في

الاطراد انما هو الحكم على نظريته من العلية ^(١) .

مدخل الى العلية :

قبل أن نذكر نظرية مل في العلية ، لا بأس من الاشارة الموجزة إلى تطور هذا المبدأ قبيل مل .

تصور العلية قديم قدم الخبرة الانسانية ، فالرجل العادي يسلك ويفكر على هده . يعتقد هذا الرجل أن لكل حادثة علة . إن سألناه ماذا يعني بالعية ؟ يجيب : ما يجعل شيئاً يحدث شيئاً آخر ، أو ما يجعل شيئاً يحدث بعد أن لم يكن . يقول الرجل العادي مثلاً مات فلان بعد اصابته بالحمى ، تهدم المنزل بعد أن اشتعلت به النيران ، أدت الحرارة الى كسر الكوب الزجاجي الموضوع فوق الموقد ، توقفت الساعة بعد أن أسأت استعمالها ، لن نجد للسرطان علاجاً حتى تعرف علته : تلك الأمثلة تشير الى ارتباط حادثتين ارتباط معلول بعلة ^{يبدو} أن تصور العلية نشأ لدى الرجل العادي من اسقاط قدرته أو ارادته على العالم الطبيعي أي أنه يحس أنه علة فاعلية في حركاته وسلوكه وأداء زغباته واغراضه ومن ثم تمثل بالعالم الطبيعي قوة بمائلة محركة وفاعلة . يحرك الفرد منا الاشياء من حوله - أضغط بيدي على قطعة من المطاط فيتغير شكلها ، أحرك الفحم في المدفأة فيحترق الفحم ، إن الخبرة بهذه الفاعلية أساس فكرتنا عن العلية ، ولعلها أساس نظريات الفلاسفة في العلية .

وكان ارسطو أول من اهتم اهتماماً خاصاً بالعية وله نظرية فيها . كان يعتقد أن هدف البحث العلمي واكتشاف القانون العلمي هو البحث عن الروابط للعية بين الاشياء ، لأنه كان يعتقد أن المعرفة الحقة انما هي دائماً معرفة العلل ^(٢) . ان هدف العلم الطبيعي عند ارسطو فهم التغير الذي يحدث امامنا

(١) راجع آراء جون مل في اطواد الحوادث بالتفصيل في ص ٢٠٠ - ٢٠٥ من كتابه

A System of Logic,

Kneale, Probability and Induction, p. 47.

(٢)

أو فهم العملية الحركية الدائبة ؛ كأن العلم الطبيعي يتوجه نحو سؤال ويحاول الإجابة عليه ، والسؤال هو لم كان هناك تغير أو حركة ؟ . وقد ميز أرسطو بين أنواع أربعة من العلل يسميها العلة المادية والصورية والفاعلية والغائية . وشرح هذه العلل يخرجنا عن موضوع بحثنا فهي نظرية ميتافيزيقية . ولا حاجة لملاحظة أن كان لتلك النظرية تأثير كبير على فلاسفة العصور الوسطى ، وتأثير كبير حتى على فجر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، وقد اشرنا فيما سبق إلى تأثير فرنسيس بيكون بتلك النظرية .

كان جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) معاصراً لفرنسيس بيكون ولكنه كان أكثر مواهب للكشف العلمي وأكثر طاقة للثورة على أرسطو ، ومن ثم يعتبر فجر النهضة العلمية التجريبية على التحقيق . واصطدم جاليليو بنظريات أرسطو ، خاصة نظريات علم الطبيعة ، وأبان خطأ المعلم الأول وفساد نظرياته في ذلك المجال . ومما ثار عليه جاليليو في أرسطو نظرية الأخير في العلية . وسنأخذ نظرية سقوط الأجسام مثلاً على الخلاف بين أرسطو وجاليليو . كان يرى أرسطو أن الجسم الأكثر ثقلاً يسقط على الأرض قبل الجسم الأقل ثقلاً ويرد سرعة سقوط الأول إلى ثقله أو وزنه . لم يفسر أرسطو العلاقة المحددة بين الثقل والسقوط . كل ما يقوله لنا أن المكان الطبيعي للحجر الساقط هو الأرض أي أن الأرض هي المكان الطبيعي لاستقرار الأجسام المادية . حقاً توجد شواهد تؤيد تلك النظرية : إذا قذفت جسمين أ و ب من مكان مرتفع في وقت واحد وكان أ أخف وزناً من ب ، سكيون أ أقل مقاومة للهواء من ب ومن ثم يسقط في وقت متأخر عن وقت سقوط ب . تلك النظرية الأرسطية خاطئة ، وقد بين جاليليو خطأ تلك النظرية بالطريقة التالية . افرض أن لدينا جسمين أ ، ب وأن أ أثقل من ب . يمكن اعتبار أ مقسماً أربعة أقسام قل أنها أ_١ ، أ_٢ ، أ_٣ ، أ_٤ وأن أ_١ و أ_٢ و أ_٣ تساوي الجسم ب . فإذا فرضنا أن أ_١ يساوي ب في الثقل فلا بد أن يسقطا على الأرض في نفس الوقت ، ولكن حيث أن أ_١ أثقل من ب بمقدار الربع يبقى أن أ_١ يسقط أبطأ بمقدار

ربع الزمن . ان فكرة جاليليو هنا هي انه اذا سلمنا مع ارسطو بان الثقل علة السقوط كان ينبغي ان يسقط الجسم الاثقل ابطأ من الجسم الاخف ذلك لأن الاثقل به كم اكثر من الجسم الاخف. مما يستلزم زمناً أطول في السقوط . ولكن الافتراض الارسطي بان الثقل علة السقوط افتراض خاطيء ، والنتيجة الارسطية بان الاخف وزناً يسقط ابطأ نتيجة خاطئة كذلك .

بعد ان بين جاليليو خطأ نظرية أرسطو ذكر نظريته الصحيحة . يقول انه لجأ فيها الى التجربة : جاء بحجرين زنة احدهما مائة رطل وزنة الآخر رطلاً واحداً وصعد بهما الى برج بيزا واسقطهما على الارض فلاحظ ان الحجرين قد سقطا في وقت واحد تقريباً . لم يكتف جاليليو بالوصول الى تلك النتيجة بل اراد ان يحدد سرعة سقوط الاجسام الساقطة على الارض. اثبت ان سرعة الجسم الساقط تتناسب تناسباً طردياً مع الزمن الذي يقطعه ذلك الجسم في السقوط ؛ وصل جاليليو الى هذه النتيجة لا من تجربة الحجرين الساقطين على برج بيزا لان في معرفة تحديد السرعة هناك استحالة ، ذلك لان السقوط من اعلى البرج سريع جداً لم يمكنه تسجيله . كانت سرعة السقوط اكثر من ستين قدماً في ثانيتين ، ولم يكن في يد جاليليو ساعة وقتشذ . وصل جاليليو الى نتيجته بتجربة اخرى ممكنة : اسقط كرتين من اعلى الى اسفل في مساحة مكانية اعداها لذلك الغرض . من تلك التجارب ومثيلاتها وصل جاليليو الى القانون الاول من قوانين الحركة ، المعروف بقانون التصور الذاتي .

لم يشك جاليليو في تصور العلية وفي ان لكل حادثة علة فقد كان التصور احد التصورات الاساسية سواء في الحياة العملية او في عقول العلماء والفلاسفة كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ولكن الجديد في موقف جاليليو من العلية هو انه وجه الالهام الى قيمة ادخال التصورات الكمية في مبدأ العلية ، وانه لا قيمة لفهم العلية على اساس التصورات الكيفية وحدها . كان يعتقد جاليليو بمعنى آخر ان تقريرنا ان علة ب ليس كل ما ينبغي ان نصل اليه ؛ ينبغي كذلك ان نحدد تحديداً كمياً تلك الملاحظات العلية . لا يكفي ان نقول سقط

الخجر على الارض بفعل قوة الجاذبية الارضية وانما يجب كذلك ان نحدد سرعة سقوطه وما العلاقة بين وزن الجسم والمسافة بين الجسم الساقط والارض التي يسقط عليها وما الزمن الذي يقطعه ذلك الجسم في السقوط . نلاحظ اخيراً أن ابجاث جاليليو في سقوط الاجسام كانت مدخلاً إلى صياغة إسحق نيوتن لقوانين الحركة واكتشاف قانون الجاذبية ، مما سنذكر فيما بعد ^(١) .

وسبق أن أشرنا الى اعتقاد نيوتن بمبدأ العلية وأنه يتخذ هذا المبدأ مصادرة لا يشك فيه وأن العالم الطبيعي يسير وفقاً له ^(٢) . نشير الآن الى نقطة هامة في موقف نيوتن من العلية هي تردده بين اعتقاد بها وانكار لها . كان يعتقد بها لأن العالم كله كان يعتقد بها ولأنها تتسق ومعتقدات الرجل العادي وتتسق وتصور نيوتن نفسه لمعنى القانون العلمي وأنه تفسير للظواهر والتفسير عنده مقصور على التفسير العليّ فقط . ومن جهة أخرى ارتبطت العلية في ذهنه بالنظريات الميتافيزيقية التي تتضمن بعدها عن الاتجاه التجريبي . كان نيوتن بمعنى آخر بين نارين : نار إنكار مبدأ العلية بينما يرى ان العلية مبدأ كلي يسود عالم الظواهر وان القوانين انما في طبيعتها قوانين عليّة ، ونار الاعتقاد بهذا المبدأ بينما لم يقم بأثباته بالملاحظة والتجربة . يبدو هذا التردد من النص الآتي وهو احدى الملاحظات التي يختم بها كتابه علم الضوء :

« ما أسميه جاذبية يمكن ان يتم بالدفع أو أي طريقة أخرى مجهولة لي . استخدم الكلمة [جاذبية] هنا لتدل بوجه عام على أي قوة عن طريقها تميل الأجسام الواحد نحو الآخر كيفما كانت العلة . يجب أن نتعلم من ظواهر الطبيعة ما الأجسام التي تجذب أجساماً أخرى وما قوانين الجاذبية وخواصها قبل ان نبحث في العلة التي بفضلها تم الجاذبية » . يبدو أن نيوتن كان قلقاً من التعرض لسؤال مثل لم يجذب جسم ما جسماً آخر ؟ ومردّ القلق أنه كان مستمسكاً بالمنهج التجريبي الذي يتضمن القيام بملاحظات وتجارب مصاغة

(١) قارن فقرة نظرية الجاذبية عند نيوتن في الفصل الثامن .

(٢) راجع ما قلناه عن نيوتن وتكوين الفروض في نهاية الفصل الثالث .

في صور رياضية ، ولكن لا نجد في ذلك المنهج ما يعيننا على اثبات أن لكل
حادثة علة ، ولكنه كان وارثاً للتصور العلي من أفكار السابقين فاتخذ
مصادره . واتخذ المصادرة وهو قلق .

وللفيلسوف التجريبي الانجليزي دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) نظرية
في العلية كان - ولا يزال - لها أكبر الأثر في الفلسفات التالية بوجه عام ،
كما أن لها تأثيرها على الاستدلال الاستقرائي بوجه خاص ، وسنفرد لهذه
النظرية فصلاً مستقلاً هو الفصل التالي لما لها من قيمة فيما يسميه علماء المناهج
(مشكلة الاستقراء) . ولكننا نود أن نشير إليها هنا إشارة موجزة لأن
مل تأثير بها وإن كان تأثيره بها من قبيل تأثير كمنط بهيوم الذي قال عنه
كمنط نفسه ان هيوم أيقظه من سبات الاعتقاد ولكن ما لبث أن تناول
كمنط مخدراً جديداً بعد ان أفاق من نظرية هيوم . كان مل شبيهاً بكمنط في
هذه الحالة . لم ينكر هيوم مبدأ العلية ولم يشك أبداً في أن لكل حادثة
علة ، ولكنه رفض نظريات الفلاسفة السابقين عليه في العلية . لقد رفض أن
العية مبدأ فطري أو تصور قبلي في العقل الإنساني ، وأعلن أن مبدأ العلية
مبدأ تجريبي يستمد قوته من الخبرة الإنسانية . وحيث أنه مبدأ تجريبي فان
الشك فيه ممكن : أي أن مبدأ العلية ليس شبيهاً بالمبادئ المنطقية أو
الرياضية التي يتضمن الشك فيها تناقض الفكر مع ذاته . وإنما الشك في العلية
ممكن لأنه يمكن تصور إنكاره دون وقوع في التناقض . ونقطة أخرى في
نظرية هيوم في العلية هي البحث في مصدر اعتقادنا بمبدأ العلية - رأى هيوم
أن اعتقادنا بالعية مستمد من ملاحظة التتابع المتسلازم المتكرر بين حادثة
وأخرى في خبراتنا الحسية . مصدر الاعتقاد بالعية بمعنى آخر هو ادراك
الزم بين حادثة وأخرى في وقوعها ، فإذا حدثت حادثة وتبعها حدوث
حادثة أخرى وتكرر هذا التلازم قلنا ان هنالك علاقة علية بين الحادثتين .

العية

ذلك هو الجو الفكري الذي وجدته چون مل مائلاً أمامه فيما يتعلق

بمبدأ العلية : معتقد راسخ للرجل العادي في حياته اليومية ، ونظريات أرسطو ، وتبعية فرنسيس بيكون لها ، ثم تعديلات جاليليو ، ثم شكوك نيوتن ، ثم ضربة دافيد هيوم للضرورة المنطقية المدّعاة للعية . جاء مل ووجد نفسه مضطراً للدفاع عن مبدأ العلية وأنه مبدأ ضروري وان تخضع له كل ظواهر الطبيعة ، وإلاّ يصبح الاستدلال الاستقرائي بغير أساس : أساسه أن الطبيعة لا بد وان تسير في اطراد على وان القانون العلمي انما هو تفسير على للظواهر .

يفتح چون مل دفاعه عن العلية بقوله إن هناك حقيقة أساسية لها قيمتها في نظرنا الى العالم الطبيعي هي تلك المتعلقة بما يسميه نظام تتابع الظواهر Order of Succession ويقول انه يريد ان يعيّن قانون هذا التتابع ، ويرى أن ذلك القانون هو قانون العلة ، ويقول انه قانون كلي أي يشمل كل ظواهر الطبيعة بلا استثناء .

يشير مل الى ما يرفضه عن العلية من اقوال الفلاسفة السابقين قبل أن يحدد موقفه الخاص . يرفض مل أولاً ما سمته الفلسفات الميتافيزيقية العلة الاولى اذ يقول « أنا لا أقوم ببحث في العلة الاولى أو العلة الانطولوجية لأي شيء »^(١) . يرفض مل ثانياً تصور العلة على أنها الماهية – يرفض الحديث عن علة شيء ما على انها ذلك العنصر الكامن في باطن ذلك الشيء أو ذلك التركيب الخفي غير المشاهد ويقال انه علة ما يبدو لنا من ذلك الشيء . ويرفض مل ثالثاً تصور العلة على أنها علاقة ضرورية بين شيئين أو حادثتين أي تلك العلاقة التي يلمسها العقل على الاشياء ، إما في صورة فكرة فطرية أو تصور قبلي . ويرفض أخيراً تصور العلة الفاعلية الى جانب العلل الثلاثة الأخرى الارسطية^(٢) .

ينتقل مل بعد ذلك إلى تسجيل ما يعنيه بكلمة علة، وتعريفه لها، والعلاقة

J. S. Mill, A System of Logic, p. 213.

(١)

Ibid.

(٢)

بين العلة والمعلول ، وكيف نصل الى تصور العلية . ما يعنيه جون مل بالعلة . يسميه العلة الطبيعية ، أي تلك الحادثة او الواقعة التي تكون سببا لظهور حادثة او واقعة اخرى وتسمى الثانية معلولا . « حين اتحدث عن علة اي ظاهرة لا أقصد العلة التي ليست في ذاتها ظاهرة ... لكي أصطنع تمييزا مألوفاً في كتابات الميتافيزيقيين من أصحاب مدرسه الفهم المشترك وخاصة كتابات ريد ، يمكنني القول بأن العلل موضع اهتمامي ليست العلل الفاعلية وإنما العلل الطبيعية Physical causes تلك علل بالمعنى الذي نقول فيه ان واقعة طبيعية علة لواقعة أخرى (١) .

يفهم مما سبق أن العلة التي يتحدث عنها مل اشياء أو احداث تقع في العالم الطبيعي أي ما يكون موضوعاً للخبرة الانسانية . يعتقد ان تلك الخبرة تدلنا على تتابع الظواهر واحدة في إثر أخرى على نحو ثابت متكرر ؛ ان بين الظواهر التي توجد في أي لحظة والظواهر التي توجد في لحظة تالية نظام تتابع وتلازم ثابت متكرر ، وما هو سابق دائماً نسميه العلة ، وما هو تابع لذلك دائماً نسميه العلة ، وما هو تابع لذلك دائماً نسميه المعلول . لا يقصد مل القول بأن الظواهر يتلو بعضها بعضاً على نحو عارض وإنما هناك شروط معينة لا بد ان تتوفر لاحداث ذلك التالي والتتابع بين أي ظاهرتين نقول ان بينهما ارتباطاً علياً . ومن ثم يقدم مل تعريفاً اولياً لتصور العلية هو مجموعة الشروط التي تؤدي الى احداث أثر معين وان يكون حدوث ذلك الأثر حدوثاً متتابعاً لا تغير فيه (٢)

قد يفهم من الفقرة السابقة أن العلاقة العلية عند مل علاقة بين شيئين دائماً ، لكنه يزيد موقفه وضوحاً بقوله ان العلاقة العلية ليست دائماً بين ظاهرة منفردة وظاهرة أخرى ، وإنما يحدث في أغلب الحالات أن الظاهرة التي نسميها أثراً ومعلولاً قد تسبقها مجموعة من الشروط أو مجموعة

Ibid.

(١)

Ibid., p. 217.

(٢)

من الظواهر تؤدي الى احداث ذلك الأثر . ويضرب لنا مل مثال الانسان الذي تناول طعاماً معيناً فمات . تقول عادة ان تناوله ذاك الطعام علة موته بمعنى أنه ما كان مات لولا تناوله ذلك الطعام . ولكن يلاحظ مل ان تناول الطعام ليس العلة الوحيدة لموت ذلك الرجل بل يجب ان نضيف عوامل اخرى مثل تركيب جسم الرجل وحالته الصحية وربما بعض ظروف الجو . قد لا يؤدي تناول رجل آخر لنفس الطعام الى موته اذا كان تركيب جسمه أقوى بناء وكانت صحته من القوة بحيث تكون لديه قدرة معينة على مقاومة ما في ذلك الطعام من مواد سامة . فالعلة في موت رجلنا انما هي مجموعة شروط حين تجتمع تتم الوفاة . ولكننا تعودنا حين نقرر ظاهرة ما ألا نعدد دائماً السلسلة العلية كاملة ؛ وانما نذكر فقط العامل المباشر في احداث الظاهرة ؛ من تلك الحالات تكون بقية السلسلة العلية متضمنة في قولنا ، ولا يمكن تجاهلها أو انكارها (١) .

لقد شعر مل أن التعريف السابق للعلية - تعريف العلة بأنها مجموعة الشروط السابقة على حدوث أثرها وانها الشروط الملازمة دائماً لاحداث ذلك الأثر - لقد شعر مل ان هذا التعريف يؤدي الى موقف ينكره . هذا الموقف هو قول بعض الفلاسفة المعاصرين ومنهم توماس ريد أن الليل علة النهار وان النهار علة الليل . إن تلك القضية انما تكون متسقة مع تعريف مل الأول . ولكنه كان يعتقد أن موقف ريد موقف خاطيء - أي كان يخطيء مل ريد في القول بأن النهار علة الليل والليل علة النهار . لم يعتقد بأن الليل يتبعه نهار دائماً وفي أي الظروف وانما يتبع النهار الليل والليل النهار فقط حين تتوفر شروط معينة احداها شروق الشمس ، فاذا امسكت الشمس عن الشروق لا يحدث ذلك التلازم بين حدوث الليل والنهار وانما يصبح العالم في ليل مقيم . ومن جهة اخرى اذا اشرقت الشمس وظل ضوءها مستمراً ولم يوجد جسم معتم يحول بينها وبين الارض في آخر النهار فانتا نصبح في نهار مقيم ، ولا

Ibid. p.215 (١)

ليل هنالك . نستنتج من ذلك ان الليل علة للنهار والنهار علة لليل فقط اذا توفر اشراق الشمس واذا توفر وجود جسم معتم في دورة الارض حول الشمس ودورة الشمس في مداراتها الخاصة بالنسبة للمجموعات النجمية الاخرى . علة النهار ليس الليل وعلة الليل ليس النهار ، وانما الليل والنهار اثران لعدة علل هي شروق الشمس ووجود اجسام معتمة تحول بين الشمس والارض ومدارات الارض والكواكب والشمس والنجوم . يصل مل من تلك الملاحظات الى تعديل للتعريف السابق للعلية فيضيف فكرة الاطلاق الذي لا يقيد شرط uuconditionalness . ويصبح تعريف مل الجديد للعلية هو جملة الشروط التي يلبي ان تسبق حدوث المعلول دون وضع اي شروط ^(١) . ومن ثم ليست العلاقة بين الليل والنهار علاقة عليه بالمعنى الجديد للعلية حيث ان حدوثهما مقرون بشروط خاصة . من الأمثلة التي يضر بها جون مل للعلاقة العلية أن الشمس علة الضوء والنهار والحرارة ، وان الارض علة سقوط الاجسام الثقيلة وان الارض علة الظاهرات ذات الخصائص المغناطيسية ^(٢) .

نعود الى سؤال طرحناه من قبل في ختام حديثنا عن مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة ، وأرجأناه حينئذ : كانت يعتقد مل بأن الاطراد انواع ، ولكن النوع الوحيد الذي كان يراه مبدأ للاستقراء هو الاطراد العلي ، وإذن ما ذلك الاطراد العلي ؟ يرى مل ان الظاهرات والوقائع والحوادث التي شاهدها تقع في الماضي والحاضر انما سوف يتكرر وقوعها في المستقبل ، ولكن الذي يطرد في وقوعه هو الظاهرات المتلازمة تلازماً علياً . يفسر مل الاطراد العلي على النحو التالي : إن بالعالم الطبيعي عدداً مما يمكن ان نسميه « بالعلل الدائمة » Permanent causes ، هي دائمة لأنها موجودة منذ بدء الخبرة الانسانية ومن المحتمل انها كانت موجودة قبل ذلك بزمان طويل . تلك العلل الدائمة هي الشمس والارض والكواكب الاخرى بما فيها من هواء وماء وعناصر بسيطة ومركباتها . كانت هذه الاشياء ولا تزال موجودة ، وآثارها

(١) Ibid. q 222

(٢) Ibid., p. 224

كذلك موجودة ؛ لكننا لا نستطيع معرفة مصدر تلك العلة الدائمة : لِمَ توجد هذه العلة بالذات ولم توجد غيرها ؟ لِمَ توجد بالنظام الذي وجدت عليه عبر الفضاء ؟ تلك أسئلة لا نستطيع الاجابة عليها ، بل لا نستطيع اكتشاف أي شيء مؤكد عن العلاقة بين إحداها والاخرى بمعنى أننا لا نستطيع الاستدلال من ملاحظة الشمس على وجود الاشياء الاخرى التي ارتبطت بها بحيث نستدل من علة الى معلول او من معلول الى علة ؛ ولكن هذه العلة الدائمة ككل علة كل ما يحدث في عالمنا . وليست هذه العلة دائماً أشياء فقد تكون كذلك حوادث ؟ ليست الارض وحدها إحدى العلة الدائمة بل دورتها كذلك علة دائمة : ان دورة الارض علة تعاقب الليل والنهار (مع توفر شروط اخرى كما ذكرنا من قبل) . إن دورة الارض كذلك علة المد والجزر ومعلولات اخرى كثيرة . كل الظواهر التي تحدث في العالم الطبيعي آثار مباشرة او غير مباشرة لتلك الوقائع الدائمة . لا شيء يحدث ولا حادثة تقع في الكون ليست مرتبطة ارتباطاً متتابعاً متكرراً بشيء او حادثة اخرى ^(١) .

ذلك تصور جون ستوارت مل للعلية ومعناها وتعريفها ومصدر اعتقادنا بذلك التصور . ونريد ان نقف وقفة أخرى عند مصدر اعتقادنا بالعلية في نظر مل . يقول ان مصدره هو الخبرة الانسانية ، وهذا يعني اننا لا نصل الى هذا التصور باستدلال يتضمن الضرورة المنطقية وذلك بين من الفقرة السابقة ، ليست الفكرة العلية فكرة فطرية ولا حدسية ولا قبلية ، ولكنها فكرة وصلنا اليها باستقراء أي بملاحظة إدراك تتابع متلازم ثابت متكرر بين حادثة واخرى أو ظاهرة وأخرى . قد يعترض على مل بأن في اثباته للعلية دوراً ، أي يقرر ان المنهج الاستقرائي يعتمد على اعتقادنا بقانون العلية ولكنه من جهة أخرى يقيم هذا القانون باستقراء . ولكننا نرد على هذا الاعتراض بقولنا

(١) Ibid. , p. 226 .

أن ليس في إثبات مل دوراً ، لان الاستقراء عنده يفترض العلية ولكن مبدأ العلية ذاته ليس اكتشاف أي علة .

يضيف جون مل الى ما سبق قوله ان قانون العلية قانون كلي أي هو قانون تخضع له كل ظواهر العالم بلا استثناء .

ملاحظات على نظرية مل في العلية :

قد تبين مما سبق ان جون مل يرد مبدأ الاطراد الى مبدأ العلية فيصبح مبدأ العلية في الحقيقة الاساس الوحيد الذي يقوم عليه الاستقراء . ويمكن ان نوجه الى نظريته في العلية الانتقادات الآتية :

١ - لم يقدم لنا مل اثباتاً لوجود العلية أساساً تخضع له ظواهر العالم الطبيعي ، وانما أقام فقط تبريراً لاعتقادنا بالعية ، وليس التبرير إثباتاً أو برهاناً . أصر على أن اعتقادنا بالعية يقوم على اساس من الخبرة الانسانية ، ولكن هذا الاساس متضمن في معتقدات الرجل العادي ، ولم يقدم لنا برهاناً على صدق على هذا الاعتقاد وانما اكتفى بتوضيحه وجمع الشواهد له . حاول الفلاسفة السابقون وضع تفسير لهذا الاعتقاد فمن قائل بأنه فطري في العقل ومن قائل انه استعداد غريزي ومن قائل إنه تصور قبلي ، ولكن مل رفض هذه التفسيرات جميعاً ولم يقدم تفسيراً غيرها . ووجدنا انفسنا مع مل فيما يختص بالعية كما بدأنا على أنه اعتقاد راسخ لدى الرجل العادي ولم نعرف مصدره . إرجاع الاعتقاد الى الخبرات اليومية ليس اثباتاً لصحته وإنما شاهد عليه .

٢ - لاسبيل لدى مل لاقامة مبدأ العلية على انه قانون كلي إلا باستقراء ، وبنوع واحد من الاستقراء هو الاستقراء التام الارسطي ونعني بذلك أنه لكي يقوم مبدأ العلية على الاستقراء يجب ان نحصي امامنا كل ظواهر الكون لتؤكد إن كان التلازم بين الظواهر انما يكشف عن علاقة علية أو نحصي بعض الظواهر ونرى ما بينها من تلازم عليّ ثم نقول ان هذه الظواهر

المشاهدة هي كل الظواهر الموجودة في الكون، ولكن فرغنا من نقد الاستقراء التام بقولنا إن الاحصاء التام لظواهر الكون مستحيل . ثم ان مل نقد هذا الاستقراء الارسطي نقداً مرثاً . يمكن التعبير عن هذا النقد بطريقة اخرى بقولنا انه لا يمكن اقامة قضية كلية في الأمور التجريبية ، وسبيل اقامتها في الرياضة والمنطق فحسب .

الفرض العلمي

أشرنا في الفصل الثالث إلى أن مرحلة تكوين الفروض مرحلة اساسية بعد مرحلة الملاحظة والتجربة. وقد اشرنا هنالك أيضاً أنه بالرغم من أن فرنسيس بيكون يعتبر أحد المتحمسين لما سميناه الاستقراء التقليدي غير أنه انكر هذه المرحلة الثانية ، وان كان استخدمها دون ان يشعر . سنشير في هذه الفقرة إلى أن جون ستوارت مل يعتبر تكوين الفرض مرحلة اساسية في البحث الاستقرائي بعد مرحلة الملاحظة والتجربة ، وهو أبرز المتحمسين للاستقراء التقليدي وأكثرهم تأثيراً . ولذلك حين اشرنا الى ان تكوين الفروض من مراحل الاستقراء التقليدي كنا نعبر عن موقف مل . وقبل أن نشير إلى موقفه من تكوين الفروض نلاحظ أنه كما كان مل يعتبر الفرض العلمي مرحلة اساسية في الاستقراء كان متحمساً كذلك لاسحق نيوتن الذي أعلن عداؤه للفروض العلمية عداً واضحاً كما اشرنا إلى ذلك من قبل . وشاهد على تحمس مل لنيوتن أنه كان يستشهد كثيراً بنظريات الثاني العلمية في تطبيق نظريته الإستقرائية ، كما كان مل يعتبر نيوتن من روائع الأمثلة على استخدام المنهج الاستقرائي . فما موقف مل من عداً نيوتن للفروض ؟ لقد دافع مل عن نيوتن اذ قال ان انكار نيوتن للفروض لم يكن موجهاً نحو كل أنواعه وانما فقط الى الفروض الميتافيزيقية أو الفروض التي تنطوي على الماهيات الخفية للأشياء وتلك فروض لا سبيل لنا الى تحقيقها بالتجربة ، وكان نيوتن على حق في انكاره لها . ولكن من غير المعقول ان ينكر نيوتن الفروض التي نمكن تحقيقها تحقيقاً تجريبياً : بل ان نظرياته العلمية مليئة بهذا النوع من الفروض . وينتهي

مل الى قوله ان نيوتن لم يحرم نفسه من تسهيل عملية البحث بافتراض شيء يمكن اثباته . بدون تلك الفروض ما كان وصل العلم الى ما وصل اليه ؛ انها خطوة ضرورية للوصول الى شيء عن العالم اكثر يقيناً ^(١) .

يبدأ مل دفاعه عن الفروض فيقول إن اهم اهداف العلم إقامة قوانين تفسر ما نلاحظه وما يجري امامنا في العالم الطبيعي ، ولكن القوانين كلها عليّة ، أي تعبر عن روابط عليّة بين الظواهر . اننا نسأل انفسنا دائماً بعد ملاحظتنا لظاهرة أو عدد معين من الظواهر سؤالاً رئيسياً : ما علة ما يحدث ؟ وكيف تنتج تلك العلة ؟ ومجرد الملاحظة لا يجيب عن أي من السؤالين لأن الجواب يتطلب لا مجرد تكديس الملاحظات والتجارب بل تفسيرها ، وتفسيرها تفسيراً عليّاً . إننا نصل الى هذا التفسير عن طريق فرض نفترضه .

الفرض عند مل اقتراح نظرحه بقصد محاولة استنتاج نتائج منه وان نبحت ما اذا كانت تلك النتائج تتفق مع الوقائع الملاحظة أو تتفق مع تلك الحقائق التي سامنا من قبل أنها متفقة مع الوقائع ؛ اذن فالفرض صادق ^(٢) . ولا شك أن تكوين الفرض يعتمد على قدرة الانسان على التخيل ، والخيال غير الواقع ، ومن ثم ليس كل فرض يتحتم أن يتفق مع الواقع واذن فلنفرض رأياً « وليكن فرضاً خاطئاً ونرى نتائجه ثم نلاحظ كيف تختلف تلك النتائج عن الظواهر التي امامنا والتي سوف تكون امامنا في المستقبل ومن ثم نتعلم كيف نعدل فرضنا » ^(٣) . ومضمون الفرض عند مل اقتراح لعلة مسا امامنا من ملاحظات أي اقتراح يفسر لنا كيف ارتبطت الظواهر ارتباطاً معيناً . وإذا طابق هذا الفرض ما لدينا من وقائع وظواهرات في الحاضر اذن هو فرض صحيح أو صادق أو ناجح ، واذا استمرت هذه المطابقة في المستقبل اصبح ذلك الفرض قانوناً .

Ibid., p. 326

(١)

Ibid., p. 322.

(٢)

Ibid., p. 326.

(٣)

وللفرض العلمي شرط أساسي عند مل هو ألا يظل فرضاً بل يجب ان يتخذ طريقه الى اثباته او انكاره بمطابقته للوقائع في العالم الطبيعي ؛ فما لم يجد ذلك السبيل فلا يستحق أن يسمى فرضاً إذ ليست له وظيفة باي حال^(١). لا شك أن لهذا الشرط قيمته اذ بفضلہ نتخلص من العلم التجريبي ذات الصبغة الفلسفية مثل علم الطبيعة الارسطي أو الميكانيكا الديكارتية ، كما يمكننا أن نحصل على مزيد من فهم العالم الطبيعي بما نضيف إلى حصيلتنا العلمية من قوانين تنطبق مع الوقائع ، وكانت تلك القوانين من قبل فروضاً .

وبالرغم من قيمة هذا الشرط فان التمسك به تمسكاً مطلقاً قد يؤدي الى انكارنا فروضاً يسلم بها جمهور العلماء اليوم ، والتمسك بهذا الشرط تمسكاً مطلقاً يتضمن سوء فهم لطبيعة الفرض ، فهناك فروض مستحيلة التحقيق بالطريقة التي رسمها مل ولكنها فروض مقبولة . سنأخذ مثلين لنوضح ما نقول .

خذ القانون الأول من قوانين الديناميكا الحرارية الذي يقول ان كمية الحرارة في الكون في تناقص تدريجي ، ومن ثم سوف يأتي على الكون وقت تنعدم فيه الحرارة تماماً ويتم فناءه . هذا فرض علمي يقبله العلماء منذ قرابة قرن ، ومع ذلك تحقيقه مستحيل . لا نستطيع الآن ان نحصل على طريقة تحقيق الفرض لأن هذه الطريقة تستلزم فناء الكون ، وحينئذ لن يوجد انسان ليلاحظ اثبات الفرض . ان استحالة وجود وقائع تثبت صحة فرض ما لا تخرجه عن كونه فرضاً علمياً .

والمثال الثاني هو فرض التطور . يقول تشارلز دارون في كتابه أصل الأنواع :

«حيث أن الجنين يحوي بوضوح تركيب أسلافه القديمة فانه يمكننا معرفة علة وجود تشابه كبير بين الأسلاف المنقرضة لجنس ما والأجنة الصادرة عن أنواع موجودة الآن وتلتقي الى ذلك الجنس المنقرض . يعتقد أجاسيز Agassiz

Ibid., p. 325.

(١)

أن ذلك أحد القوانين الكلية في الطبيعة ، ونأمل أن نجد في المستقبل وقائع تبرهن على صحته . وهناك على أي حال سبيل واحد للبرهنة على ذلك القانون هو العثور على أفراد جزئية تنتمي إلى نوع من الأنواع التي لم تنقرض انقراضاً تاماً ولوحظ أن هنالك اختلافاً بين تلك الأفراد وذلك السلف ، ولوحظ أن ذلك الاختلاف يرجع إما إلى التغيرات المتتالية الحادثة في مرحلة مبكرة جداً من النمو أو إلى التغيرات الموروثة في مرحلة سابقة على الزمن الذي ظهرت فيه تلك التغيرات. قد يكون هذا القانون صادقاً ولكننا نلاحظ أنه قد يستلزم منا وقتاً طويلاً حتى تمكن البرهنة عليه لأن السجلات الجيولوجية المتوفرة لدينا لم تسجل الحياة في أزمان غابرة^(١) . إن ما يريد دارون الإشارة إليه في هذا النص هو القول بأن الجنين مثلاً ينتمي إلى جسم منقرض و على أساس وجود وجه شبه بينها في التركيب العضوي - أنه فرض علمي بالرغم من أن مجال التحقق منه مجال ضيق جداً . أن استحالة تحقيق الفرض لا يمنع الفرض من كونه فرضاً .

تحقيق الفروض

يذكر لجون ميل بوجه خاص في موقفه من المنهج الاستقرائي ثلاثة نظريات: نظريته في العلية ، وفي فرض الفروض ، وفي تحقيق تلك الفروض ، وقد فرغنا من الإشارة إلى النظريتين الأولى والثانية ؛ يبقى أن نشير إلى نظريته في تحقيق الفروض ، وهذا التحقيق يؤلف المرحلة الثالثة في الاستدلال الاستقرائي بعد مرحلتَي الملاحظة والتجربة وفرض الفروض . ونحن أشرنا إلى موقف مل من تكوين الفروض قلنا أنه يجعل إمكان التحقيق التجريبي شرطاً أساسياً لتكوين الفرض العلمي ، ولكنه يفرد لمرحلة التحقيق فصلاً خاصة .

يقول لنا مل أنه وضع أربعة طرق سماها الطرق الاستقرائية في تحقيق الفرض ، وسماها أحياناً طرق البحث العلمي ، نلاحظ أولاً أن مل يجعل

(١) النص مأخوذ من : Joseph, An Introduction to Logic, pp. 492 ff.

عنوان تلك الفصول في تحقيق الفروض ، «الطرق التجريبية الاربعة» ، ولكننا سرعان ما تجده يحصى خمسة طرق. ولذلك دلالة في عدم وضوح موقف مل. وكانت نتيجة ذلك الاضطراب ان اختلف المؤرخون فيما هي تلك الطريقة الزائدة. ان الطرق الخمسة هي طريقة الاتفاق ، طريقة الاختلاف ، طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف ، طريقة التغير النسبي ، وطريقة البواقي . يرى بعض المؤرخين أن الطريقة الزائدة هي طريقة البواقي مثل العاملة المنطقية الانجليزية الآنسة سوزان ستبنج Stebbing ، ويرى بعض آخر أن الطريقة الزائدة هي طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف معاً مثل الاستاذ المنطقي الانجليزي جوزيف Joseph ، ويرى بعض المناطقة المعاصرين أن طريقة البواقي وطريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف طريقتان من قبيل التكرار ومن ثم فليست لهما قيمة فعالة ، وانما الطرق التي تستحق الدراسة ثلاثة ، طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف وطريقة التغير النسبي مثل وليم نيل Kneale .

سوف نعرض هنا على اي حال تلك الطرق الخمسة بايجاز كما فهمها مل. (١) طريقة الاتفاق Method of Agreement : تقول هذه الطريقة انه اذا اشتركت حالتان أو اكثر من حالات الظاهرة المراد بحثها في عامل واحد فان ذلك العامل الذي تشترك فيه كل الحالات هو العلة (أو المعلول) لتلك الظاهرة (١) . تقول طريقة الاتفاق بعبارة أخرى ان العلة والمعلول متلازمان في الوقوع بحيث اذا حدث الاول تبعه حدوث الثاني والعكس بالعكس . وتستلزم هذه الطريقة أن نجمع أكبر عدد ممكن من الحالات التي تبدو فيها ظاهرة معينة ونقارن بين عناصرها أي نبحث فيما هو السابق واللاحق في حدوث تلك الظاهرة ، فالسابق الثابت الذي لا يتغير في سبق حدوثه نسميه العلة واللاحق الذي لا يتغير في ملازمته لذلك السابق تلازماً متكرراً منتظماً نسميه المعلول . ويرمز مل الى هذه الطريقة بالصورة الآتية :

ا ، ب ، ح ← س ، ص ، ع

ا ، و ، ه ← س ، ط ، ل

... ا — س

تشير الرموز في السطر الأول الى حالة معينة تبدو فيها ظاهرة ما ، وفي السطر الثاني الى حالة أخرى تبدو فيها نفس الظاهرة ، ويشير السهم الى تعاقب عناصر كل حالة ، ويشير الخط المستقيم الى علاقة العلية .

ويضرب مل لتوضيح الطريقة الأولى مثال من اصابته رصاصة في قلبه فمات ؛ المعلول هنا هو الموت والعللة هو دخول الرصاصة في قلبه - فاذا احصينا ظروف الرجل المختلفة قبيل وفاته نجد انها شبيهة بظروفه في الأيام الماضية ولكن طراً عليه ظرف اصابته بالرصاص فغيرت من حالته وأودت به نقول إذن ان العلاقة بين اطلاق الرصاص عليه وموته علاقة عليه . ويضرب مل مثلاً آخر هو الإشارة الى عدة حالات لأجسام مختلفة لها التركيب البلوري ، وان التركيب البلوري شوهده لاحقاً حالة معينة هي حالة التجمد بعد أن مرت عليها حالات السيولة . نقول ان علة حدوث الجسم البلوري مرور الجسم من حالة السيولة الى حالة التجمد .

تستلزم هذه الطريقة كما قلنا ليس كثرة عدد الحالات وانما تنوعها فمثلاً حين نقول ان علة جذب الحديد المغنط لبرادة الحديد هو حصول قطعة الحديد على خاصية الجذب ، فان فرضنا لا يتحقق بكثرة ملاحظتنا لقطع أخرى من الحديد وانما بملاحظتنا مثلاً لمعدن الرصاص لنجد انه لا يجذب برادة الحديد .

وقد رأى مل أن طريقة الاتفاق معرضة لقد شديد هو تجاهلها للحقيقة الهامة أن قد يوجد معلول يمكن أن يؤدي اليه اكثر من علة - لا نقصد أن عللاً متعددة تتكاتف في احداث معلول واحد ، وانما أن معلولاً واحداً قد يؤدي اليه اشياء مختلفة . فمثلاً نجد أن الحرارة قد تحدث من الاحتكاك أو الاحتراق أو الضغط الخ ... فاذا حدث احتكاك بين معدنين وتولد عن ذلك

حرارة فانه ينبغي ألا نقول ان الاحتكاك علة الحرارة ، لانه قد يؤدي الى الحرارة علل اخرى . وقد قال مل ان الطريقة الثانية تتغلب على هذا النقد .

(٢) طريقة الاختلاف Method of difference : يمكن التعبير عن هذه الطريقة بقولنا أنه اذا لوحظ شيء معين ا ونحن بصدد البحث عن ظاهرة ما يحدث بطريقة متكررة لا استثناء في حدوثه سابقاً على شيء آخر ب لوحظ تابعا له بطريقة متكررة بلا استثناء ، وأن السابق ا يلاحظ عدم حدوثه بطريقة ثابتة حين لا نجد ب فان ا علة ب . وبفضل هذه الطريقة يمكن اثبات أن الاحتكاك مثلاً أحد علل توليد الحرارة بين جسمين لاننا حين نحدث احتكاكاً بين الجسمين ترتفع درجة حرارتهما وحين يمتنع الاحتكاك لا نتولد تلك الحرارة . ويمكن اثبات ان وجود الهواء علة في سماع صوت جرس ما أو أي صوت آخر لاننا حين ندق جرساً في مكان به هواء فانما نسمع صوته ، ولكن اذا كنا ندقه في مكان به قليل من هواء او لا هواء فان السمع يمتنع . وقل مثل ذلك في العلاقة العلية بين توفر الاوكسجين والتنفس . . يسمى مل هذه الطريقة طريقة التجربة Method of experiment ^(١) . ولا حاجة بنا الى القول أن قد تأثر مل في هذه الطريقة الثانية بمنهج الحذف او الاستبعاد التي نادى به فرنسيس بيكون . ويرمز مل لطريقة الاختلاف بالرمز التالي :

ا ، ب ، ح ← س ، ص ، ع
ب ، ح ← ص ، ع
... ا — ب

(٣) طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف : لا تحتاج الطريقة الثالثة منا الى مزيد من شرح لأنها لا تختلف في جوهرها عن طريقة الاختلاف .

(٤) طريقة التعبير النسبي Method of concomitant Variations : تنطوي هذه الطريقة لا على اكتشاف العلاقة العلية بين شيء وآخر أو حادثة

واخرى ، بل على ملاحظة الاختلاف الذي يطرأ على احدهما اذا حدث اختلاف في الآخر . مضمون هذه الطريقة أن الزيادة او النقص في المعلول مرتبط بالزيادة او النقص في العلة في الحالات التي تسمح بالزيادة او النقص . إن الطريقة الرابعة لا تبحث العلاقة العلية وإنما تبحث عن العلاقة الكمية بين العلة والمعلول - بعد ان نفرغ من اثبات ان الاحتكاك احد علل توليد الحرارة مثلا ، نجد بمقتضى الطريقة الرابعة أنه كلما زاد الاحتكاك ارتفعت درجة حرارة الاجسام المعرضة له ، وكلما قل الاحتكاك انخفضت هذه الدرجة . وكذلك شدة سماع الصوت أو ضعفه مرتبطة بتوفر الكمية اللازمة من الهواء أو تقليل هذه الكمية ، أو أن حجم الغاز والضغط الواقع عليه يتناسبان تناسباً عكسياً .

(هـ) طريقة البواقي Method of residues : تقول هذه الطريقة أنه اذا كان لدينا ظاهرة ما وتحتوي على عناصر متعددة وعرفنا بالطرق السابقة العلاقة العلية بين بعض من هذه العناصر فان ما تبقى من تلك العناصر تكون العلاقة بينها علاقة علة ومعلول . اذا كنا نعرف مثلاً ان a و b و c علل لـ s و v و e وأمكن اثبات أن b علة v ، وأن c علة e فانا نستطيع أن نستنتج أن a علة s . خذ المثال الآتي من علم الكيمياء الذي وصل بفضل هذه الطريقة إلى شيء كان مجهولاً من قبل وهو تركيب الماء من اكسجين وايدروجين وكمية ذرات كل منها لتؤلف ذلك المركب . نأتي ببعض اوكسيد النحاس ونعرف وزنه ، وبعضاً من الايدروجين من أنبوبة ساخنة ، ونمرر اكسيد النحاس على تلك الانبوبة ، أعد أنبوبة اخرى بها بعض من حامض الكبريتيك لتستقبل الماء الناتج من مرور الايدروجين الساخن على اوكسيد النحاس . اذا طرحنا وزن الانبوبة التي بها الماء فارغة من وزنها بما بها من ماء وحامض كبريتيك نصل الى كمية الماء الناتجة يمكننا الوصول الى كمية الاوكسجين في هذا الماء بطرح وزن اوكسيد النحاس الناتج من وزنه الأصلي . واذا طرحنا وزن الاوكسجين من وزن الماء وصلنا الى وزن الايدروجين الذي

وضعناه في الاكسيجين . وبهذه الطريقة وصلنا الى ان مئة جزىء من الماء مثلاً تتألف من ٨٩ و ٨٨ جزىء من الاوكسجين و ١١ و ١١ جزىء من الايدروجين^(١) .

ملاحظات على طرق مل لتحقيق الفروض

(١) تعتمد الطريقتان الرابعة والخامسة على الطرق الثلاثة الأولى ومن ثم اذا كانت تلك الطرق الثلاثة الأولى طرقاً نثق بها اذن فالطريقتان الاخيرتان موثوق بهما ، وإن كان في تلك الطرق الثلاثة الأولى اوجه النقص اذن فالطريقتان الاخيرتان معرضتان لنفس النقص . أما الطريقة الثالثة فليست في الواقع طريقة مستقلة متميزة وانما هي تكرار للطريقة الاولى والثانية معاً . واذن لمناقشة الطريقتين الاولى والثانية شيء أساسي تعتمد عليه قيمة الطرق الأخرى . نزيد على ذلك أنه يمكن رد الطريقة الاولى الى الطريقة الثانية وذلك لان الوقائع لن تكشف لنا بطريق مباشر أن الحادثة ا مثلاً علة الحادثة س . اذا لوحظت عدة وقائع تثبت أن ا علة س فان تلك الملاحظات لا تقوم دليلاً على أن ا علة س ، بل يجب أن نثبت أنه لا يوجد علة للحادثة س غير الحادثة ا . وذلك يستلزم أن نقوم بتجارب سالبة أي نقوم بمنهج الرفض والاستبعاد أو طريقة التلازم في التخلف وهي الطريقة الثانية . وبذا يمكن رد الطريقة الاولى الى الطريقة الثانية وتصبح هذه طريقة اساسية في منهج جون مل في تحقيق الفروض . وحين نصل الى هذا الرد نجد أن ليس لجون مل فضل كبير في طريقه الاستقرائية اي ليست بالطريقة الجديدة التي اكتشفها مل ولم يكتشفها أحد من قبله فقد رأينا من قبل أن فرنسيس بيكون سبقه إليها .

(٢) نلاحظ أن طريقة الاختلاف أو التلازم في التخلف انما هي في جوهرها قياس شرطي منفصل يمكن ان تتخذ هذه الطريقة صورة قياسية على النحو التالي :

(١) المثال مأخوذ من : W.S. Jevons, Elementary Lessons In Logic, p.254

علة س اما ان تكون ا أو ب أو ح ...

لكن علة س ليست ب أو ح ...

... علة س هي ا

زد على ذلك أنه يمكن اثبات المقدمة الصغرى في هذا القياس بأقيسة شرطية متصلة ، فتتخذ الصورة التالية :

إذا كانت ب علة س يجب ان تكون ملازمة لـ س

لكن ب ليست ملازمة لـ س

... ب ليست علة س . ويمكن القيام بأقيسة شرطية متصلة أخرى

لاثبات أن ح أو د ليستا عللاً لـ س .

لستنتج مما سبق أن جون مل في موقف حرج : اما ان يسلم بقوة الاستدلال القياسي وقدرته على احراز التقدم العلمي واما ان ينكر طريقة الاختلاف . لكن سبق لنا الاشارة الى اطاحته بالقياس كله بكل انواعه لعقمه وعدم قيمته للوصول الى نتائج جديدة ليست مثبتة في المقدمات . واذن اما ان يسحب هذا النقد ، وهو لا يستطيع سحبه لأنه اقام الاستقرار على اساس انه يحل محل القياس كمنهج في البرهان ، وإما أن ينكر طريقة الاختلاف وهو لا يستطيع انكارها وإلا تتفوض نظريته في تحقيق الفروض (١) .

(٣) لقد خلت طريقة الاختلاف على النحو الذي قدمه لنا مل موضحاً في الصورة الرمزية من الاشارة الى أن من الممكن ان تكون عدة عوامل أدت الى احداث أثر واحد ، مع أنه اشار من قبل الى ان المعلول قد يكون له أكثر من علة . بمعنى آخر ، لقد رأى مل بحق أن من الممكن رد حادثة واحدة الى عدة علل اشتركت في احداثها ولكن طريقة الاختلاف تتضمن بل تشير بوضوح الى ان لكل معلول علة واحدة ، وهذا خطأ .

(٤) إن جوهر طريقة الاختلاف بوجه خاص والطرق الخمسة بوجه عام

Joseph, An Introduction to Logic, pp. 406 - 7

(١)

هو البحث عن العلل ، ولكننا سنعلم في فصول تالية ان هذه النظرة العلية في معنى القانون العلمي نظرة قاصرة ، سنعلم أن هنالك قوانين علمية لا حصر لها ولها قيستها واصبح الشك لا يتطرق اليها وهي تفسر ظواهر الطبيعة لكنها لا تتضمن العلاقات العلية ولا التفسير العلي . ليس التفسير العلي هو كل التفسير العلمي وليست القوانين العلمية دائماً قوانين الرباط العلي فقط .

(هـ) تضمنت الملاحظة السابقة أن وقائع العلماء جاءت على غير رغبة مل ، أي ليس كل قانون علمي قانوناً عليّاً ، ولكن موقف هيوم – الذي ادعى جون مل أنه تأثر به وأخذ عنه – يقوض بناء مل بأسلحة أقوى من مجرد الاستناد إلى وقائع العلماء : لقد رأى هيوم أولاً أن مبدأ العلية كمبدأ تخضع له كل ظواهر الطبيعة لا يمكن ان يقوم باستقراء ، ورأى ثانياً أنه حتى ان استطعنا بفعل سحر أن نقيم العلية مبدأ يخضع له العالم الطبيعي فلن نستطيع أن نثبت أنه مبدأ كلي ذلك لأن كل ما يتعلق بالعالم الطبيعي يتضمن الاحتمال ولا يتضمن الضرورة أو اليقين أو الكلية . وهذا ينقلنا الى مزيد من تفصيل عن موقف هيوم من الاستقراء التقليدي .

الفصل السادس

هيوم والاستقراء التقليدي

مقدمة

للفيلسوف الاسكتلندي دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) موقف من المنهج الاستقرائي المؤلف في زمانه وهو الاستقراء التقليدي نعتبه بـ بدء تحول في تقويم ذلك المنهج . لقد كتب هيوم في الميتافيزيقا ونظرية المعرفة والأخلاق والدين والتاريخ نظريات ، كان لها أثرها الكبير في توجيه الفلاسفة الذي أتوا بعده، ولا تنظر الفلسفة المعاصرة الى تلك النظريات على ان لها قيمتها التاريخية فحسب ، بل على أنها ثروة حية مليئة بأراء صائبة في جوهرها أحيانا ، وفي جوهرها وتفاصيلها أحيانا أخرى : لا زالت فلسفة هيوم معين دراسة كثير من المعاصرين إما للاهتمام بها أو تعديلها أو تطويرها ، وإت من يعد نفسه للثورة على فلسفة هيوم في كلها وتفاصيلها يشعر أنه أمام عدو ضخم ومحتاج للنصر عليه إلى سلاح نادر .

يهمنا من نظريات هيوم هنا اثنتان فقط : نظريته في العلية ، ونظريته في القضايا العامة التجريبية ، وكان من شأن نظريته الثانية أن نشأ لدينا ما يسمى الآن (مشكلة الاستقراء) . وحين ذكر هيوم نظريته في العلية لم يكن هدفه المباشر مناقشة أحد أسس الاستقراء ، وإنما ناقش تصور العلية كتصور

إستمولوجي ؛ أنكر أن هذا التصور فطري وأن له الضرورة المنطقية التي لا يتصور نقيضها ، وأنه تصور قبلي ؛ وأثبت أن الخبرة الانسانية والتجربة مصدر ذاك التصور ، وأن ليس لتصور العلية صفة الكلية واليقين . فالتقط الفلاسفة وعلماء المناهج من بعد هذا الموقف الهيومني في العلية وراحوا يزعمون موقف جون مل في اعتقاده بالعلية الكلية الضرورية . وحين بدأ فلاسفة العلم المعاصرون يتحدثون عن العلية ، نلاحظ أن كثيراً منهم لم يعد يسأل هل حقاً لكل حادثة علة ؟ وإنما يعلنون أو يضمنون أن جوابهم متسق وهيوم ، ثم يذهبون الى وضع نظرية في العلية توفق بين آراء هيوم ومعطيات العلم الحديث ^(١) . ونجد من العلماء الآن من يرى أن الاعتقاد بمبدأ العلية لا يتفق وما يحدث في العالم الطبيعي وإن كان يستدرك فيقول إن ما يحدث لا يتناقض ومبدأ العلية ^(٢) .

أما نظرية هيوم في القضايا العامة التجريبية فهو يوجهها توجيهاً مباشراً إلى منهج الاستقراء التقليدي ، ويصل من تحليله لتلك القضايا - وهي نتائج استقرائية - إلى أن ليس الاستقراء نوعاً من الاستدلال البرهاني بل ليس نوعاً من الاستدلال الاحتمالي ؛ ومن ثم يشككنا في قيمة الاستقراء .

وقبل أن نفصل قليلاً فيما أوجزناه بشأن هاتين النظريتين ، نود أن نلاحظ أننا لا نؤرخ في هذا الكتاب لنظريات الاستقراء أي لا نعرض لتلك النظريات عرضاً تاريخياً ولا نذكر دعاة الاستقراء أو اعداءه مراعين السبق التاريخي ، وإنما نحاول تتبع فكرة المنهج الاستقرائي وتطوره ، ولا يلزم ان يكون تطور فكرة ما تطوراً تاريخياً بل قد تأتي خطوة من التطور تليها خطوة رجعية . لقد جاء مل بعد هيوم بقرن من الزمن أو يزيد ولكننا نرى أن هيوم اتخذ موقفاً يتضمن خطوة جديدة نحو فهم الاستقراء ، ثم أتى مل وبالرغم

(١) أنظر . B. Russell, Human Knowledge, Allenand Unwin, London, 1946.

(٢) أنظر . W. Heisenberg, The Physicist's Conception of Nature, Hutchinson, London, 1958, p. 34.

من اعلانه أنه تأثر بهيوم غير أنه في موقفه الاستقرائي لم ينتفع بتلك الخطوة بل ارتد الى الوراء وزاد موقف فرنسيس بيبكون شرحاً وأتم ما بدأه . وبذا نعتبر موقف هيوم في الاستقراء اكثر تطوراً من موقف مل منه . والشواهد كثيرة على أن تطور الافكار لا يسير دائماً الى جنب مع زحف التاريخ . لقد مثل علم الطبيعة الديكارتي طريقة البحث في العلوم في العصر الوسيط الى حد كبير بادخاله على هذا العلم فروضاً ميتافيزيقية ، ولقد مثل علم الميكانيكا عند جاليليو خطوة تطويرية بادخاله التصورات الرياضية بالرغم من انه كتب كتبه العلمية قبل أن يكتب ديكارت نظرياته .

موجز نظرية هيوم في العلية

لقد دفع هيوم بالمذاهب التجريبية الانجليزية التي بدأها فرنسيس بيبكون ولوك وبركلي الى قمتها . تابع هيوم لوك في هجومه على نظرية الافكار الفطرية وفي اصراره على أنه يجب أن تكون كل المعرفة الانسانية مشتقة في الخبرة الانسانية ، وتلك ما عبر لوك عنها بأفكار الاحساسات . تابع هيوم بركلي في هجومه على نظرية لوك في الأفكار المجردة وفي قوله ان العالم المادي مستقلاً عن إدراكنا له عالم لا معنى له لدينا ، وتابعه في إنكاره الجوهر المادي الذي نادى به لوك . لم يكتف هيوم بذلك بل سار بالمذهب التجريبي الى ابعد مما سار به التجريبيون من قبله فسارع الى انكار الجوهر الروحي الذي نادى به بركلي وقال ان دعوى وجود الجوهر الروحي كدعوى وجود الجوهر المادي لا اساس له في الخبرة الحسية . وقوض هيوم غير ذلك كثيراً من النظريات الاستمولوجية والميتافيزيقية التي تحمست لها المذاهب العقلية والتي كان ينادي بها بعض الفلاسفة التجريبيين وفي مطلعها تصور هؤلاء واولئك للعية ، مما سنشير اليه بعد قليل . ويمكن تلخيص منهج هيوم الفلسفي بقولنا ان المصدر الوحيد للمعرفة الانسانية هو ما يسميه هيوم الانطباعات الحسية والأفكار . الانطباعات الحسية هي ما ندرك أنا حاصلون عليها بعد مواجهتنا لما نسميه العالم الخارجي وذلك عن طريق الحواس ، والأفكار هي ما ندرك انه يستقر

في عقولنا من تلك الانطباعات بعد غيبة ذلك المصدر الخارجي . إن معيار هيوم الوحيد لامتحان صدق اي فكرة او تصور او نظرية أو كذبتها هو أن يكون مصدر هذه أو تلك انطباعاً حسيّاً أو فكرة . أما التصور أو النظرية الذي لا يصدر عن انطباع أو فكرة فهو تصور لا اساس له ولا يوثق به .

كان يعتبر هيوم العملية تصوراً أساسياً في حياة الرجل العادي وفي نظريات المعرفة عند كثير من الفلاسفة . يعتقد الرجل العادي أن بين النار والاحتراق أو الدفء علاقة علّية ، وكذلك بين تناول الطعام والتغذي أو بين سقوط الثلج والشعور بالبرودة أو تناول السم والموت وما الى ذلك ؛ كان يعتقد الرجل العادي أن لكل حادثة ولكل شيء علة وان العلية مبدأ واجب التسليم وانه ليس موضوعاً للشك وانه يترتب على الشك فيه اضطراب سلوكه في حياته العملية - يضطرب سلوكه لو وجد الشمس في الصباح ولم ير الضوء والنهار ، أو وجد النار بجانب مواد قابلة للاحتراق ولم تحترق ، أو وجد الثلج يتساقط ولم يشعر بالبرودة وهكذا . ومن الواضح أن مبدأ العلية مبدأ أساسي في فلسفات افلاطون وارسطو والمدرسين : كانوا يتساءلون ما علة وجود العالم المادي ، وما علة الحركة والتغير وما علة الحياة في الكائن الحي ونحو ذلك . ونجد ديكارت يقول لنا لا أن مبدأ العلية فكرة فطرية موجودة فينا منذ نشأنا بل انه اساس كل الافكار الفطرية فمثلاً حين يقول ان لدينا فكرة عن كائن كامل لا متناه ، أو أني أحس أني لم أوجد نفسي واذن فأنا مخلوق ، يتساءل على الفور وما علة هذه الفكرة أو ما الذي اوجدني وهكذا . اصف الى ذلك ، النظرية التي سادت منذ أيام ارسطو حتى العصر الحديث عن طبيعة العلم والقانون هي أنه البحث عن العلل واكتشافها . كان يعتقد كثير من الفلاسفة وخاصة منهم العقليون أن العلية مبدأ قائم في العقل ، وأنه مبدأ ضروري ، وأنه لا يمكن إنكاره أو تصور نقيضه ، وأنه مبدأ فطري فينا منذ نشأنا ، أو ان لدينا استعداداً طبيعياً للاعتقاد به حين تنشأ في الخبرة ما يكشف عنه : هو فينا مستقلاً عن الخبرة الحسية وان لم نحس به الا بعد مواجهة تلك الخبرة

وبهذا المعنى يسمى مبدأ العلية مبدأ قبلياً . كان يتصور الفلاسفة قبل هيوم على اختلافهم ان مبدأ العلية مبدأ فطري أو مبدأ قبلي أو هو قاعدة للتفكير يقترب في مكانته من مكانة قوانين الفكر الثلاثة الارسطية ، وانه مستقل عن الخبرة وليس مشتقاً منها .

جاء هيوم لا ليقوض تصوراً أساسياً متضمناً في معتقدات الرجل العادي ؛ إن هيوم لم ينكر أن لكل حادثة علة ؛ إنه جاء ليقوض النظريات العقلية في مصدر اعتقادنا بمبدأ العلية . لم ينكر هيوم العلية وانما انكر أن تفسير الفلاسفة العقلين له هو التفسير الصحيح .

يقول هيوم ان تصور العلية تصور معقد وليس بسيطاً ، اذ يتضمن ثلاثة افكار وهي السبق والجوار المكاني والضرورة . ولم يثر السبق والجوار مشكلة لدى هيوم اذ يقول انه لا توجد صعوبة في فهمها ، ولكنه رأى ان فكرة الضرورة في العلاقة العلية فكرة تستلزم التحليل . لقد زعم الفلاسفة العقليون أن علاقة العلية تتضمن فكرة الضرورة وكان يقصدون أنه اذا حدثت العلة يجب أن يتبعها حدوث المعلول ، وكان الوجوب عندهم وجوب منطقي أي ما لا يمكن انكاره ، لأنها ضرورة آتية من العقل بطريق فطري أو قبلي . وتلك أول نقطة ينكرها هيوم . يعلمنا هيوم أنه لا يمكننا القول بأن للعلية الضرورة العقلية أو القبلية أو المنطقية ؛ يعلمنا هيوم أنه لا يمكننا القول بأن مجرد تحليل العلة يتضمن وجود المعلول كأحد عناصرها ، أو ان تحليل المعلول يتضمن علته . يرى هيوم اننا لا نستطيع ان نكتشف بطريق قبلي علة الدفء أي ان تحليل معنى الدفء لا يتضمن في ذاته عنصر النار أو حرارة الشمس ، وتحليل معنى النار لا يتضمن عنصر الدفء . تحليل معنى النار يتضمن معرفة للعناصر الطبيعية والكيمائية التي ادت إلى احداث النار ، ولكن ليس الدفء احد تلك العناصر . تحليل معنى الخبز يتضمن ما يتألف منه من عناصر مثل القمح أو الذرة مطحونة مضافاً إليها الماء ولهب النار وليس التغذية أو سد الجوع أحد تلك العناصر . يمكنك تصور النار دون تصور الاحتراق أو الدفء أو تصور

الحيز دون تصور التغذية . التصوران مختلفان وليس الواحد منهما داخلا في تحليل الآخر . ليست للعلاقة العلية ضرورة المنطقية التي لعلاقة التعريف بالمعرف مثلا أو للبديهيات كقولنا ان المثلث شكل محاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة او ان الجزء اصغر من الكل أو أن نزول المطر يبلل الطرق ، ان تحليل الموضوع في كل من تلك العبارات يؤدي الى ان المحمول يساويه أو هو جزء منه ، بحيث يترتب على انكارنا لتلك القضايا وقوع في التناقض أو أن تصور نقيض تلك القضايا تصور مستحيل لدى العقل . إن خلاصة هذه الفكرة أن القول بأن لكل حادثة علة ليست قضية تحليلية .

ينتقل هيوم إلى مناقشة أن لمبدأ العلية مصدره التجريبي . يطبق معياره الاساسي لصدق الأفكار فيتساءل هل بين افكارنا فكرة الضرورة ؟ يجيب بالنفي . حين ننظر الى الاشياء والحوادث في العالم الخارجي تلك التي نقول ان بينها علاقات عليّة ، فإنا لا نكتشف اي علاقة ضرورية تربط المعلول بالعلة وتجعل المعلول نتيجة لا مناص منها بعد حدوث العلة . ان ما نراه في الحقيقة هو أن شيئين أو حادثتين تتابعتا في الحدوث أمام ادراكنا . يحدث لي انطباع حسي حين أرى الشمس في الصباح ثم يتبعه انطباع رؤية الضوء . ما حدث انما هو تتابع أو تلازم بين انطباعين .

فاذا انتقلنا من مجال ملاحظة الحوادث الطبيعية الى مجال الملاحظة الذاتية لانفسنا ، يتساءل هيوم هل نعثر على انطباع حسي أو فكرة اسمه الضرورة ؟ قد يقال اننا نشعر في داخلنا بقوة خفية هي ارادتنا مثلما يحدث حين اريد تحريك عضو ما في جسمي ثم يليه تحريك ذلك العضو - أليست العلاقة بين الارادة والحركة علاقة عليّة ؟ يرد هيوم على هذا السؤال بقوله إننا لا نعرف معرفة دقيقة كيف يتم الفعل الارادي ، ولا نعرف ماذا يتم في انفسنا قبل أن يتحرك العضو المراد تحريكه ، ولا نعرف حقيقة العلاقة بين الفعل الارادي والحركة العضوية . ان معرفة تلك العلاقة انما هي معرفة العلاقة بين العقل والبدن ، وذلك هو السر الاعظم . لا ينكر هيوم علاقة العلية بين

الأرادة وحركة الاعضاء ولكنه ينكر ان تلك العلاقة تتضمن معنى الضرورة بالمعنى التحليلي . كل ما نعرفه عن تلك العلاقة هو ارتباط حادثتين معاً .

ينتقل هيوم من ذلك الى القول بان ليس مصدر تصور العلية أساساً فطرياً أو قبلياً ، وانما أساس تجريبي ، وتجريبي بمعنى محدد هو ادراك تتابع حادثتين وتلازمها تلازماً متكرراً ، وأن ادراك هذا التلازم المتكرر يؤدي بمقولنا الى تكوين « عادة » عن هذا الارتباط لدرجة اننا حين نرى الحادثة ا في المستقبل نتوقع حدوث الحادثة ب التي ارتبط حدوثها في في ارداكننا الماضي بحدوث ا . تصور العلية اذن تصور ضروري ، ولكن ليست الضرورة منطقية ولا قبلية وانما هي ضرورة نفسية أساسها ادراك تلازم زوج من الحوادث وارتباط ذلك التلازم في الذهن وتكوين عادة عن توقع ذلك التلازم في المستقبل . تلك الضرورة بالتوقع وتكوين العادة تؤدي الى الاعتقاد بتصور العلية .

لم يربط هيوم نظريته في العلية بمناقشته للمنهج الاستقرائي ، وانما كان هدفه من نظريته أن ينكر تفسيراً شائعاً ويقترح تفسيراً جديداً . ونريد ان نشير الى مدى اتفاق چون ستوارت مل مع هيوم أو اختلافه عنه فيما يختص بالعلية . لقد نادى كلاهما بأن تصور العلية ليس فطرياً ولا قبلياً ولا مستقلاً عن الخبرة الحسية ، ولا شك أن چون مل أخذ هذه النقطة من هيوم ، ولقد تأثر مل بهيوم كذلك في قول الأول بأن الخبرة الحسية هي مصدرنا الوحيد لذلك التصور .

ولكننا نجد أن هيوم لا يقبل قول مل ان تصور العلية يعبر عن قانون وقانون كلي وانه أسس على استقراء . ليس تصور العلية عند هيوم معبراً عن قانون وانما هو اعتقاد وقد اعطى تبريراً لهذا الاعتقاد ، ولا يقوم أي قانون على اعتقاد ، وانما يقوم على استدلال استقرائي . ولكي تكون العلية قانوناً بهذا المعنى لا بد وأن يسلم هيوم مبدأ اطراد الحوادث وهو ما ينكره كما سنقول في الفقرة التالية . ويتبع عن ذلك أن ينكر هيوم ان العلية قانون

كلي لأن السكينة تتضمن اعتقادنا ان حوادث المستقبل سوف تكون على غرار الحاضر والماضي . زد على ذلك أن تحليل الضرورة في العلاقة العلية عند هيوم يرد الى أساس نفسي في طبيعة ادراك تلك العلاقة ، والادراك جزئي ، ولا يمكن القول ان قضية ادراكية حسية قضية كلية . وإن قيل ان من الممكن ان تصبح هذه القضية الادراكية كلية بالتعميم فان ذلك يستلزم المصادرة على مبدأ اطراد الحوادث ، وهو ما سينكره هيوم كما قلنا . اصف الى ما سبق أن هيوم فكرة اساسية تجاهلها مل هي ان كل ما هو تجريبي او مرتبط بوقائع العالم الطبيعي يمكن تصور نقيضه وان ما يحدث في ذلك العالم انما هو ممكن ولا يمكن ان نضيف اليه الضرورة بالمعنى المنطقي . والضرورة ضرورة منطقية يستبعد الاستثناء أي ان القضية التي نقول انها ضرورية بهذا المعنى لا تتضمن امكان وجود حالات تعتبر استثناء لها . وحيث ان ما يحدث في العالم الطبيعي ممكن ، والامكان يتضمن الاستثناء . وحيث ان مبدأ العلية مبدأ تجريبي اذن فهو مبدأ ممكن ويمكن تصور نقيضه ويحتمل الاستثناء . لن يكون اذن قانوناً كلياً .

خلاصة موقف هيوم من نظرية مل في العلية أن الغلبة مبدأ نعتقد به وان مصدره الخبرة الانسانية ولكنه لا يقوم باستقراء وليس قانوناً ومن ثم ليس قانوناً كلياً .

مشكلة الاستقراء

مشكلة الاستقراء عبارة مألوفة تجدها في الكتب التي تتناول المنهج الاستقرائي وتقويمه في أيامنا هذه ، وتدور هذه المشكلة حول أحد أسس الاستقراء المسمى بمبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة أي افتراض أن المستقبل سوف يشبه الحاضر والماضي اذا اتفقت نفس الظروف المحيطة بظاهرة ما في المستقبل مع تلك الظروف المحيطة بحدوثها في الحاضر والماضي . تدور المشكلة بمعنى آخر حول تحليل هذا الافتراض ، ما اذا كان يمكننا الاعتماد عليه أو ينبغي رفضه .

ولكن نفهم مشكلة الاستقراء بهذا المعنى يحسن الإشارة إلى صورة الاستدلال الاستقرائي أولاً . يتلخص الاستدلال الاستقرائي في الانتقال من قضايا جزئية تشير إلى وقائع أو ظاهرات أو حوادث موضوع ملاحظتنا أو تجربتنا ونعتبرها مقدمات ، إلى قضية عامة تتضمن تلك الوقائع أو الظاهرات أو الحوادث وامثالها مما قد يحدث في المستقبل ونعتبرها نتيجة . يتلخص الاستدلال الاستقرائي بمعنى آخر في الانتقال من مقدمات تنطوي على الحكم «كل الحالات الجزئية التي تعبر عن ظاهرة ما والتي كانت موضوع ملاحظتنا أو تجربتنا تتصف بكذا وكذا من الخواص أو الصفات أو المميزات» إلى نتيجة تنطوي على الحكم «كل الحالات الجزئية التي تعبر عن تلك الظاهرة تتصف بهذه الخواص أو الصفات أو المميزات» . ويتخذ هذا الاستدلال الصورة (كل الملاحظة هي ب . ب . ٠٠ كل ا هي ب) ومن الواضح ان النتيجة تفترض مبدأ اطراد الحوادث أي انها تتضمن الحكم على الامثلة الجزئية التي يمكن ان تحدث في المستقبل ولا تتضمن فقط الحكم على الامثلة الجزئية المشاهدة ، المتعلقة بظاهرة ما .

ويمكن الإشارة إلى المشكلة القائمة في الاستدلال على النحو التالي . إننا نستدل في الاستقراء من الجزء على الكل ، لأن مقدماتنا تشير إلى وقائع كانت موضوع خبرة فعلية أما النتيجة فانها تشير إلى ما سوف يحدث مما لم يقع تحت خبرتنا بعد . والحكم على هذه النتيجة بالصحة الكلية لأن الحكم على المقدمات الجزئية المندرجة تحت هذه النتيجة الكلية حكم صحيح - حكم فاسد من الناحية الصورية . صدق القضية الجزئية لا يستلزم صدق القضية الكلية المتداخلة معها . نقول ان هذه القضية الكلية غير معروفة أي قد تصدق مثل الجزئية المتداخلة معها وقد تكذب . قد يكون الحكم العام الذي يتضمن وقائع مستقبله صادقاً ولكننا من الناحية الصورية لسنا على يقين الآن من ذلك الصدق . إننا نعتقد بصدق كثير من القضايا العامة التجريبية مثل النار تحرق ، تتمدد المعادن بالحرارة ، الزرنيخ سام ونحو ذلك - تلك نتائج عامة استقرائية وصلنا إليها بعد ملاحظات عديدة

حاضرة وماضية تثبت صدقها، ونميل الى تصديقها في حالات مستقبلية، ولكننا في الآونة الحاضرة لسنا على يقين من أن تلك القضايا سوف تكون صادقة في المستقبل . فقد يأتي في المستقبل حالات تغيب عنا الآن وتشككنا في هذا الصدق . كنا نعتقد مثلاً الى اوائل القرن الحالي أن نظرية الجاذبية بالصورة التي نادى بها اسحق نيوتن صادقة على كل ما يجري في الكون ، ولكن قد اجريت تجارب اسفرت عن نتائج كان يجهلها نيوتن أدت الى تعديل هذه النظرية بالصورة التي تنادى بها الآن نظرية النسبية : ترى هذه النظرية الاخيرة أن نظرية نيوتن صادقة فقط في مجال ارضنا والكواكب التي تؤلف المجموعة الشمسية ولكنها لا تصدق على ما يجري خارج المجموعة الشمسية . إن خلاصة مشكلة الاستقراء هي أن ما يصدق على الجزء لا يصدق على الكل وأساس التشكك هو تصور حدوث حالة واحدة في المستقبل تتنافر ونتيجتنا العامة الاستقرائية التي وصلنا اليها في الحاضر . ولا يمكننا ان نقرر الآن بان مثل تلك الحالة السالبة سوف لا تحدث .

يعتبر دافيد هيوم أول من أرشدنا إلى مشكلة الاستقراء ، ويمكن وضع المشكلة كما تصورها على النحو التالي. يميز هيوم تمييزاً حاسماً بين القضايا المنطقية والرياضية من جهة وقضايا الواقع من جهة اخرى . إن القضايا : الجزء اصغر من الكل ، ما يصدق على الكل يصدق على الجزء المتداخل معه ، المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية مساو لمجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ، العدد خمسة مضروباً في العدد ثلاثة مساو لنصف العدد ثلاثين - إن هذه القضايا وأشباهاها صادقة صدقاً مطلقاً ولا يتوقف صدقها على اي تحقيق تجريبي : لا يتوقف صدق تلك القضايا على وجود شيء مادي جزئي ينقسم الى اجزاء أو على وجود شيء في العالم على هيئة مثلث أو مربع أو على وجود مجموعة من البرتقال أو الليمون يضاف بعضها الى بعض أو يعزل بعضها عن بعض . إن معيار هيوم لصدق القضايا الرياضية والمنطقية صدقاً مطلقاً لا استثناء فيه هو أن نقيضها مستحيل أو أنه لا يتصور نقائص تلك القضايا. فاذا بدأنا بتعريف

الجزء والكل أو التداخل بين القضايا أو المثلث والمربع أو العدد والمساواة والضرب والطرح والاضافة فأننا نجد ان القضايا السابقة تلزم لزوماً ضرورياً عن تلك الطائفة من التعريفات ولا يمكن تكذيبها . القول بأن القضية المنطقية أو الرياضية ضرورية هو القول بأنها مستنبطة استنباطاً صحيحاً من مقدماتها^(١).

القضايا التي تعبر عن العالم الواقع - وكل قضايا العلم والتعميمات الاستقرائية من هذا النوع من القضايا - قضايا تجريبية ، ويتوقف صدقها لا على عملية استنباطية صورية وإنما على تحقيق تجريبي لها . ومعيار هيوم لتمييز القضية التجريبية من النوع السابق ذكره من القضايا هو أنه يمكننا تصور نقيضها أي أن نقيضها ليس مستحيلاً أو أن صدقها وعدم صدقها يستويان في الإمكان . ويضرب لنا هيوم مثاله المشهور « الشمس سوف تشرق غداً » - هذه قضية تجريبية ، يمكن انكارها دون وقوع في التناقض : ان القضية « الشمس سوف لا تشرق في الغد » ليست اقل قبولاً لدى العقل من اثبات ان الشمس سوف تشرق غداً . من العبث أن نبرهن على أن احتمال عدم الشروق ينطوي على قضية كاذبة . نعم ، نميل الى الاعتقاد أنها سوف تشرق غداً ، لاسباب تتعلق بتكرار الشروق وعدم امتناعها عن الشروق آلاف وآلاف من السنين وتكون عادة عقلية بتوقع الشروق في الغد قياساً على الماضي . ولكن ليس في احتمال عدم الشروق إهدار لقوانين الفكر - الشمس قد لا تشرق غداً لا تتضمن تناقض العقل مع ذاته .

بعد أن وضع هيوم التمييز بين النوعين من القضايا - التجريبية والرياضية والمنطقية - تساءل ما يبرر اعتقادنا بأن القضايا العامة المتعلقة بأمور الوقائع صادقة ؟ وأجاب انه لا دليل يبرر هذا الاعتقاد . لا يريد هيوم أن ينكر علينا اعتقادنا بأن نتوقع المستقبل شبيهاً بالحاضر والماضي ولا ينكر ان لدينا هذا الاعتقاد ولا ينكر علينا ان متمسك به ولكنه كان يسأل بأي حق متمسك

(١) قد نجد مزيداً من شرح لطبيعة ذلك النوع من القضايا في فقرة القضايا القبلية من الفصل الأخير .

بهذا الاعتقاد أو ما التبرير المنطقي لهذا الاعتقاد ؟ إن موقف هيوم من مبدأ
اطراد الحوادث الذي يعتمد عليه الاستدلال الاستقرائي هو انه لا يمكننا
تقديم برهان قبلي عليه ، اذ لا نعرف كيف تكون مقدمات ذلك البرهان ،
ولا يمكننا اثبات المبدأ بالخبرة الحسية اذ ان اي محاولة للاثبات هي بمثابة
وقوع في الدور أي تسلّم بما تريد اثباته . وسنزيد هذه النقطة الاخيرة ايضاحاً
فيما يلي^(١) .

كلنا يعتقد ان الشمس قد تشرق غداً ، فاذا تساءلنا وما علة هذا الاعتقاد؟
كان أول جواب أن الشمس كانت ولا تزال تشرق كل يوم من الماضي . هذا
جواب يقنع به الرجل العادي ويقنع الفيلسوف في حياته العملية خوفاً من أن
يجد نفسه في الغد وبعد الغد في ظلام مقيم فتضطرب برأيه ومواعيده كما
تضطرب حياة غيره من الناس . لكن هذا الجواب لا يقنع نفس الفيلسوف
حين يريد اساساً وبرهاناً على هذا الاعتقاد . قد نجيب بجواب آخر : ان
اعتقادنا بشروق الشمس مستمد من اعتقادنا باستمرار قوانين الحركة . الارض
جسم متحرك ، ولن نتوقف عن الحركة ما لم يتدخل جسم آخر يمنعها من
حركتها ، وليس هنالك مثل هذا الجسم بين اليوم والغد : قد تقول ومن
ادراك أن هذا الجسم غير موجود؟ ستأتي الاجابة عن هذا السؤال بعد قليل ، ولكننا
على أي حال نعتقد الآن أن قوانين الحركة مستمرة حتى الغد . ولكن اعتقادنا
هذا واعتقادنا بأي قوانين اخرى يعود بنا الى السؤال الأساسي الذي نريد
الاجابة عنه ، وهو : نحن واثقون من أن قوانين الحركة استمرت في الماضي
ومستمرة في الآونة الحاضرة ولكننا اذا قلنا الآن اننا على يقين من انها سوف
تستمر في المستقبل فنحن حينئذ نفترض مبدأ اطراد الحوادث — نحن حينئذ
نفترض أن الشمس سوف تشرق غداً قياساً على دوام اشراقها في الزمن الماضي .
ومن ثم لا نستطيع اثبات مبدأ اطراد الحوادث دون وقوع في الدور . لا

(١) ما يلي من فقرات حتى آخر الفصل مزيد من تفصيل لتوضيح موقف هيوم من مشكلة
الاستقراء ما لم يرد في كتابات هيوم نفسه .

دليل نستطيع ان نقدمه الآن على أن شروق الشمس في الغد أمر حتمي^(١) .
ان عدم استطاعتنا تقديم دليل برهاني على مبدأ اطراد الحوادث من الخبرة
الحاضرة يعنى فقط ان المبدأ لا اساس له او القضية التي تتضمنه ليست قضية
كلية الصدق ، ولكنه لا يعنى ان اعتقادنا بهذا المبدأ لا اساس له . الاعتقاد
به راسخ ولكن القضية التي تتضمنه ليست قضية يقينية . ولم يكن يهدف
هيوم من مناقشته لمشكلة الاستقرار ان يتحدث عن الاعتقاد وانما الصدق الكلى
للقضية التجريبية . يجب ان نميز بمعنى آخر بين اعتقاد نثق به ، وقضية
نحكم عليها باليقين . إننا نحس ونشعر شعورا اكيدا بان الشمس سوف تشرق
غدا صادقة : لدينا غريزة تدفعنا الى الانتقال من ملاحظة تكرار حدوث
ظاهرة ما في الماضي والحاضر الى توقع حدوثها في المستقبل ، ولكن ذلك
الاعتقاد الراسخ الصادق لا يقوم دليلا على ان القضية صادقة من الناحية
الصورية : اي نتيجة استدلال .

لقد حاول بعض فلاسفة العلم المعاصرين ان يزيلوا مشكلة الاستقرار بقولهم
انهم لا يبحثون في النتيجة العامة الاستقرائية عن صحتها الصورية وصدقها
المطلق وانما عن قيمتها . أي يبحثون فقط فيما اذا كانت تؤيدها الوقائع في
المستقبل ، وان تلك النتيجة موضوع للتحقيق التجريبي فان تحققت كانت
صادقة وإلا تحولنا الى فرض آخر لنصل الى نتيجة عامة اخرى . ولكن هذا
الموقف لا يزيل مشكلة الاستقرار بل يثبتها لأن الهدف من تحقيق فرض ما
او نتيجة عامة هو معرفة ما اذا كانت الوقائع المستقبلية تؤيدها ، ولكن اذا
رفضناها لأن الوقائع لا تؤيدها فأننا رفضناها لاننا نفترض صحة مبدأ
اطراد الحوادث . وعدنا الى حيث كنا .

الخلاصة : لا يمكننا اثبات مبدأ اطراد الحوادث اثباتا تجريبيا من الخبرات
الماضية والحاضرة ، لأن الوسيلة الوحيدة لاثباته هو ان ننتظر المستقبل لتؤيده
الوقائع ، ولكن في هذا الانتظار نفترض ما نريد إثباته .

(1) B - Russell, The Problems of Philosophy, Oxford University
Press, London, 1st. ed. 1912,

لقد فرغنا الآن من انه لا يمكن اثبات مبدا الاطراد بيقين ، ولكن هل يمكن القول بان المبدأ محتمل الصدق، وبذا نستطيع القول بان صدق النتيجة الاستقرائية العامة أي القانون العام صدق احتمالي ؟ يجيب هيسوم على هذا السؤال بقوله انه لا يمكننا اثبات الاحتمال لصدق المبدأ او النتائج الاستقرائية دون وقوع في الدور . قد نقول من المحتمل ان تشرق الشمس غدا على اساس اننا نميل الى ان يكون المستقبل شبيها بالماضي ، ولكن هذه القضية تتضمن السؤال الذي نريد جوابه . لكي نجد طريقة لمعرفة ما اذا كان الفرض محتملا، فانه لا توجد طريقة غير ان المستقبل يؤيده ، وهذا ما نريد اثباته من البداية (١) .

(١) A. J. Ayer, the Problem of Knowledge, Macmillan, London, 1956, p. 72.

الفصل السابع

الاستقراء والاحتمال

يصور الفصل السابق اولى الخطوات في الثورة على الاستقراء التقليدي وذلك بالثورة على ما قيل انها اسس ذلك الاستقراء ، نعني العلية واطراد الحوادث في الطبيعة ، وكان الثائر الاول هو دافيد هيوم . يمكن القول بان تصور الاحتمال وتأثيره في فهم المنهج الاستقرائي وتقويمه يعبر عن خطوة ثانية في الثورة على الاستقراء التقليدي . وقد اشار هيوم الى هذه الخطوة الثانية اشارة عابرة حين انكر اليقين على النتيجة الاستقرائية او القضية التجريبية العامة ، وحين اعلن ان وصف تلك النتيجة العامة بالاحتمال امر يصادر على المطلوب وليس له ما يبرره سواء عن طريق استدلال برهاني محكم او استدلال من الخبرة الحسية الحاضرة . ولكن ترك للقرن التاسع عشر ان يفهم تصور الاحتمال فهما ادق ، وان يبحث المنهج الاستقرائي من جديد على ضوء ذاك التصور للاحتمال . ويهنا في هذا الفصل ان نشير الى الصلة بين الاحتمال والاستقراء ، ولكن يلزم ان نقدم لذلك بمقدمة موجزة عن تصور الاحتمال . في الاحتمال نظريات متعددة ، بل انواع متعددة من النظريات ، يندرج تحت كل نوع عدة نظريات قد تختلف فيما بينها .

معاني الاحتمال

لا بأس من الإشارة أولاً الى ان لكلمة « احتمال » معان متعددة ، لكنها رغم تعددها محددة . سنشير الى ثلاثة من تلك المعاني فيما يلي :

١ - المعنى الذي ينطوي عليه استخدامنا للكلمة في حياتنا اليومية ، ونوضح ذلك المعنى بأمثلة . قارن بين العبارتين « ساحضر الى منزلك » (متحدثاً الى صديق) و « من المحتمل ان احضر غداً الى منزلك » . اذا قلت العبارة الاولى فقد الزمت نفسي امام محدثي بضرورة الحضور اليه ، وقررت فيما بيني وبين نفسي اني وعدته بالذهاب دون ان اشترط في هذا القرار والوفاء بالوعد توفر شروط معينة ، اي ليس ذهابي اليه متوقفاً على ظروف ان تحققت ذهبت وان لم تتحقق فلن اذهب : ان القرار ملزم ومطلق . ومن ثم فان تلك العبارة تتضمن من جانب محدثي انه سينتظرنى ويتوقع حضوري اليه وقد يعد العدة لاستقبالي بطريقة او باخرى ، وتتضمن العبارة ايضاً اني ملام اذا لم أف بوعدي . تلك المعاني المتضمنة في القائي العبارة الاولى ليست متضمنة في القائي العبارة الثانية « من المحتمل ان احضر غداً » : لا تتضمن الزاماً ولا تنطوي على وعد وليست قراراً مطلقاً وانما يتوقف تنفيذ القرار على تحقيق شروط معينة هي في ذهني حين استخدمت كلمة « من المحتمل » ، ولا تتضمن العبارة الثانية توقعاً من صديقي ، ولن اكون موضوع لوم اذا لم اذهب لزيارته . واذا لم اذهب اليه لحدوث ما توقعت من ظروف قد تمنعني من الذهاب او حدوث ظروف لم تكن في توقعي فان العبارة الثانية لن تنطوي على قضية كاذبة . هذا هو المعنى الذي ينطوي عليه استخدامنا للاحتمال في الحياة اليومية ويمكن التعبير عنه بقولنا أن مضمون القضية الاحتمالية ونقيضه ممكن.

٢ - المعنى المتضمن في نظريات الاحتمال الرياضية . وقد بدأ تصور الاحتمال ليؤلف نظرية معينة - من الناحية التاريخية - في مجال علم الرياضيات البحتة . والمعنى المتضمن في تلك النظريات هو أن القضية الاحتمالية ليست قضية يقينية كما انها ليست قضية مستحيلة وانما تقف بين اليقين والاستحالة . نرسم لليقين

بالواحد الصحيح والاستحالة بالصففر ونرمز للاحتمال باي كسر من الكسور الواقعة بين الواحد والصففر . ولكن الاحتمال على هذا النحو تصور غامض ليس فيه تحديد انه يقول لنا فقط ان هنالك اسبابا تدعو لحدوث كذا أقوى من الاسباب الذي تدعو لعدم حدوثه . ولكنا نريد الدقة - نريد حساب درجة الاحتمال . يتضمن تصور الاحتمال في صورته الرياضية بمعنى آخر أن الكسر الواقع بين الواحد والصففر ينبغي أن يمكن قياسه قياسا عدديا . حين نقول إن من المحتمل أن تكون ا هي ب ، فان نظريات الاحتمال الرياضية تقرر وجوب معرفة درجة الاحتمال على وجه التحديد - لا نكتفي بالقول بان ا هي ب ، ليست يقينية وليست مستحيلة وانما هي ممكنة بمعنى ان كلا صدقها أو كذبا ممكن - لا تكتفي نظريات الاحتمال بهذا التصور للاحتمال وانما نريد أن نحدد درجة الاحتمال تحديدا رياضيا . نعبر عن هذا التصور الرياضي للاحتمال بالصورة $C(1 و ب) = > C$ أي درجة احتمال أن الظاهرة ا مرتبطة بكذا وكذا من الخصائص أو الصفات (ب) هي C . وبهذا المعنى نقول ان درجة احتمال حادثة ما اكبر أو اقل بمقارنة عدد الحالات التي تحدث فيها تلك الحادثة بعدد الحالات التي تحدث فيها وعدد الحالات التي لا تحدث فيها . فاذا دلنا الاحصاء لدى الاطباء أن الرجل الذي بأحد أعضائه جرح وعولج بجرعة من البنسلين التأم ذلك الجرح ووجد أن من بين كل عشرة من هؤلاء الرجال شفى تسعة ، نقول ان درجة احتمال شفاء الرجل المجرع والمعالج بهذا الدواء هي $\frac{9}{10}$ (١)

خذ المثال الآتي المتعلق بلعبة الطاولة وقذف الزهر واحتمال معرفة رقم الزهر مقدما :

١ - ما احتمال أن تكون زهرة اللعب بالرقم ٦ إلى أعلا اذا رميتها ؟
واضح أن هنالك ستة وجوه للزهرة ، وعلى كل وجه رقم مخالف للأرقام

B. Russell, Human Knowledge, p. 359.

(١) أنظر :

W. Kneale, Probability and Induction, pp. 116 - 119.

على الوجوه الأخرى وقد تستقر الزهرة عند أي وجه من وجوها الستة
واذن فالاحتمال المأمول هو $\frac{1}{6}$

ب - ما احتمال ألا يكون الرقم ٦ إلى أعلا ؟ : الاحتمال هو $\frac{5}{6}$.

ج - احتمال الرقم ٦ الى اعلا في الزهرتين معاً هو $\frac{1}{36}$ لأن لدينا ٣٦
احتمالاً ممكنًا .

د - احتمال ألا يكون الرقم ٦ الى اعلا في الزهرتين معاً هو $\frac{35}{36}$ لأن
احتمال عدم وجود الرقم ٦ الى اعلا في كل زهرة هو $\frac{5}{6}$.

هـ - احتمال ان يكون الرقم ٦ الى اعلا في زهرة واحدة اذا رميت
الزهرتين معاً هو $\frac{10}{36}$.

إذا رمزنا الى الزهرتين حين يكون الرقم ٦ الى اعلا بالرمزين s_1, s_2 وإلى
الزهرتين حين لا يكون الرقم ٦ الى اعلا بالرمزين v_1, v_2 . فان احتمال s_1 هو
 $\frac{1}{6}$ واحتمال s_2 هو $\frac{1}{6}$. اذن احتمال s_1, s_2 هو $\frac{1}{6} \times \frac{1}{6}$ ، واحتمال
 s_1, v_2 هو $\frac{1}{6} \times \frac{1}{6}$ اذن احتمال s_1, v_1 ، v_1, v_2 واحتمال v_1, s_2 ، v_2, s_1 =
 $\frac{10}{36} = \frac{5}{18} = \left(\frac{1}{6} \times \frac{1}{6}\right) + \left(\frac{1}{6} \times \frac{1}{6}\right)$ (١)

٣ - معنى الاحتمال هو درجة عالية من التصديق . أخذ الأمثلة الآتية :
من المحتمل ان تمطر السماء غداً ، من المحتمل ان تشرق الشمس غداً ،
احتمال صدق نظرية اينشتين في الجاذبية اكثر من احتمال صدق نظرية نيوتن .
فيها ، النظرية الذرية المعاصرة احتمالية ويزداد الاحتمال كلما وصل علماء
الذرة الى مزيد من الوقائع تتفق مع ما لدينا من نتائج ، وسائر القوانين العلمية

(١) S. Stebbing, A Modern Introduction to Logic, Methuen,
London, 7 th ed., reprinted 1958, p. 365 .

والقضايا التجريبية العامة . إن معنى الاحتمال في القضايا السابقة هو أننا لا نصفها باليقين المطلق لأن ذلك الوصف يستلزم الحكم باليقين على الامثلة التي تندرج تحت هذه القضية أو تلك في المستقبل وقد قلنا فيما سبق السبب الذي من أجله نمتنع عن الحكم باليقين الآن على وقائع لم تحدث بعد ، وهو افتراض مبدأ ليس بديهيًا وليس مشتقًا مما هو بديهي . نقول إن هذه القضية أو تلك احتمالية بمعنى أن لدينا درجة عالية من الاعتقاد بصحتها في المستقبل وإن كانت لا ترتفع تلك الدرجة إلى اليقين .

مدخل إلى نظريات حساب الاحتمال

نظريات الاحتمال في مجال الرياضة فرع من الرياضة البحتة ، وتفصيل تلك النظريات في ذلك المجال يخرج عن موضوعنا ، ولكن الإشارة العابرة لتلك النظريات تزيدنا فهمًا لمعنى الاحتمال وصلة الاستقراء بالاحتمال . لقد نشأت نظريات الاحتمال الرياضية عن تصور « الصدفة » وظهور ما يسمى « حساب الصدفة » Calculus of chances . نشأ هذا الحساب في منتصف القرن السابع عشر على أيدي پاسكال Pascal فهو أول من ساهم في حساب الصدفة حين انشغل بسؤال بعث به إليه أحد لاعبي الطاولة يسأله عن تحديد احتمال الحصول على زهرة واحدة على الأقل وجهها عليه الرقم ٦ وبعث پاسكال بالجواب الصحيح . ومن ثم نلاحظ أن تحديد احتمال ظهور مختلف الأرقام إلى أعلا على زهرة اللعب الذي سقناه من قبل مثل نموذجي لتوضيح حساب الاحتمالات لأنه أول الامثلة من الناحية التاريخية . ثم تناولت أبحاث العلماء الرياضيين في حساب الصدفة من بعد پاسكال - الذي سنشير إلى أسمائهم بعد قليل .

وتحدد معنى الصدفة في تلك الأبحاث على أنه مبان لمعاني اليقين والاستحالة. نقول عن القضية «الحمرة تستلزم الامتداد» ، أنها قضية ضرورية بمعنى أنه لا يتصور اللون إلا مقرونا بالامتداد : كل ملون إنما هو ممتد ، ومعنى الضرورة هنا أنه لا يمكن تصور النقيض . ونقول عن القضية «للصوت وزن» أنها قضية مستحيلة لأنه لا يتصور الصوت أن له وزنًا فصوتك حين تتكلم أو الصوت الآتي من دقات جرس ما ليس مما يخضع للميزان ونقول

عن القضية « التفاحة حمراء اللون » انها لا تتضمن ضرورة ولا استحالة :
ليست قضية ضرورية لأن التفاح ليس كذلك باحتوائه اللون الاحمر فقد
يكون للتفاحة هذا اللون أو غيره ، وليست قضية مستحيلة لأننا لا نستطيع
ان ننكر على التفاحة ان يكون لها لون - إن الحمرة في التفاح أمر صدفة أو
أمر احتمال : والصدفة هنا تعني أن شيئاً يحدث ولا ضرورة في ذلك الحدوث
وكان من الممكن ألا يحدث . فحدوثه وعدم حدوثه محتملان .

نلاحظ أن تصور الصدفة تصور علاقي ، كما أن تصوري الضرورة
والاستحالة علاقيان ايضاً . نقول ان ا يستلزم ب ونقول اننا ننكر على ا
أن تتصف ب ب ، ونقول ايضاً إن ا قد تكون ب وقد لا تكون . ومن
هذه الفكرة نشأت فكرة الاحتمال الرياضي على أنه ارتباط قضية معروفة لنا
تماماً بقضية او قضايا أخرى مجهولة لنا تماماً . نسمي القضية احتمالية اذا
كانت مرتبطة بقضية او قضايا أخرى تتضمن معطيات موجودة لدينا وعلى
ضوئها نستطيع أن نحدد درجة احتمال القضية الأصلية . لا نستطيع أن نقول
إن قضية ما احتمالية دون إقرانها بقضايا أخرى ، كما لا نستطيع ان نقول ان
العدد ٢ مساوٍ ، أو اكبر : لا بد من الاشارة الى ما يساويه ذلك العدد أو
ما يزيد أو يقل عنه . كذلك في القضية الاحتمالية احتمالها مقرون بمعرفة
قضايا أخرى ترتبط بها . فاذا أخذنا مثلاً ورقة من اوراق اللعب وسألنا عن
احتمال ان تكون هذه الورقة مكتوب عليها الرقم ١ قلنا ان كسر الاحتمال
هو $\frac{1}{52}$ ، ذلك لأنني أعلم تماماً عدد اوراق اللعب وهي ٥٢ وأعلم تماماً أن من
كل ١٣ ورقة توجد ورقة واحدة بالرقم ١ ، ولكني أجهل رقم الورقة التي
اسحبها ، وأصل الى تحديد كسر الاحتمال المطلوب بعملية حسابية بسيطة ،
ويصبح الكسر هو $\frac{1}{52}$.

ولقد اشرنا من قبل الى انه لا توجد نظرية واحدة في الاحتمال بل عدة
انواع من النظريات ، واهم تلك الانواع نوعان : نوع يضم نظريات الاحتمال

التي هي فرع من الرياضيات البحتة ، ونوع يضم نظريات الاحتمال التي تعالج مشكلة الاستقراء .

ولا تعني هذه العبارة أن هناك فصلاً حاسماً بين هذين النوعين من النظريات، فهناك من أصحاب الاحتمالات الرياضية من أراد ان يستخدم نظريته الرياضية في حل مشكلة الاستقراء ، وكل عالم له نظرية في الاحتمال الاستقرائي إنما شارك في إقامة أو مناقشته نظريات الاحتمال الرياضية، لأن للاحتمال الاستقرائي أساساً في الاحتمال الرياضي . سنشير هنا الى نظريتين فقط من نظريات الاحتمال أرادتا أن تدعموا احتمال النتيجة الاستقرائية بدرجة محددة : نظرية تكرار الحدوث ونظرية اللورد كينز .

نظرية تكرار الحدوث

نظرية تكرار الحدوث ، او بالأحرى نظريات تكرار الحدوث نوعان : نظرية تكرار الحدوث المحدودة Finite - Frequency Theory ونظرية تكرار الحدوث اللامتناهية Infinite - Frequency Theory . وسنقصر اشارتنا الموجزة هنا على الاولى دون الثانية . أول من نادى بنظرية تكرار الحدوث المحدودة هو إليس R.L. Ellis في منتصف القرن السابع عشر ، وقد ساهم فيها جيمس بيرنوي J. Bernouilli في كتابه Ars Conjectandi نشره نيقولا بيرنوي ابن أخته في ١٧١٣ ثمان سنين بعد وفاة خاله ، وساهم فيها ايضاً لابلاس في كتابه النظرية التحليلية للاحتمالات La Theorie Analytique des Probabilités (١٨١٢) . وقد وضع لها فن Veun شرحاً مطولاً في كتابه « منطق الصدفة » Logic of Chances (١٨٦٦) وقد أضاف اليها اضافات هامة تشارلز بيرس C.S. Peirce في أوائل هذا القرن في مجموعة مؤلفاته التي جعل لها الآن عنوان Collected Papers لأنها جمعت ونشرت بعد وفاة كاتبها . ولا بأس من ملاحظة انه بالرغم من أن هؤلاء المنطقة والفلاسفة ينادون جميعاً بنظرية تكرار الحدوث المحدودة إلا أنهم ليسوا على اتفاق تام في كل نقطة تفصيلية من نقاط النظرية ، إذ بينهم بعض اختلاف

في الرأي والتفسير حول بعض تفصيلات النظرية نفسها . ولن نعرض لهذه التفصيلات والخلافات فهي متعلقة بالنظرية الرياضية في حساب الاحتمال . ولكن يكفي أن نشير الى النقطة الاساسية التي يتفق فيها أصحاب النظرية جميعاً وتقوم عليها رأي تلك النظرية في النتيجة الاستقرائية . تهتم نظرية تكرار الحدوث المحدودة فقط بالاصناف من الحوادث او الظواهر المحدودة في عدد أفرادها . وتبدأ النظرية بالتعريف الآتي لتحديد حدوث الاحتمال - احتمال حدوث او عدم حدوث ظاهرة ما :

إذا رمزنا بالحرف a الى صنف محدود الافراد وبالحرف b الى صنف آخر، وإذا أردنا تحديد احتمال ان فرداً من الصنف a اخترناه اختياراً عشوائياً سوف يكون فرداً من أفراد الصنف b ، فأننا نحدد الاحتمال بمعرفة عدد أفراد الصنف a التي هي ايضاً عدد أفراد من الصنف b ونقسم ذلك العدد على كل أفراد a . وبمعنى آخر إن احتمال كون شيء ما او ظاهرة ما a متصفاً بالصفة b هو نسبة حدوث a متصفاً بالصفة b . وتتخذ درجة

$$\text{الاحتمال حسب تلك النظرية الصورة التالية : } h(a,b) = \frac{n(a+b)}{n(a)}$$

« $n(a)$ » تشير الى كل عدد أفراد a ، « $n(a+b)$ » تشير الى عدد افراد a الذي هو ايضاً b ، « $h(a,b)$ » تشير الى درجة الاحتمال . ونوضح هذه القاعدة الاساسية في نظرية تكرار الحدوث المحدودة بالامثلة : اغلب الناس أمناء ، الرعد يتبعه البرق ، $\frac{1}{4}$ المرضى بداء معين شفوا باستخدام ذلك الدواء المعين . احتمال ورود اسم ابراهيم مثلاً في دليل تليفونات مدينة الاسكندرية هو قسمة عدد الاسماء المندرجة تحت « ابراهيم » على عدد الاسماء المندرجة في الدليل .

نظرية تكرار الحدوث المحدودة نظرية سليمة لا طعن فيها على شرط ان يكون عدد الافراد المندرجة تحت كل من الصنف a و b عدد محدود وبذا يكون الكسر الاحتمالي محدداً لان الافراد بما يمكن احصاؤها . أما اذا كنا

نتعامل مع صنف عدد افراده عدد لا متناه فان كسر الاحتمال يكون عديم القيمة لانه لن تكون له قيمة محددة . وذلك لاننا سوف نحصل على كسر مقامه عدد لا متناه واذن فلا قيمة للكسر واذن لا نستطيع ان نحدد قيمة الاحتمال .^(١) وسنرى بعد قليل أن هذه النظرية الرياضية في الاحتمال لم تساعدنا على حل مشكلة الاستقرار أي لم تساعدنا في إيجاد اساس دقيق رياضي أو غير رياضي لاحتمال النتيجة الاستقرائية .

نظرية كينز في الاحتمالات

كان كينز J. M. Keynes مدركا لفساد النتيجة الاستقرائية من الناحية الصورية البحتة بانتقالنا من مقدمات جزئية تتضمن ملاحظات حاضره وماضيه الى نتيجة كلية تتضمن حكماً على ما لم يقع بعد تحت الملاحظة . وكان مدركاً كذلك انه يمكننا تجنب ذلك الفساد الصوري بإضافة تصور الاحتمال الى النتيجة : ان نقول «من المحتمل أن كل ا هي ب قضية احتمالية» بدلاً من «كل ا هي ب» . (لاحظ أنه في القضية الاحتمالية كل ا هي ب ، هي الموضوع وليست « ا » فقط هي الموضوع . ومن ثم اتجه كينز الى نظريات الاحتمال الرياضية التي كانت قد ظهرت وشاعت وقتئذ وقد قبل الاساس الرياضي لتلك النظريات ، ونلاحظ على كينز ايضاً أنه حين اهتم بنظريات الاحتمال في صورها الرياضية البحتة لم يكن يهتم بها في ذاتها بل يهتم بها كوسيلة لاتخاذ موقف من الاستقرار ومشكلته . وفيما يلي كلمة موجزة عن نظريته في الاحتمال .

يقرر كينز أن الاحتمال تصور أولي بسيط لا يمكن رده الى تصورات أبسط منه ultimate ، ومن ثم كان ينظر الى كلمة (احتمال) على أنها من اللامعرفات؛ نستخدمها في تعريف كلمات اخرى لكنها هي لا تقبل التعريف . والاساس الذي اعتمد عليه كينز في اعتبار الاحتمال لا معرفاً هو انه لكي يمكن تعريفها يلزم ان نصل الى تحديد علاقة الاحتمال بدرجة الاعتقاد المقبول لدى

B. Russell, op. cit., p. 368.

(١) راجع :

W. Kneale. op. cit., pp. 151 - 2.

المقل rational belief . يقول كينز : « تعريف الاحتمال غير ممكن ما لم نصل الى تحديد درجات علاقة الاحتمال بدرجات الاعتقاد المقبول . لا يمكننا تحليل علاقة الاحتمال بواسطة أفكار أكثر بساطة . وحين ننتقل من منطق التضمن ومقولات الصدق والكذب الى منطق الاحتمال ومقولات المعرفة والجهل والاعتقاد المقبول فنحن بإزاء علاقة منطقية جديدة لا يمكن شرحها أو تحديدها عن طريق أفكار سابقة عليها » (١) .

النقطة الثانية التي نود الإشارة إليها في نظرية كينز هي طريقة الوصول الى قانون استقرائي . نبدأ بافتراض تعميم ما قبل أن نجتمع الشواهد التي تؤيد ذلك التعميم . ويمكن التعبير عن ذلك التعميم بقولنا كل ا هي ب : ثم نبدأ بملاحظة الشواهد وجمع الوقائع التي تؤيد التعميم ، ونرمز إليها مثلاً بالحروف ا ، ا ، ا ، ا ... اع . فإذا لم نلاحظ وقائع مناقضة لتعميمنا ، رمزنا الى احتمال تعميمنا بالحرف ح ، بعد مشاهدة ا ، و ح بعد مشاهدة ا ، ا ، ا ، وهكذا حتى يصبح الاحتمال ح ح حين نصل الى العدد ع من الشواهد .

اراد كينز ان يحدد الظروف التي يميل فيها ح الى الواحد الصحيح . افرض اننا نريد الوصول الى درجة احتمال التعميم ، النحاس جيد التوصيل للكهرباء . قبل ان نجرب النحاس نجرب على عناصر أخرى ، سنجد أن لكل عنصر خاصية مميزة تجاه التوصيل الكهربائي ، ونستنتج حينئذ أما أن يكون كل نحاس جيد التوصيل للكهرباء أو لانهاس موصل جيد ، ثم نبدأ تجاربنا على النحاس ، وسوف نجد أنه جيد التوصيل ، نقول إذن ان القضية احتمالية ويزداد الاحتمال الى الواحد الصحيح كلما زاد عدد التجارب المؤيدة^(٢) .

نلاحظ أن الكسر الاحتمالي لن يكون محدداً تحديداً رياضياً الا اذا توفر

J. M. Keynes, *A Treatise on Probability*, Macmillan, (1) London, 1921, p. 8.

B. Russell, *Human Knowledge*, pp. 451-3.

شرط معين هو أن عدد الاشياء في الكون التي نسميها نحاسا عدد محدود، وهذا الشرط يسميه كينز مصادرة التباين المحدود Postulate of Limited Variety ويمكن شرح هذه المصادرة على النحو التالي : تقترح لنا الخبرة بلا شك أنه يمكن رد تباين الاشياء موضوع الادراك الحسي إلى عدد قليل من العناصر وترتيبها بانحاء مختلفة ؛ يرجع التباين في الاشياء التي نراها بمعنى آخر إلى تباين تنظيم ذلك العدد القليل من العناصر . خذ مثلاً البقرة وهي أحد الانواع الطبيعية ، والسكر وهو مركب كياوي ، والكربون وهو عنصر كياوي . يتركب النوع الطبيعي من عدة مركبات كياوية نظمت بطريقة خاصة، وتتميز الانواع الحيوانية بتميز طريقة تنظيم المركبات الكياوية في هذا النوع عن ذاك، ويتركب المركب الكياوي من عدة عناصر كياوية نظمت بطريقة خاصة بحيث يتميز هذا المركب عن غيره بتميز ترتيب العناصر الكياوية في هذا عن ذاك. يفترض العالم أن خصائص النوع الطبيعي تعتمد على خصائص المركبات الكياوية التي تؤلفه ، ولكن للمركبات الكياوية خصائص تنحل بدورها الى خصائص العناصر الكياوية التي تؤلفها . يمثل هذا النوع من التفكير في تركيب العالم الطبيعي كأن يرى كينز أن الصفات التي نحملها على الاشياء يمكن إدراجها في مجموعات ، ولكل مجموعة من الاشياء صفات خاصة بها قد تبدو تلك الصفات لا متناهية العدد ولكن يمكن افتراض انه يمكن ردها الى عدد محدود من الصفات الاساسية . عدد الصفات الاساسية محدود وكذلك عدد المجموعات من الاشياء (١) .

ونريد أن نعلق على هاتين النقطتين في نظرية كينز في الاحتمال : اعتبار الاحتمال من اللامعرفات ومصادرة التباين المحدود :

١ - علاقة الاحتمال علاقة بين قضايا كما يرى كينز نفسه ، ولكن اذا كانت العلاقة بين قضيتين غير ممكنة التحليل فمعنى ذلك أن القضايا ذاتها لا تقبل التعريف والتحليل وهذا خطأ لان القضية ليست مستقلة عن الواقع والوقائع التي تعبر عنها ، وليست مستقلة عن العمليات الفكرية التي تصدر

(١) B. Russell, Ibid.; pp. 456-60.

عنها . يمكن للقضية اذن ان تقبل التحليل ، وبالتالي العلاقة بينها ممكنة التحليل وليست من اللامعرفات ^(١).

٢ - يسمح تصور الاحتمال بتفاوت الدرجة كما هو واضح من حديثنا عن الكسر الاحتمالي ، وذلك أمر يقبله كينز نفسه . كان كينز يرى ان الاحتمال نوعان : نوع ممكن القياس بين الصفر والواحد ونوع آخر لا يمكن قياسه ، ويشبه كينز درجات الاحتمال بخط مستقيم يصل بين نقطتين تشير احدهما الى الصفر وتشير الاخرى الى الواحد الصحيح ، وان الاحتمالات الممكنة قياسها تقع على هذا الخط ، ولكن توجد احتمالات تقع على خط منحني يصل بين النقطتين وهذه الاحتمالات غير ممكنة القياس ^(٢) . فاذا كان كينز يقدم هذا التمييز بين نوعي الاحتمال اذن فالاحتمال ممكن التحليل .

(٣) حين نقرن الاحتمال بالنتيجة الاستقرائية فاننا نتضمن ان الاحتمال صفة لقضية تجريبية ، فاذا قلنا ان الاحتمال لا يقبل التحليل فمعنى هذا أن لا صلة له بالوقائع والاشياء الطبيعية ، ولكن قصد كينز بنظريته في الاحتمال أن تجد تطبيقاً على الوقائع والحوادث . فاذا كان الاحتمال لا يقبل التحليل فانه مضطر الى القول بان غير المحتمل قد يحدث ومن ثم لن تقول القضية الاحتمالية شيئاً عن العالم ومن ثم لن تساعدنا على استدلال ما سوف يحدث . وخلاصة هذه الانتقادات الثلاثة أن تصور الاحتمال على انه لا يقبل التعريف تصور خاطيء - ينبغي أن تقرر القضية الاحتمالية تقرير واقعة وان الحكم عليها بالصدق او الكذب واذن فنحن نفضل على موقف كينز هذا موقف نظرية تكرار الحدوث الذي يسمح للاحتتمال بالتعريف .

٤ - ليست مصادرة التباين المحدود إلا فرضاً ، قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً ، ويتوقف صدقه على تأييد الكشف العلمي له ، ولكن ما لدينا

(١) Kneale, Op. cit., pp. 11 - 12.

(٢) Keynes, Op. cit., p. 20.

من نتائج علمية حتى الآن يكذبه . لعل كينز في أول هذا القرن كان متأثراً بالفكرة التي سادت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهي انه يمكن فهم الكثرة الهائلة من الاشياء المشاهدة إذا فرضنا انه يمكن ردها الى ٩٢ عنصراً . وكنا نعتقد ان لكل عنصر خواص معينة كالوزن الذري والشكل ونحو ذلك ومن ثم كنا نعتبر كل عنصر كأنه نوع طبيعي . ولكن ما كدنا نصل الى الربع الاول من هذا القرن حتى استطعنا تفتيت الذرة ووصلنا الى أن الخلاف بين هذه العناصر ليس خلافاً في النوع وإنما خلاف في التركيب - التركيب من عدة عناصر اكثر بساطة وأولية هي الالكترون والبروتون والپوزيترون والنيوترون . ونحن لا نقول الآن ان لدينا أربعة عناصر بدلاً من اثنين وتسعين ، لان بعضها ليست له ديمومة العنصر وثباته ، ويساورنا الامل في أن تثبت الأبحاث المقبلة أن البعض الآخر قد لا تكون لها خصائص العنصر وإنما يمكن ردها الى ما هو أكثر بساطة او أكثر تعقيداً^(١) . حتى إن قلنا انه يمكن رد كل مركب مادي الى عنصرين او ثلاثة هي عناصر الذرة فلن يفيد ذلك كينز ، كما يتضح من النقد الآتي .

هـ - قصة العناصر والعناصر الذرية مصدرها النظرية الذرية . وهناك نظرية اخرى تعلن أن الكون محدود على أسس أخرى هي نظرية النسبية . وفرض الكون المحدود عند النسبية من الفروض التي تسندها المعادلات الرياضية والتي لا يمكن تحقيقها تحقيقاً تجريبياً ، أي مما لم يصل اليها صاحبها باستقراء . وقد يكون الفرض صادقاً او كاذباً . ولكن أفرض ان اينشتين على حق في قوله ان الكون محدود ، فان الكون بالنسبة للباحث الاستقرائي وهو الانسان الملاحظ غير محدود . لا تستطيع الخبرة الانسانية استقصاء كل فرد في كل صنف من الاشياء في الكون . لا يستطيع الانسان احصاء كل افراد صنف معين : حتى اذا أمكن حصر الافراد الموجودة في اللحظة الراهنة فان ملاحظة الافراد المنتمة الى هذا الصنف او ذاك التي كانت في الماضي او ما

(١) قارن تعليقنا على النظرية الذرية عند دلتون في فقرة النظرية الذرية في الفصل التالي .

تنشأ في المستقبل خارجة عن طاقة الانسان .

مشكلة الاستقراء ونظرية الاحتمال

يمكن صياغة المبدأ الذي يقوم عليه الاستدلال الاستقرائي التقليدي في العبارة الآتية . اذا كان لدينا العدد ع من الصنف ا ووجد انه ينتمي كذلك الى الصنف ب ، ولم نعلم من ملاحظاتنا وتجاربنا حتى اللحظة الراهنة على أحد أفراد الصنف ا لا ينتمي كذلك الى الصنف ب ، جاز لنا إذن ان نقول ان النتيجة الاستقرائية (كل ا هي ب) صادقة صدقاً كلياً . تعبر هذه الصورة في صياغة الاستدلال الاستقرائي عن روح الاستقرائيين التقليديين من أمثال فرنسيس بيكون وجون مل . وقد فرغنا من الحكم على المبدأ الاستقرائي في هذه الصورة بالبطلان : اذ يستند هذا الاستقراء الى تصور العلية وتصور اطراد الحوادث في الطبيعة كتصورين صادقين صدقاً كلياً ، ولكننا اشرنا من قبل الى ان مبدأي العلية واطراد الحوادث في الطبيعة هما في الحقيقة اعتقادات يتفقان وطبيعة التفكير الانساني والسلوك الانساني . ولكن الاعتقاد بوجود شيء أو بصحة قضية لا يقوم دليلاً على أن هذا الشيء بالضرورة موجود أو ان هذه القضية صادقة . وقد اشرنا ايضاً إلى مبدأ أساسي هو أن أمور الواقع لا يجري عليها البرهان أو ان كل ما يتعلق بالعالم التجريبي يمكن تصور انكاره دون وقوع في التناقض . ومن ثم فان الاستدلال الاستقرائي التقليدي استدلال فاسد من الناحية الصورية يجعل نتيجته صادقة صدقاً كلياً .

ولكن ازاء نظريات الاحتمال ظن بعض المناطق والعلماء أننا نستطيع تجنب فساد النتيجة الاستقرائية يجعلها احتمالية الصدق لا يقينية . ويمكن صياغة الاستدلال الاستقرائي متضمناً تصور الاحتمال في الصورة الآتية . اذا كان لدينا العدد ع من الصنف ا ووجد أن هذا العدد ينتمي كذلك الى الصنف ب ، اذن فالقضيتان الآتيتان احتماليتان : « اول فرد علينا في المستقبل من افراد الصنف ا سوف ينتمي الى الصنف ب » و « كل ا هي ب » . ويزداد

الاحتمال كلما زاد العدد ع ويقترب الاحتمال من اليقين كلما اقترب العدد ع من اللانهاية .

ونريد الآن أن نناقش هذه الصورة للاستدلال الاستقرائي . لقد أشرنا من قبل الى ان ليس للاحتمال معنى واحد وانما عدة معان . ولذلك سنحاول أن نستخدم أولاً الاحتمال بالمعنى الذي ذهبت اليه نظرية تكرار الحدوث ثم نستخدمه بعد ذلك بمعنى درجة عالية من التصديق في الاجابة عن السؤالين :

(١) هل حقاً أن القضية « اول فرد يرد في المستقبل من افراد ا ينمى الى ب » احتمالية الصدق ؟

(٢) هل حقاً أن القضية « كل ا هي ب » احتمالية الصدق ؟

نلاحظ أولاً أن نظرية تكرار الحدوث في بحثها عن احتمال وقوع الحوادث أو عدم وقوعها لا تهتم بالمصادقات ولكن فقط بالمفهومات : لا تهتم النظرية بالحوادث أو الاشياء الجزئية وانما تهتم بالصنف ذاته وما قد ينطوى عليه من خصائص أو صفات . حين نقول أن كل انسان فان أو ان الحيوان المجتر مشقوق الظلف فان نظرية تكرار الحدوث حين ترى ان تلك القضايا وامثالها احتماليتان لا تهتم بما اذا كان زيد سوف يموت في الغد أو أن البقرة التي أملكها في حقلي مشقوقة الظلف فعلاً ، وانما تهتم النظرية فقط بالعلاقة بين مفهومين : مفهوم الانسان ومفهوم الفناء ، مفهوم المجتر ومفهوم مشقوق الظلف وهكذا . نعم اننا نبحث عن حالات فردية لاثبات تلك العلاقة ، ولكننا حينئذ لا نهتم بالافراد من حيث هي في ذواتها وانما نهتم بها فقط كأمثلة لاصناف . واذن فنظرية تكرار الحدوث لا تساعدنا في الاجابة عن سؤالنا الأول : لا يهمها ذلك السؤال .

نلاحظ ثانياً أن الصورة الرمزية التي تعطيها نظرية تكرار الحدوث للقضية

الأولى « أول فرد من ا يرد لنا في المستقبل هو ايضاً ب » هي $\frac{1+E}{2+E}$: ع

تشير الى عدد الامثلة التي شوهد فيها الصنف ا وشوهد ايضاً انها تنتمي الى

الصنف ب . العدد ١ يشير إلى امكان حدوث ١ ، والعدد ٢ يشير إلى امكان حدوث ١ وامكان عدم حدوثه . تعبر هذه الصورة الرمزية عن قضية صادقة صدقاً احتمالياً ، ولكنها تفترض فرضاً معيناً هو تساوي احتمال الوقوع واحتمال عدم الوقوع . احتمال حدوث الفرد الجديد من ١ ويكون منتبياً الى ب واحتمال عدم حدوثه كلاهما ممكن . الاحتمالان متساويان في درجة القبول . وهذا الفرض قد يكون مقبولاً على المستوى الرياضي أو في حدود نظرية تكرار الحدوث في ميدانها الرياضي . ويضرب اصحاب النظرية لتوضيح موقفهم مثال قطعة النقود : إذا رميتها من أعلا إلى الارض فانها تسقط على وجه من وجهيها أو على الوجه الآخر . واحتمال استقرارها على وجه مساوٍ لاحتمال استقرارها على الوجه الآخر ، حيث أن ليس لها إلا وجهان ، وإن سقطت على حافتها فانها لا تلبث ان تستقر على وجه من الوجهين . ان كسر الاحتمال في هذه الحالة هو دائماً $\frac{1}{2}$. ولكن النقد الذي يمكن توجيهه الى تلك النظرية هو أن الحوادث أو الوقائع في العالم الطبيعي من نوع مختلف عن قطعة النقود : إذ ليس للحوادث أو الوقائع جانبان فقط : إن لدينا عدداً لا متناهياً من الطرق التي يمكن لحالة فردية تنتمي الى ١ ولا تكون منتبياً الى ب .

ومن ثم فن المستحيل أن نعطي قيمة للكسر $\frac{1+E}{2+E}$ (١١) .

ننتقل الى محاولة اجابة نظرية تكرار الحدوث عن سؤالنا الثاني وهو هل النتيجة كل ١ هي ب ، احتمالية الصدق ؟ ستجيب النظرية بالايجاب ولكن لنا ملاحظتان على تلك الاجابة :

أولاً تفرض نظرية تكرار الحدوث كما قلنا ان احتمال وقوع حادثة في المستقبل مساد لاحتمال عدم وقوعها والكسر دائماً $\frac{1}{2}$ مهما كثر عدد افراد ١ التي

(١) راجع : B. Russell, Human Knowledge, p. 423.
S. Stebbing, A Modern Introduction to Logic, p. 409.

شوهدها تنتمي الى الصنف ب .

ثانياً تصدق نظرية تكرار الحدوث فقط على الاصناف التي تضم عدداً محدوداً من الافراد ، وان من الممكن حصرها ، ولكن الاشياء او الحوادث او الظواهر التي نأمل في التنبؤ بها لامتناهية العدد. واذن فمن المستحيل تحديد قيمة كسر الاحتمال لسبب بسيط وهو ان مقام الكسر يضم العدد اللامتناهي. ان عدد الأمثلة التي كانت موضوع بحثنا والمنتميه الى صنف معين عدد بسيط بالقياس الى عدد الامثلة من نفس الصنف وما لم يخضع للبحث . هنالك عدد من افراد الصنف ما مضى وجوده او وقوعه ولم نبخته قبل ان نولد ، وهنالك عدد آخر موجود في الحاضر أو كان موجوداً في الماضي القريب ولم يخضع لبحثنا، وهنالك عدد آخر لم نبخته بعد لأنه لازال في طي المستقبل إن عدد ما لم يلاحظ من افراد صنف ما يزيد زيادة هائلة عن العدد الذي لاحظناه وذلك عدد مجهول . وكلما زاد المجهول صغر كسر الاحتمال ومن ثم قلت درجة الاحتمال .

وخلاصة النقيدين السابقين أن قولنا ان النتيجة الاستقرائية احتمالية الصديق في اطار نظرية تكرار الحدوث يتضمن إما القول أن كسر الاحتمال عديم القيمة لان احتمال الحدوث مساو دائماً لاحتمال عدم الحدوث أو القول بأنه لا يمكن تحديد قيمة كسر الاحتمال لأن أفراد الصنف موضوع البحث لامتناهي العدد. خذ مثلاً بسيطاً : « كل غراب أسود » : اننا نرمز الى احتمال صدق هذه

النتيجة بالرمز $\frac{1+c}{1+n}$ [ع تشير الى عدد الغربان السود التي شوهدت ، العدد ١

يشير الى امكان وجود غراب اسود ، والحرف ن يشير الى عدد الغربان التي شوهدت والتي لم تشاهد في الماضي والتي لم تولد بعد] . إن عدد الغربان التي لم تشاهد يزيد زيادة هائلة على عدد ما شوهد منها واذن فقيمة الكسر ضئيلة جداً لان قيمة ن مجهولة . زد على ذلك أن قد يحدث أن غراباً واحداً شوهد اكثر من مرة وبذا يكون العدد ع اكبر مما هو في الحقيقة . وهنالك ايضاً

الحقيقة بان ليس كل غراب ممكن المشاهدة لصعوبة مشاهدته أو لانه لم يولد بعد . نستنتج من ذلك أن كسر الاحتمال من النتيجة العامة الاستقرائية بجهول القيمة لأن مقامه مجهول .

نستنتج من صياغتنا الاستدلالي الاستقرائي متضمناً تصور الاحتمال كما تفهمه نظرية تكرار الحدوث أنه لا يهم تلك النظرية أن تعرف الحالات الجزئية المستقبلية المندرجة تحت النتيجة الاستقرائية ، وأن النظرية لم تنجح في تحديد كسر الاحتمال بالنسبة للنتيجة الاستقرائية . وذلك لان عدد أفراد صنف ما لا متناهي العدد بالقياس الى الخبرة الانسانية على الاقل .

يبقى أن نتصور احتمال النتيجة الاستقرائية بمعنى أنها قد تنطوي على الدرجة العالية من التصديق . ويمكن شرح هذا المعنى لاحتمال النتيجة الاستقرائية على النحو التالي .

لا يوجد اساس لدينا للصدق الاحتمالي للنتيجة الاستقرائية الا اعتقادنا بان المستقبل سوف يكون مشابهاً للماضي . ان اي تصور للاحتمال يتضمن تحديد قيمة الاحتمال غير متوفر للحكم الآن على حوادث المستقبل : ان القضية الاحتمالية مهما زاد عدد الامثلة المؤيدة لها في الوقت الحاضر فلن تقترب من الواحد الصحيح او اليقين . لسنا محتاجين في القضية الاحتمالية الى مزيد من شواهد . حقاً مزيد من الشواهد والامثلة يقوي درجة الاحتمال ولكن زيادة الامثلة ان تجعل النتيجة الاستقرائية اكثر احتمالاً أو اكثر صدقاً بما كنا حيث بدأنا ، ذلك لان زيادة الامثلة حتى الوقت الحاضر لا يقوم دليلاً على ان الحوادث في المستقبل سوف تؤيد النتيجة والمستقبل بحكم التعريف مجهول^(١) .

وعدنا من جديد الى مشكلة الاستقراء كما وضعها دافيد هيوم ، وهو أنه لا يوجد أساس مقبول حتى لاحتمال القضايا التجريبية العامة ، إلا أننا نميل

(١) A . J . Ayer, The Concept of A Person and Other Essays, Macmillan, London, 1963, p. 191 .

أو نعتقد أو نأمل أن ما سوف يحدث سيكون على غرار الماضي . ولم تقدم لنا نظريات الاحتمال الرياضية حلاً لهذه المشكلة كما رأينا .

لقد ظهر لنا الآن أن العلية واطراد الحوادث موضوع اعتقاد لا موضوع برهان . وأن الصدق المطلق للنتيجة الاستقرائية غير موجود وإن صدقها الاحتمالي موضوع أيضاً لاعتقاد لا موضوع تحديد ودقة . ويتضمن ذلك أن الاستدلال الاستقرائي ليس نوعاً من البرهان بالمعنى الذي يستخدم المنطق كلمة «برهان» - بمعنى ما لا يمكن انكاره دون وقوع في التناقض .

هل يعني ذلك أن نترك الاستقراء منهجاً ؟ لا . إحدى وظائف العلم الأساسية مساعدتنا على التنبؤ بما سوف يحدث في العالم الطبيعي في المستقبل من أشياء ووقائع وحوادث وظاهرات ، وأن يعبر عن تلك التنبؤات بصيغ القوانين العامة ، والاستقراء هو المنهج الوحيد الذي عن طريقه نصل إلى صياغة تلك القوانين . يجب أن نتمسك إذن بالمنهج الاستقرائي وإن تنحس له - لا على أنه برهان يتضمن نتائج يقينية وضرورية منطقية فقد فرغنا من الوصول إلى أنه لن يكون ذلك البرهان - وإنما على أساس أنه خطة ، وهو خطة معقولة : معقولة لأنه يوصلنا إلى يقين وإنما لأنه النهج الوحيد الذي يوصلنا إلى تنبؤات صحيحة . يجب أن نفهم أن النتائج الاستقرائية بما نحكم عليها بالصدق المؤقت أي الصدق المعرض للمراجعة والحساب ، والمستقبل كقيل بزيادة احتمال صدقها أو تعديلها أو انكارها ^(١) . إن العلماء المعاصرين إنما يفهمون المنهج الاستقرائي بهذا المعنى - يفهمونه على أنه ليس برهاناً وليس نتائجه يقينية بل ليست نتائجه احتمالية بالمعنى المحدد في نظرية الاحتمالات الرياضية ، وإنما بمعنى الدرجة العالية من التصديق ؛ إن العلماء المعاصرين يفهمون الاستقراء منهجاً يمكن استخدامه دون الاستناد إلى مبدأ العلية ومبدأ اطراد الحوادث كأساسين له ، وأنه لا يقلل من قيمة القانون

Kneale, Probability and Induction, p. 235 .

(١)

العلمي ألا يتضمن العلاقات العلمية ، وألا يتضمن اطراد الحوادث . إن الزمن والبحث كفيلا بتصحيح ما نصل اليه من قوانين وانا كنا لن يكفلا لنا اثبات أن العالم علتي أو مطرد ؛ إن العلماء المعاصرين لا يقفون موقف العداء من الاستدلال الصوري او الاستنباط بل اصبح من الضروري أن يوصل الاستقراء بالاستنباط . بهذه الأركان الثلاثة - فهم الاحتمال في القانون العلمي بمعنى الدرجة العالية من التصديق ، لا سبيل للبرهنة على العلمية والاطراد في العالم كما أنه لا يتقوض بناء العلم بعجزنا عن اقامة ذلك البرهان ، الاستقراء لا يستغني عن الاستنباط - بهذه الأركان الثلاثة نتقدم للإشارة الى المنهج العلمي المعاصر وهو موضوع الفصل التالي .

الفصل الثامن

المنهج العلمي المعاصر

القانون العلمي والاطراد والعلية

نشير في هذا الفصل الى المنهج الذي يتبعه العلماء المعاصرون في أبحاثهم كي يصلوا الى قوانينهم ونظرياتهم، لنرى ما اذا كانوا يأخذون بالاستقراء التقليدي واذا كانوا لا يأخذون به نتيجة لتطور النظر الى ذلك الاستقراء، نريد ان نعرف أي معنى للاستقراء يستخدمون ؟

ثم هل المنهج العلمي المعاصر يستخدم الاستقراء فقط أم أنه يضيف إليه نوعاً آخر من الاستدلال ؟ وما هو ؟

سنحاول الاجابة عن هذه الاسئلة بالاشارة إلى موقف العلماء المعاصرين مما سماه الاستقراءيون التقليديون أسس الاستقراء ومراحله - أي بالاشارة الى موقفهم من مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة ومبدأ العلية ، ثم موقفهم من الابتداء في البحث العلمي بالملاحظة والتجربة ثم فرض فروض ثم تحقيقها . إن موقفهم من مبدأ اطراد الحوادث من الطبيعة واضح وهو الاعتراف بمشكلة الاستقراء والاعتراف بأن الاستقراء كمنهج ليس منهجاً برهانياً بمعنى أن نتائجه ليست صادقة صدقاً ضرورياً أو يقينياً والنظر الى الاستقراء على أنه خطة

في الحدث ، ولا خطة لدينا غيرها . ولتوضيح ذلك الموقف هاك نص من احد كبار علماء ذلك القرن ، على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر : «... إننا لانسأل هل الفرض ا صادق ؟ بل هل يمكن قبوله 'is it tenable' ؟ لن تبرهن لنا الطبيعة على صدق الفرض لأن ظاهرة واحدة [سلبية] كفيلة برفض الفرض بينما لا تكفي مليون ظاهرة للبرهان عليه . ومن ثم لا يدعى العالم أنه يعرف شيئاً يقينا فيما عدا وقائع الملاحظة المباشرة [الراهنه] وفيما عدا ذلك يمكنه فقط أن يقيم فروضاً كل منها يشمل عدداً من الظواهر اكثر مما شملته الفروض السابقة ، ولكن كل فرض يمكن أن يلغيه فرض جديد يأتي في المستقبل . ولكن لن يوجد الوقت الذي نقول فيه إننا وصلنا الى الفرض الذي قد كتب له اليقين»^(١) ولم يكن هذا الموقف جديداً كل الجدة في القرن العشرين ولكنه كان معترفاً به منذ اكثر من قرنين ، وفي ذلك يقول نيوتن : «... بالرغم من أن الاستدلال من التجارب والملاحظات ليس برهانا على النتائج العامة غير أنه أفضل طريقة تسمح بها طبيعة الاشياء»^(٢) .

ننتقل الآن إلى موقف المنهج العلمي المعاصر من مبدأ العلية كقاعدة اساسية في البحث الاستقرائي. لقد أشرنا فيما سبق إلى أن البحث الاستقرائي

Sir J. Jeans, The New Background of Science, 1 st ed. 1933,(١) 2 nd ed, 1959, Ann Arbor Paperbacks, The University of Michigan Press, pp. 49-50.

(٢) النص مأخوذ من كتاب « علم الضوء ». نعم وضعنا نيوتن من قبل فيمن تمسكوا بالمنهج الاستقرائي التقليدي. كان قد أعلن في كتاباته أنه يجب أن تكون الملاحظة والتجربة اساساً للفرض ثم اساساً لصدق الفرض حين تويده ملاحظات وتجارب مقبلة ، كما كان أعلن انه يصادر عن مبدأ العلية قاعدة للبحث الاستقرائي . ولكنه في عبارات اخرى كان يخرج عن نطاق الاستقراء التقليدي مثل ادراكه ان الاستقراء ليس برهانا وليست نتيجته بالكلية واليقينية. وسرى في هذا الفصل مزيداً من خروجه على هذا الاستقراء التقليدي. كان نيوتن في بعض عباراته تقليدي ولكن طريقته في الوصول الى نظرياته كانت تضعه في قائمة المنهج العلمي المعاصر ، وان لم يعبر في كتاباته عن ذلك بطريق مباشر . لم يكن يكتب نيوتن في المناهج بقدر ما كان يكتب في النظريات العلمية .

التقليدي يستند الى هذا المبدأ أو يسقط بسقوطه ، وأشرنا الى ان اصحاب الاستقراء التقليديين تصوروا الفروض العلمية دائماً باحثة عن علل الظواهر كما تصوروا القانون العلمي يتضمن نوعاً واحداً من التفسير العلمي هو التفسير العلى .

ولكن حين تقدمت العلوم التجريبية بوجه عام وعلم الطبيعة بوجه خاص ، بدأ العلماء ينظرون الى القانون العلمي على ان ليس من الضروري ان يكون متضمناً دائماً علاقات علية . وليس كل عالم بباحث عن اكتشاف العلى فى العالم الطبيعى . خذ بعض الأمثلة . لقد توصل علم الأحياء مثلاً الى النتيجة العامة الآتية بعد ملاحظات استقرائية عديدة هي « كل الحيوانات الثديية حيوانات فقرية » . لقد حدد لنا علم الضوء سرعة انتشاره فى الفضاء إذ ينتشر الضوء بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية ، وقد وصف العلماء تلك السرعة المحددة وصفاً دقيقاً بأن جعلوا سرعة الضوء نسبة مقياس المكان الذي يعبره الضوء الى مقياس الزمن الذي يقطعه الضوء فى انتشاره فى ذلك المكان . ومنطوق القانون الثانى من قوانين علم الديناميكا الحرارية هو ان الحرارة تنتقل من الجسم الاكثر حرارة الى الجسم الاقل حرارة وانه اذا لم يزد مصدر الحرارة حرارة جديدة من جسم آخر اكثر منه حرارة فان درجة حرارة ذلك المصدر تتناقص تدريجياً . ومن نتائج ذلك القانون أن قد يأتى على الشمس - المصدر الوحيد للحرارة لعالمنا الارضى - فى المستقبل البعيد وقت تفقد فيه كل ما بها من حرارة وبذا يتم فناء عالمنا . إن العلاقة العلية غير متضمنة فى هذه القوانين وعشرات ومئات من القوانين فى كل علم . لم تكن العلية أساس الوصول الى تلك القوانين ، كما ان تلك القوانين لا تتضمنها . ليست القوانين العلمية كلها من طراز (الحركة علة الحرارة) أو أن (الخاصة البلورية فى جسم ما أثر لمرور ذلك الجسم من حالة السيولة الى حالة التجمد) أو ان (موت فلان نتيجة شربه السم) ونحو ذلك . لا ينكر العلماء فى القرن الماضى والقرن الحالى مبدأ العلية ، ولكنهم ينكرون ان كل قانون

علمي انما هو تفسير على : لا ينكرون ان هنالك كثيراً من القوانين العلمية مما تنطوي على علاقة عليّة ، ولكنهم يقررون ايضاً ان هنالك عدداً كبيراً من القوانين العلمية لا ينطوي على تلك العلاقة ، بالرغم من ان تلك القوانين كانت تعميمات استقرائية . نستنتج من ذلك الموقف ان المنهج العلمي المعاصر استطاع ان يفصل تصور العلية عن البحث الاستقرائي : يمكنك ان تصل الى تعميم تجريبي دون استناد إلى مبدأ العلية . فاذا سئل العلماء اليوم ولكن هل يحكم مبدأ العلية ظواهر الطبيعة ؟

لقد أخبرنا برتراند رسل - وهو من أكبر الفلاسفة المعاصرين اهتماماً بفلسفه العلوم ومناهجها - أن البرهان على ان العالم يخضع للعلية خضوعاً مطلقاً غير ممكن من الناحية النظرية . ويقدم شاهدين على ذلك . يقول أولاً ان العلاقة العلية تتضمن تتابعا بين العلة والمعلول ، ومن ثم تستم في زمن معين ، وحيث ان من الممكن أن يحدث شيء ما بين وقوع العلة ووقوع المعلول مما قد يعرقل حدوث المعلول ، اذن فالتقضية « يجب ان تتبعها ب دائماً » قضية كاذبة ، واذن ليس قانون العلية قانوناً كلياً . ويقول ثانياً ليس من السهل أن نقول ان حادثة ما هي العلة أو مجموعة من الحوادث هي علة ظاهرة ما بكل يقين وتأکید لأن ذلك يستلزم منا أن نجري ملاحظاتنا على الكون كله كي نتأكد من أن شيئاً ما لم نلاحظه من قبل قد يكون عائقاً لحدوث المعلول المتوقع ^(١) . وقد أعلن ماكس بلانك M. Plank صاحب نظرية الكوانتم Quantum Theory وألبرت اينشتين A. Einstein صاحب نظريات النسبية أنها لا يفهمان ما يقال حين يقال ان هنالك عليّة بين ظواهر الكون . ولكن اذا تركنا الاتجاه النظري البحث في معالجة مبدأ العلية واتجهنا الى العلماء المعاصرين في معامل تجاربهم وجدنا موقفهم اكثر تعقيداً . ويكفي الإشارة الى مثل واحد . سنأخذ من اكتشاف النشاط الاشعاعي Radioactivity . لقد امكننا تفتيت الذرة في أواخر القرن التاسع عشر على أيدي سير طومسون

B. Russell, Analysis of Mind, Ch. V.

(١) راجع :

J. J. Thomson وزملائه حين اكتشفوا ان الذرة تنقسم ، وذلك عن طريق النشاط الاشعاعي ، ثم جاء راذرفورد Rutherford في ١٩٠٣ ووضع القانون الاساسي للتفتيت عن هذا الطريق . ووجدوا ان هنالك من الذرات ما لها خاصة النشاط الاشعاعي وهذا يعني ان بعض الذرات تقذف ببعض جزيئاتها بطريقة تلقائية ، أي يتضمن نشاط الذرة حوادث لا نعرف عنها. وما تقذفه الذرة نوعان جزيئات a - particles وتؤلف نواة ذرة الهليوم، وجزيئات B - partieles وتؤلف الالكترونات ، وان الجزيئات الأولى اكبر في كتلتها من الجزيئات الثانية . لوحظ ايضا انه لا يمكننا التنبؤ بحركات الالكترونات أي وجد أنها لا تخضع لقوانين الحركة التي علمتنا ميكانيكا نيوتن . ليست حركات الالكترونات متصلة وانما شبيهة بقفزات الكنجارو ، ولا توجد قوانين عليية تخضع لها تلك القفزات ^(١). نستنتج من ذلك المثال ومن رهط من الأمثلة في نظريات علم الطبيعة المعاصرة أن هنالك من الظواهر ما لا تتفق وقانون العلية ولكن العلماء كانوا حريصين على عدم انكار هذا القانون: كانوا حريصين على عدم تقريره ليس هنالك عليية في الكون، ولكنهم كانوا حريصين على تقرير أن ما لدينا من ملاحظات واكتشافات لا تنطوي على علاقة عليية ^(٢)

نلخص موقف العلم المعاصر من مبدأ العلية بقولنا ان القضية (قانون العلية قانون كلي تخضع له كل ظواهر الكون) قضية كاذبة ، هذا من الناحية النظرية البحتة ، وان لدينا الآن من الحوادث والظواهر ما هي بلا علل ، ولكن ليس هناك عدا من جانب العلماء المعاصرين للعليية : إذا جاءت نتائج بعض التجارب تنطوي على العلية اثبتوها ، وإذا جاءت نتائج أخرى معارضة اثبتوها كذلك. يقف العلماء المعاصرون من العلية بمعنى آخر موقف من يرفض الاعتقاد بها اعتقاداً قديماً ، ومن يقبله اذا كان اساسه التجارب ، وبذا فصلوا

(١) J. Jeans, Physic and Philosophy, Cambridge University Press, 1 St ed. 1942, reprinted, 1948, pp. 127, 176.

(٢) لتفصيل ذلك الموقف انظر ما قلناه عن نظرية الكوانتم الجديدة في هذا الفصل .

بين العلية والمنهج العلمي ، قد يخضع العالم للعية وقد لا يخضع . ولا يتأثر منهج البحث برفض العلية . ومن ثم يتضمن المنهج العلمي المعاصر ان ليس كل تفسير علمي تفسيراً عالياً : بعض التفسيرات علية وبعضها الآخر غير علي .

الاستدلال الرياضي :

نشير في هذه الفقرة الى الخلاف بين الاستقراء التقليدي والمنهج العلمي المعاصر فيما يتعلق بفضل الملاحظة والتجربة . كان التقليديون يرون الملاحظة والتجربة أولى مراحل البحث الاستقرائي كما لم يجعلوا لاستقراءهم أساساً رياضياً . لم يشر بكون الى الاستدلال الرياضي بخير أو بشر . وحين أشار جون مل الى ذلك الاستدلال اشار اليه لاعلان نظريته الخاصة في طبيعته إذ رده الى استقراء وان ليست المبادئ الرياضية سوى تجريد وتعميم من ملاحظات جزئية حسية ، وأنكر أن لها أساساً قلياً . ولما ضمن جون مل الاستدلال الرياضي منهجه الاستقرائي انما اتفق مع اسحق نيوتن في موقفه من العلاقة بين الاستقراء والاستدلال الرياضي . وقد اشرنا الى موقف نيوتن من قبل وخلصه ان الملاحظة والتجربة والاستدلال الرياضي لازمان معاً في البحث الاستقرائي ولكن لا قيمة للاستدلال الرياضي إلا اذا كانت الوقائع الجزئية تؤيد النتائج الرياضية الصورية التي وصلنا اليها . ومن ثم اتفق نيوتن مع الاستقرائيين التقليديين في أولوية الملاحظة والتجربة .

فاذا اردنا الاشارة الى موقف المنهج العلمي المعاصر من أولوية الملاحظة والتجربة وجدناه ينكر تلك الأولوية . وما كنا نصل الى الكشف العلمية المعاصرة من نظريات الذرة والكوانتم والنسبية والنظريات في طبيعة الضوء اذا كان العلماء اقتفوا أثر بكون ومل لأن أسس تلك النظريات جميعاً لاتنطوي على وقائع محسوسة ندركها ادراكاً حسياً وانما تنطوي على موجودات لا يمكن ادراكها بالحواس . وتلك النظريات جميعاً مصاغة صياغة رياضية صورية ولا يتوقف صدق تلك الصياغة دائماً على تحقيقها تحقيقاً تجريبياً ، يمكن تحقيق بعضها تحقيقاً تجريبياً بطريق غير مباشر ولكن بعضها الآخر لا يمكن تحقيقها

تجريبياً حتى من حيث المبدأ .

ويعبر انيشتين في النص الآتي الذي كتبه في ١٩٢٩ أصدق تعبير على ذلك الموقف : « يجب ان ينطوى التقدم في المعرفة العلمية على انه يمكن تحصيل الزيادة في البساطة الصورية على حساب اتساع الفجوة بين الفروض الاساسية للنظرية من جهة والوقائع الملاحظة ملاحظة مباشرة من جهة أخرى . لقد اضطرت النظرية الى الانتقال من المنهج الاستقرائي الى المنهج الاستنباطي ، بالرغم من انه يجب أن تكون أي نظرية علمية في اتساق مع الوقائع ^(١) .

وليس هذا الموقف من الملاحظة والتجربة والاستنباط جديداً كل الجدة في القرن الماضي والقرن الحالي ، وإنما يعود بنا إلى جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) . لقد أشرنا من قبل الى ان جاليليو كان معاصراً لفرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) وان كليهما كانا متفقين في هدف هو الثورة على المنهج العلمي الذي شاع في الفلسفة الاغريقية القديمة والفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط ، ولكنها كانتا مختلفتين في نوع المنهج الجديد ، وقد أشرنا كذلك إلى ان نظرية بيكون الاستقرائية لم تؤثر في جاليليو ولم يبد في كتابات الاخير اشارات الى بيكون ، فما موقف جاليليو من المنهج العلمي ؟

يعتبر جاليليو فجر النهضة العلمية الحديثة . شغف بالرياضيات وهو في السابعة عشرة . اخترع الحساب الهندسي Geometrical Calculus كي يستطيع رد الاشكال المركبة الى أشكال أكثر بساطة ، وكتب في السك المتصل . عين في الخامسة والعشرين من عمره استاذ الرياضيات في جامعة بيزا لذيوع صيته بعد كتابته أبحاثاً رياضية عديدة عدا ما سبق . كان يعتبر جاليليو علوم الرياضيات أداة للكشف في العلوم التجريبية وقد كان يعتقد انه لا يمكننا فهم الكتاب العظيم - أي الكون - إلا إذا تعلمنا اللغة التي كتب بها هذا الكتاب والا اذا تفهمنا الرموز الواردة فيه . ذلك الكتاب مكتوب باللغة

(١) النص مأخوذ من كتاب : S. Stabbing, A Modern Introduction to Logic p. 310 .

الرياضية ورموزه هي المثلثات والدوائر والاشكال الهندسية الاخرى ؛ من المستحيل أن نفهم أسرار الكون دون فهم تلك اللغة وحل رموزها ، دون ذلك سيحس قارئ الكتاب انه في ظلمة ليس لها قرار . الكون مؤلف تأليفاً رياضياً ويتوقف فهمنا له على فهمنا لتركيبه الرياضي اكثر من فهمنا لما يقع أمام حواسنا من وقائع وظواهر . ويلاحظ جاليليو ان هذا المنهج الرياضي في تفسير العالم الطبيعي كثيراً ما يتنافر مع الخبرة الحسية المباشرة ، ويستشهد على ذلك بنظرية كوبرنيك في علم الفلك التي تعد نصراً للرياضة على الحواس .

لا يعني ذلك أن جاليليو مهمل او متجاهل للملاحظة الحسية او القيام بتجارب جزئية ولكن يعني فقط أنه يرى في المنهج الرياضي قوة وصدقاً وإحكاماً اكثر مما نجده في الاستدلال بما لدينا من وقائع . يقول انه يستطيع من تجارب قليلة استنباط نتائج صحيحة . معرفتنا لواقعة واحدة اكتسبناها كسباً دقيقاً تيسر لنا فهم وقائع اخرى دون حاجة الى اجراء تجارب عديدة . والشواهد صارخة على ان جاليليو لم يتجاهل الملاحظة الحسية . لقد اخترع مقياساً للنبض في صباه ، وأول نموذج للترمو متر ، ومجهوده في تطوير المقرب Telescope معروف لدى كل طالب في العلوم ، ويقال انه وضع تصميماً لساعة حائط تتحرك بالبندول في آخر سنة من حياته .

ونظريات جاليليو العلمية مشهورة لدى الطلاب المبتدئين : أول من وضع قانون سقوط الأجسام في صورة رياضية محددة ، وأول من جعل من علم الميكانيكا علماً رياضياً وأول من فتح الباب لعلم جديد هو الديناميكا . كان مهتماً بتصوير الحركة . انكر النظريات القديمة في الحركات . كان يقول ان القدماء كانوا يسألون لم الحركة ؟ ومن ثم ادخلوا تصورات العلة الفاعلية والعلة الغائية والفعل والانفعال ولكنهم لم يقولوا شيئاً عن الحركة ذاتها . كانت تشغل جاليليو في تصوره الحركة أفكار القوة والمقاومة والسرعة وتغير السرعة Acceleration وقد اعطاها تعريفات شبيهة بتعريفات الخط والمنحنى والزاوية والاشكال .

كان يتصور جاليليو المادة مؤلفة من ذرات لكنه كان يتصورها ذرات لا تنقسم ، إذ أمكنه بذلك التصور أن يفسر التغيرات التي تحدث في الأجسام الصلبة وتحولها الى سوائل وغازات وأن يفسر الامتداد والتقلص دون ضرورة افتراض وجود خلاء في الأجسام الصلبة . ويعتبر جاليليو أول من صاغ تصنيف صفات الاجسام الى صفات اولية وثانوية (اذ أول من نادى بهذا التصنيف هو روبرت بويل) وكان يحمل على الصفات الأولية الموضوعية والثبات ، بينما كان يحمل على الصفات الثانوية أنها نسبية ذاتية عرضية محسوسة . الصفات الأولية موضوع للمعرفة الالهية والانسانية ، والصفات الثانوية موضوع الظن والخداع . وكانت يرى العدد والشكل المقدار Magnitude والوضع والحركة صفات أولية : هي صفات لا تنفصل عن الاجسام ويمكن التعبير عنها تعبيراً رياضياً . وكان يرى اللون والطعم والرائحة والذوق صفات ثانوية وأنها آثار للصفات الأولية . لا شك أن هذه النظرية الأخيرة شكلت موقف ديكارت في انكار المعرفة الحسية والالتجاء الى بناء فلسفي يتضمن الافكار الفطرية ، كما تسلمها جون لوك وزاد في شرحها وجعلها جزء لا يتجزأ من نظريته في المعرفة ونظريته الميتافيزيقيتين في الجوهر والماهيات الحقيقية للأشياء الجزئية (١) .

التفسير العلمي

نشير في هذه الفقرة الى موقف المنهج العلمي المعاصر من مرحلة فرض والى اي حد يتفق هذا المنهج مع المنهج الاستقرائي التقليدي أو يختلف عنه في فهم تلك المرحلة . اننا اليوم نعطي الفرض معنى غير المعنى الذي كان مألوفاً عند التقليديين ونحن اليوم لا نرى نوعاً واحداً من الفروض هي الفروض العلمية كما كان يرى التقليديون ، ما الفرض العلمي إلا نوع واحد فقط من

(١) أكثر ما كتبه هنا عن جاليليو مستمد من المرجع الآتي :

E. A. Burtt, The Metaphysical Foundation of Modern Physical Science, pp. 61 - 95, Kegan Paul, London, 1934.

الفروض العلمية . وقبل ان نشير الى هاتين النقطتين في المنهج العلمي المعاصر (معنى الفرض وانواعه) نقدم لذلك بكلمة عن اغراض العلم .

للعلم غرضان : احدهما عملي وثانيها نظري . أما الغرض العملي فهو ما يتصوره الرجل العمادي والذي تعبر عنه عبارة فرسيس بيكون المشهورة اصدق تعبير : « المعرفة قوة » Knowledge is Power . كان يقصد بكون بعبارته أن النشاط العلمي والتقدم العلمي واكتشاف النظريات العلمية كلها وسائل تمكننا من السيطرة على الطبيعة . نريد للعلم أن يحقق رفاهية الانسان ومد حياته باسباب الراحة والطمأنينة في حياته العملية . وقد حقق لنا الكثير إذ نجد اماننا السيارة والمسرة والمذياع والتلفزيون والأدوات المنزلية والقطار والطائرة . ونجد اماننا الآلات الصناعية التي تساعد الطبيب والمهندس وغيرهما على خدمة الانسانية ، بل أمكن لبعض الدول أن تجد وسائلها لاسقاط المطر اسقاطا صناعيا . ومن ثم نقول ان العلم حقق ذلك الغرض العملي واصبح أداة طيبة للانسان في سيطرته على مظاهر الطبيعة بما تنطوي عليه رفاهية الناس .

والمقصود بالفرض النظري للعلم فهم العالم من حولنا بما فيه من اشياء وحوادث ووقائع وظواهر وما تتضمنها هذه وتلك من أوجه الحركة والفاعلية وفهم الاشياء من حولنا هو جعل تلك الاشياء مقبولة لدى العقل . والمقصود بالقبول لدى العقل أن نتأكد من ان الطبيعة في سيرها وحركاتها لا تفسر حسب أهواء عبياء وإنما تخضع لقوانين ، فاذا اكتشفنا تلك القوانين امكننا فهم ما يحدث اماننا وامكننا التنبؤ بما قد يحدث في المستقبل . والفهم تفسير . حين نريد فهم ظاهرة أو مجموعة من الظواهر فاننا نريد تفسيرها ، فنقوم بتكوين فرض لنفسر تلك الظواهر أو نفهمها ولكن التفسير لدى العلماء في القرن الماضي والقرن الحالي ليس ذلك التفسير كما كان مألوفاً لدى الاستقراء التقليدي من مجرد إعمال الخيال للوصول الى علة لما يحدث . للتفسير الآن معنى مختلف . من الواضح ان ما نريد تفسيره يتضمن انه مجهول لنا وأنه يثير فينا الدهشة

أو رغبة في مزيد من المعرفة عنه . والتفسير ربط ما يراد تفسيره بما هو معروف لنا من قبل أو ان التفسير هو ربط المجهول بالمعلوم . ان التفسير تقديم اجابة عن سؤال محدد وتكون الاجابة اكثر اقاعا وقبولا اذا تضمنت علاقات بين ما يراد تفسيره وما ألفناه وسلمنا به من قبل . خذ مثالا . اذا صادفك شخص يصعب عليه فهم فكرة تحليل شعاع من الضوء الى ألوان عدة من خلال جهاز الطيف spectroscope يمكنك ان تقدم التصوير الآتي المؤلف له . افرض انك رغبت في دخول دار الخيال ذات مساء فانك ستذهب اليها وقد تجد صفا طويلا ممن يرغبون مثلك دخول الدار أمام نافذة التذاكر للحصول على تذاكرهم . ولكن هؤلاء الناس الذين وقفوا صفا واحدا انما يطلبون مقاعد مختلفة في اماكن مختلفة بأسعار مختلفة . افرض ان لكل نوع من المقاعد لونا خاصا من التذاكر . نلاحظ اننا خارج الدار صف واحد طويل بينما حين يشتري المتفرجون تذاكرهم اخذ البعض مكانا يختلف عن مكان البعض الآخر ، حسب لونه تذكرته والمبلغ الذي دفعه ثمنا لتلك التذكرة . كانوا صفا واحدا دون تمييز في الخارج ولكنهم صنفوا في الداخل . الصف الواحد الطويل شبيه بشعاع الضوء ، و نافذة بيع التذاكر واعطاء التذاكر شبيه بجهاز الطيف ، وتصنيف الناس في الداخل شبيه بتحليل الضوء الى ألوان متعددة . إن قدمت لصاحبنا هذا المثل المؤلف فقد سهل الصعب في فكرة تحليل الضوء الى سبعة ألوان متميزة .

وليس التفسير العلمي مقصوراً على ربط ظاهرة نريد تفسيرها بظاهرة مألوفة لنا ، وانما قد يكون التفسير العلمي ايضاً ان نفهم نتيجة استقرائية بنتيجة استقرائية اخرى تعتمد عليها . وبمعنى آخر قد يفسر القانون العلمي قانوناً علمياً آخر . نعلم مثلاً ان الجهد الشاق الناتج عن صعود جبل يؤدي الى زيادة لا ارادية في التنفس سواء في عمقه أو في درجته . يمكن تفسير هذا التعميم التجريبي ببعض حقائق علمي الاحياء والفسولوجيا - يمكن تفسيره بالتعميم التجريبي القائل بان الجهد الشاق يؤدي الى زيادة في كمية ثاني اوكسيد

الكربون في الدم وتسبب هذه الزيادة عضواً صغيراً في المخ ان يرسل اشارات معينة من خلال القوس العصبي الذي ينتهي الى العضلات المتحركة في التنفس . ويتضمن التفسير بهذا المعنى انه لا يوجد قانون أولي أي لا يوجد قانون هو مبدأ كل القوانين ولا يسبقه شيء ، وإنما كل قانون معتمد على قوانين سابقة ومؤد بنا الى قوانين تالية . ومن ثم نصل الى معنى النظرية العلمية . النظرية العلمية مجموعة من القوانين العامة التي يرتبط احدها بالآخر ارتباطاً متسقاً يعتمد بعضها على بعض وهي جميعاً متعلقة بنوع واحد من الظواهر ، وكل قانون في هذه النظرية العلمية او تلك إنما يفسر جانباً معيناً من تلك الظواهر ، بحيث ان مجموعة تلك القوانين المؤلفة للنظرية العلمية تفسر تلك الظواهر من كل جوانبها . نقول مثلاً قانون سقوط الاجسام ونظرية الجاذبية ، نقول قانون النشاط الاشعاعي والنظرية الذرية ، نقول قوانين حركات الفوتونات والاشعاع والطاقة والنظرية الموجية في طبيعة الضوء ، وهكذا .

نعود الى وظائف العلم العملية والنظرية : تحقيق رفاهية الانسان أو العمل على دماره من جهة ، وفهم ظواهر الكون وتفسيرها من جهة اخرى . ينبغي ألا نخلط بين المنفعة والتفسير وإلا وقعنا في اضطراب شديد . الوظيفة الاساسية للعلم هي التفسير ، وما المنفعة العملية الا وظيفة ثانوية . ولا نعني بذلك ان الوظيفة العملية عديدة القيمة أو قليلتها وإنما نعني فقط ان التفسير هدف أول وتحقيق الرفاهية هدف ثان ، ليس التفسير وسيلة لتحقيق الرفاهية ، وإنما هو غاية في ذاتها — غاية ارضاء رغبة انسانية في الفهم . لا ننكر أن يكون التفسير احياناً وسيلة لنا في تحقيق منفعة ولكننا ننكر ان تنحصر كل قيمته في جلب المنافع العملية . إن العالم في معمله لا يبحث أول ما يبحث عما يحقق للناس من حياة رغيدة ، وإنما يبحث ايضاً عن بناء نسق نظري من خلاله يفهم ما يجري في الكون وينقل فهمه الى الآخرين . جعل المنفعة العملية غاية في النشاط العلمي خلط بين النظرية وتطبيقها . انه الخلط بين قوانين علم الضوء واطاء المنازل بالكهرباء ، بين قوانين علم الصوت وصناعة

الميكروفون ، بين قوانين النظرية الذرية والنظرية النسبية من جهة وصناعة القنابل الذرية والنووية والاقمار الصناعية والصواريخ ومراكب الفضاء من جهة أخرى. قد تقول ولكن صناعة الاقمار الصناعية ... الخ تطبيق لنظريات سابقة ولكنها رغم ذلك تهدف الى تحقيق علمي نظري جديد كالوصول الى مزيد من علم عن عالم الافلاك ! نعم . نشأت النظرية اذن بقصد فهم الكون وتفسيره ، وادت الى تمكيننا من تطبيقها للاستفادة فوائد نظرية تفسيريه جديده . عدنا اذن الى ان التفسير هدف أول . وان التطبيق وسيلة لتفسير جديد . أما التطبيق بالمعنى الذي ارشدنا اليه بكون له قيمته ولكن ليست هي كل قيمة العلم .

القانون العلمي تفسير أم وصف

لقد نشأت في اواخر القرن التاسع عشر موجة فكرية جديدة أبرز اعلامها إرنست ماخ Mach واوستفالد Ostwald وكارل بيرسون Pearson سموا انفسهم بالوضعيين^(١) ؛ أنكروا أن القانون العلمي تفسير وأعلنوا أنه وصف فقط لما يجري امامنا من ظواهر. في العالم الطبيعي . لقد رأوا ان التفسير ليس وظيفة للعلم . دفعهم الى هذه النظرة الوصفية للعلم دافعان .

أولاً : كان هؤلاء الوضعيون يعتقدون أن التفسير يتضمن ان العلم يجب عن اللّسم أي ان العلم يهدف في نهاية مطافه الى البحث عن العلل ، ولكن قد ولي الآن هذا العهد ، وأن العلم الآن يجب عن الكيف أي مجرد وصف ما يحدث . كان إنكارهم للبحث في العلل مستمداً من انكارهم للفلسفات الميتافيزيقية القديمة التي كانت تتحدث عن ماهيات الاشياء والعناصر الخفية التي توجه ظواهر تلك الاشياء ، كما كانت تتحدث عن العلل الغائبة . أما وقد انقضى عهد البحث عن الماهيات والعلل الغائبة فقد انقضى معها عهد البحث عن

(١) لا صلة لهؤلاء الوضعيين بمدرسة الوضعية المنطقية التي سلتير اليها اشارة عابرة في الفصل التالي . تتضمن وضعية ماخ وزملاؤه تأثيرهم باوجست كوت في قانون الحالات الثلاثة.

العلل بالإجمال . أصبح العلم في نظر الوضعيين مقيداً بعالم الظواهر المدرك ادراكاً حسيّاً ، وفي فهمنا له نفهم كل الحقيقة عنه وأن ليست له حقائق تخفي على ادراكنا الحسي . وكانوا قد تصوروا - وجون مل مسؤول عن هذا التصور - أن كل تفسير إنما هو تفسير علّي ؛ أما وقد أنكروا البحث عن علل فقد أنكروا أن العلم تفسير .

وعلى هذا الهجوم الوضعي اعتراض على الأقل : أ - ليس كل تفسير علمي تفسيراً علّياً^(١) . ب - ليس كل تفسير علّي إنما يتضمن بحثاً في الماهيات والأشياء في ذاتها . وقد أشرنا فيما سبق حين تعرضنا لموقف المنهج العلمي المعاصر من مبدأ العلّية إلى أن من القوانين العلمية ما لا تتضمن الرباط العلّي . وقد أشرنا كذلك حين تعرضنا لتحليل هيوم لتصوير العلّية أن للعلية معان عدة وأن ليست العلية تستلزم بحثاً فيما لا يدرك ادراكاً حسيّاً . وأن هنالك من التفسيرات العلية ما يتضمن أن طرفي العلية مدرك ادراكاً حسيّاً . البحث في العلية بمعنى آخر لا يتضمن بالضرورة بحثاً في الماهية . نضيف أيضاً أنه لا طعن في نظرية علمية تفسر لنا علاقات علية بين الظواهر .

ثانياً : الدافع الثاني لإنكار الوضعيين للسمة التفسيرية للقانون واصرارهم على السمة الوصفية فقط مستمد مما رأوه في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر من تقدم علم الكيمياء . وجد الوضعيون أن علماء الكيمياء - ابتداء من دولتون Dalton الذي نادى بالنظرية الذرية - أدخلوا تصورات تتضمن وجوداً حقيقياً لكائنات غير مدركة ادراكاً حسيّاً حتى من حيث المبدأ ، كما أن علماء الكيمياء أصرّوا على أن علمهم يتقدم بسرعة نتيجة وضع فروض تتضمن تلك الكائنات . وبذا استطاعوا تفسير عدد هائل من الظواهر المحسوسة والحوادث المدركة عن طريق الاستنباطات الصورية وادخال الصيغ الرياضية المتعلقة بتلك الكائنات المفروضة . ومن ثم ظهرت الفجوة في مضمون علم الكيمياء بين ما يدرك بالحس وبين النظرية العلمية التي تستعين على تفسير ما يدرك بالحس بفروض لا تشير إلى ما يدرك بالحس . هذا الموقف في علم

(١) راجع ص ١٣٦ - ١٤٠ .

الكيمياء وغيره من العلوم أدى بالوضعين الى القول بأن العالم الحقيقي هو عالم الظواهر فقط وأن ما يفرض الكيمياء وجوده بالاستنباط لا أساس له . ومن ثم رأوا مجرد الوصف لا التفسير عن طريق فروض لا يدرك مضمونها هو الموقف العلمي الدقيق .

سوف يتبين فيما بعد ان الكشوف العلمية الحديثة والمعاصرة في علمي الطبيعة والكيمياء مستندة الى افتراض وجود أشياء لا يمكن ادراكها بالحواس . ولكن جوهر موقف الوضعيين خاطيء لأن مجرد الوصف لا يعني أكثر من ملاحظة وقائع وتجريب حوادث وظواهرات ، وتسجيلها ، ولكن لن نصل الى قانون علمي او نظرية علمية بمجرد تسجيل ما يحدث ، لا بد من تسجيلها والربط بينها وفهم الطريقة التي حدثت بها هذه الحادثة او تلك . والربط والفهم انما هو تفسير . ولم يكن فرنسيس بيكون او جاليليو او جون مل أقل كراهية للأسس القبلية والصورية للعلوم التجريبية ، ومع ذلك أدركوا بوضوح ان التقدم العلمي لا يقوم على وصف ما يحدث بل على وصفه وتفسيره .

نشير في هذا المقام الى انواع الفروض او التفسير كما يراها العلماء المحدثون والمعاصرون . يمكن تصنيف التفسير العلمي الى أصناف ثلاثة : تفسير علتي وتفسير وصفي لا يكتفي بمجرد الوصف وانما يهدف الى الوصف المثمر ، واخيرا التفسير الفرضي .

أما النوع الثالث من التفسير وهو التفسير الفرضي فهو موضوع لفقرة تالية حين نتحدث عن (الفروض الصورية) . وأما النوع الاول من التفسير وهو التفسير العلمي فان العلماء المحدثون لا ينكرونه ولكنهم ينكرون أنه التفسير الوحيد ، فهناك تفسيرات عليية وتفسيرات غير عليية . وأما النوع الثاني من التفسير وهو التفسير الوصفي المثمر فهو تفسير غير علي . ويعتبر المنهج الاستقرائي التقليدي منهج البحث عن التفسيرات العلية . وسنذكر في الفقرة التالية مثلاً يوضح التفسير الوصفي المثمر .

الفروض الوصفية المثمرة

تختلف الفروض الوصفية المثمرة Constructive descriptions عن الفروض في الاستقراء التقليدي في أنها ليست اقتراحات تفسر مجموعة من الظواهر والوقائع الجزئية تفسيراً عاماً وأنها ليست تستبق قوانين عامة تنتظر التحقيق التجريبي ، وإنما هي فروض تصف نوعاً معيناً من الظواهر ، لا مجرد وصف ، وإنما وصف يمكننا من أن نفهم تلك الظواهر فهماً دقيقاً . وتتميز تلك الفروض بأنها فروض مؤقتة تقبل التطوير . نلاحظ أن الفرض الوصفي المثمر إنما هو تفسير بالمعنى الذي قلناه آنفاً وهو تفسير ظاهرة مجهولة بأخرى معلومة لنا مألوفة من قبل . سنأخذ مثلاً من علم الفلك يوضح معنى ذلك النوع من الفروض . سنشير إلى الفروض التي نادى بها بطليموس لتفسير حركات النجوم والكواكب وتطور ذلك الفرض على أيدي كوبرنيك وكبلر .

عاش كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemy في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي^(١) . ويعتبر من أضخم علماء الفلك اليونان الذين استقروا بمدرسة الاسكندرية حين كانت مصر تحت حكم الرومان ، ويقارن بطليموس في علم الفلك في تلك الحقبة من الزمن بأقليدس (٣٣٠ - ٢٧٥ ق م) في علم الهندسة ، وكان هذا مستقراً في نفس المدرسة ولكن في بداية ازدهارها في عهد البطالمة . وقد دون بطليموس نظريته الفلكية في الكتاب الذي سماه العرب « المجسطي » Almagst ، ويقال انه ظهر حوالي سنة ١٥٠ ميلادية .

كان بطليموس يتصور الأرض ثابتة في مركز الكون ، والشمس والقمر والكواكب تدور حولها ، وكانت الكواكب المعروفة وقتئذ هي المريخ Mars والمشتري Jupiter وزحل Saturn وعطارد Mercury والزهرة Venus ، وكان يتصور وجود النجوم الثابتة ولا يعني هذا انها نجوم لا تتحرك وإنما بعيدة جداً عن الشمس وتتحرك في الفضاء

(١) كلوديوس بطليموس الفلكي الذي نتحدث عنه لا ينتسب إلى البطالمة ملوك مصر في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد . انه اشتراك في الاسم فقط .

حول الأرض باعتبارها المركز . لم يكن بطليموس صاحب هذا التصور وإنما هو تصور اليونان القدماء السابقين عليه والمعاصرين له بوجه عام . نقول بوجه عام لأن فيثاغورس كان قد نادى بأن الأرض ليست ثابتة في مركز الكون وإنما تتحرك حول الشمس ، وكان ذلك مجرد تأمل لم يقيم على أساس بحث دقيق ، وقد نادى أريستارخوس Aristarchus الذي ولد حوالي سنة ٣١٠ ق.م. بأن الشمس ثابتة بينما تدور الأرض حولها في دائرة ^(١) ، وقد نادى هيبارخوس Hipparchus حوالي سنة ١٤٠ ق.م. بأن الأرض ليست في مركز مدار الشمس ، ويعزى إلى هذا أيضاً معرفة القدماء لعدد النجوم الثابتة وقد رأى هيبارخوس منها حوالي ١٠٠٠ ^(٢) . لقد أنكر بطليموس تصورات فيثاغورس وأريستارخوس وهيبارخوس - تلك التصورات التي سيكون لها شأن في القرن الخامس عشر الميلادي كما سنرى .

أراد بطليموس أن يصف حركات النجوم والكواكب وصفاً يمكننا من المعرفة الدقيقة لمدارات تلك الأفلاك والتنبؤ بأوضاعها في أي وقت في المستقبل . كان يتصور مدار أي نجم أو كوكب حول الأرض مداراً دائرياً . وذلك التصور قديم قدم أرسطو الذي علم أن الحركة الدائرية هي الحركة الطبيعية لكل فلك لأن الدائرة أكمل الأشكال الهندسية . ولم يكن يمتقد القدماء كلهم وبطليموس بذلك فحسب ، بل ظل الاعتقاد سائداً حتى في أيام كوبرنيك ، ويقال إن جاليليو اعتقد بالحركة الدائرية للأفلاك بعض الوقت ^(٣) . وقال بطليموس إن الأرض ثابتة في مركز الكون وإن الشمس والقمر والنجوم الثابتة تدور حولها في مدارات دائرية . وتكون الأرض مركزاً لكل لتلك الدوائر وكان ذلك معروفاً من قبل كما قلنا . إن الفكرة

(١) L. W. H, Hull, History and Philosophy of Science, 1st ed. 1959, 4. th impression, 1965, London, p. 75.

Ibid, p. 87-9 .

(٢)

J. Jeans, Physics and Philosophy, p. 105.

(٣)

الهامة التي ميزت فرض بطليموس هي وصفه لحركات الكواكب حول الأرض. قال انها في دورانها لا ترسم مدارات دائرية cycles مركزها الأرض وانما ترسم دوائر متقاطعة في حركتها epicycles . ومعنى الدائرة المتقاطعة المتحركة هي حركة الكوكب حركة دائرية حول مركزها ، هذا المركز يدور مداراً دائرياً مركزه الأرض . وقد اعطى وصفاً هندسياً دقيقاً لكل كوكب وهو يقوم بتلك الدوائر المتقاطعة في حركتها ، ومن ثم عرف فرضه على انه فرض معقد . ويمكن تصوير هذه المدارات المعقدة للكواكب بقولنا ان تلك الكواكب تتحرك حركة دائرية على سطح مستو فسيح ، وهذا السطح الفسيح يتحرك بدوره حركة دائرية اخرى حول الأرض الثابتة .

لاحظ الفلكيون بعد بطليموس ان فرضه ليس معقداً فحسب بل واصبح لا يتفق مع الوقائع . لوحظ ان الأرض ليست دائماً في مركز مدار الشمس ، وأن المشتري والزهرة لا يتبعان وصف بطليموس في مدارهما ، واننا لم نستطع عن طريق فرض بطليموس ان نتنبأ بحركات أي نجم مذنب comet قد يكون موضوع مشاهدتنا . ومن ثم أصبح تطبيق هذا الفرض والعمل به صعباً للغاية^(٤) ومن ثم اشتدت الحاجة الى فرض جديد يصف لنا نفس الظواهر الفلكية التي كانت تشغل اليونان القدماء وقد تم ذلك على يد كوبرنيك . لقد كان كوبرنيك Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) من اشهر علماء الفلك في القرن الخامس عشر . بولندي الاصل لكنه قضى وقتاً طويلاً في ايطاليا . بدأ حياته رجلاً من رجال الدين لكنه شارك بعض الوقت في الوظائف السياسية وكانت حكومته تلجأ اليه من حين لآخر في حل مشكلات بولندا الاقتصادية . كان واسع الاطلاع في ثقافة الاغريق القديمة ولغتها ، فقرأ فيما قرأ افتراح الفيشاعوريين أن الأرض متحركة وانها تدور حول ما كانوا يسمونه ناراً مركزية Central Fire . وليس هنالك من شواهد على ان كوبرنيك قرأ ارستارخوس الذي اقترح ان الأرض تدور وأن الشمس

Hull, op.cit. , pp. 95-6 .

(٤)

مركز مدار الأرض . فان صح ذلك يكون كوبرنيق قد وصل الى ان الأرض تتحرك حول الشمس - كما سنقول بعد قليل - دون ان يعلم باقتراح ارسطارخوس . وكانت نظرية بطليموس وقتئذ هي النسق الفلكي السائد : كان الاعتقاد به سائدا بالرغم من ظهور وقائع كثيرة تتعارض مع ذلك النسق وبالرغم من الشعور بأنه نسق رياضي غاية من التعقيد . ومن ثم أخذ كوبرنيق اقتراح الفيثاغوريين مأخذ الجد وكتب فرضا لتفسير تعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول الاربعة ، ووصف حركات الكواكب والشمس بالنسبة الى الأرض - كتب فرضه في كتاب عنوانه Revolutionibus Orbium Coelestium واهداه إلى البابا بولس الثالث ، ولكنه لم ينشر إلا في سنة وفاة مؤلفه .

يمكن الإشارة الى فرض كوبرنيق فيما يلي . احتفظ بعنصرين من عناصر فرض بطليموس وانكر عنصر ثالثا . احتفظ بالقول بأن الكواكب تتحرك في مدارات دائرية وبالقول بأن بعض الكواكب تتحرك في دوائر متقاطعة ، واختلف عن بطليموس في وضع الشمس مكان الأرض أي اعتقد ان الشمس هي الجرم الثابت في مركز الكون وان الأرض هي التي تدور حولها . لقد رتب الكواكب المعروفة في عهده وقتئذ وهي ستة بحسب قربها من الشمس ، فرتبها الترتيب التالي : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل ، ولاحظ أن الكوكب الأقرب من الشمس يتحرك بسرعة أكبر من الكوكب الأبعد عن الشمس وأنه يدور مدارا أصغر . ومن ثم رأى ان عطارد مثلا يتم دورته الدائرية حول الشمس في ثلاثة اشهر بينما يتم المشتري دورته الدائرية حول الشمس في اثني عشرة سنة . لاحظ ان الأرض تدور مرة كل يوم حول محورها بالإضافة الى دورتها مرة كل عام حول الشمس . لقد بنى كوبرنيق ملاحظاته تلك على أسس هندسية بحتة يعبر عنها بالدوائر التي ترمز الى المدارات والخطوط التي ترمز إلى طول قطر المدار وإلى مسافة هذا الكوكب أو ذاك بالنسبة الى الشمس . كانت تعوزه الآلات الفلكية الدقيقة كالتلسكوب

ولكنه كان وصل من ملاحظاته وصيغه الهندسية إلى التساؤل الآتي : اذا كان فرض بطليموس صحيحا فان الزهرة لن يبدو لنا منه الضوء بشكل اكبر من نصف دائرة ؛ اما اذا كان الزهرة يدور حول الشمس فانه حين يرى من الأرض فانه ينبغي أن ترى منه وجوه تتباين من الهلال الى الدائرة الكاملة مثل القمر. وقد ظل هذا التساؤل بلا جواب حتى اخترع اول مقرب في ١٦٠٨ على يد ليپرشى Hans Lippershey ، وفي السنة التالية اخترع جاليليو مقربا اكثر تطورا ووجد التجربة الحاسمة Experimentum Crucis التي تقرر ما اذا كان فرض بطليموس أم فرض كوبرنيق هو الفرض الصادق المتفق والوقائع : لقد رأى جاليليو الزهرة في شكل الهلال وذلك اول تأييد تجريبي على بطلان فرض بطليموس وصحة فرض كوبرنيق (١) .

نلاحظ أن لدينا الآن فرضين - فرض بطليموس وفرض كوبرنيق ، وقد تبين أن الفرض الثاني وصف أدق للظواهر قيد البحث كما انه اكثر بساطة وأقل تعقيدا . لم يجد كوبرنيق سبيلا الى تجنب الدوائر المتقاطعة في حركتها ولكنه استعان بعدد اقل كثيراً من عدد تلك الدوائر التي وصفها بطليموس ومن ثم كان فرض كوبرنيق اكثر بساطة . وشاع هذا الفرض واصبح الفرض المقبول وقتئذ . ولكن ذلك لا يعني ان فرض كوبرنيق فرض صادق وثام ؛ إذ بعض عناصره خاطئة كما أن الفرض ككل ناقص . لقد أخطأ كوبرنيق في جعل مدارات الافلاك مدارات دائرية ، كما انه أخطأ في متابعة بطليموس في الدوائر المتقاطعة في حركتها . ونظرية كوبرنيق ناقصة لأننا لا نعتبر الشمس ثابتة في مركز الكون وانما تتحرك حول مجموعات نجمية أخرى ؛ وهذه تتحرك حول مجموعات نجمية اخرى . ولم يكن عدد الكواكب المؤلفة للمجموعة الشمسية سبعة كما ظن كوبرنيق . لقد صحح كيبلر خطأ كوبرنيق فيما يتعلق بالمدارات الدائرية للكواكب ، وترك تصحيح كوبرنيق وتسكيل

(١) انظر :

Hull, Op. cit., pp. 128 - 133.

Jeans, The New Background of Science, pp. 151 - 2.

نقصه في المسائل الأخرى للاكتشافات الفلكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

كان كبلر (١٥٦١-١٦٣٠) متفقاً مع كوبرنيق في أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس ، وكان مقتنعاً بأن تلك الكواكب تتحرك طبقاً لقوانين هندسية بسيطة يمكن التعبير عنها تعبيراً رياضياً دقيقاً . ولكن كبلر اختلف عن كوبرنيق في وصف مدارات الكواكب حول الشمس . بدأ ملاحظاته على كوكب المريخ ووجد أن في ملاحظة ذلك الكوكب قيمة كبرى لأنه اقرب إلينا من عطارد والزهرة ولأنه يرى من الأرض لفترة طويلة في الليل ولأنه يمكننا تتبع مداره حيث يدور بسرعة .

وصل كبلر في دراساته للمريخ إلى ثلاثة قوانين في سنة ١٦٠٩ تصف مدار المريخ ، وبعد عشر سنين من مزيد البحث طبق هذه القوانين على مدارات الكواكب الأخرى ، وهذه القوانين الثلاثة والمشهورة بقوانين كبلر هي :

- ١ - مدار الكواكب مدار بيضاوي والشمس مركز هذا المدار .
- ٢ - الخط الواصل بين الكوكب والشمس يكوّن في الفراغ مساحات هندسية متساويات في ازمان متساوية .
- ٣ - مربع الزمن الذي يقطعه الكوكب لاتمام مداره حول الشمس متناسب تناسباً طردياً مع مكعب المسافة بينه وبينها .

بتلك القوانين أمكن لكبلر أن يطيح بالمدار الدائري للكواكب والنجوم وأن يستغني عن الدوائر المتقاطعة . كان بطليموس وكوبرنيق اصحاب شهرة أكثر مما يستحقان لأن جهدهما لم يكن جهد اكتشاف وإنما جهد الجامع والمنسّق لما سبق قوله ، زد على ذلك أنه امكن الآن استغنائنا عن فرض بطليموس استغناء تاماً وإن فرض كوبرنيق تضمن اخطاءً وواجه نقص كثيرة كما اشرنا إلى ذلك من قبل . أما كبلر فانه أكثر علماء الفلك حتى القرن السابع عشر

قيمة بالنظرية الجديدة التي لم يسبقه أحد اليها قديماً أو حديثاً - هي ان الكوكب لا يدور في شكل دائرة وانما في شكل بيضاوي ^(١) .

لسنا هنا بصدد تتبع تطور النظريات الفلكية بعد كبلر فانه يخرج بنا عن غرضنا من هذه الفقرة ^(٢) . هدفنا من الاشارة الى فروض بطليموس وكوبرنيك وقوانين كبلر هو أننا بصدد فروض علمية وليست فروضاً اسطورية أو ميتافيزيقية أو دينية ، وان تلك الفروض وصفية لكنها ليست مجرد وصف لما يقع أمامنا ومن حولنا من ظواهر ووقائع وانما فروض وصفية مثمرة : تصف نوعاً معيناً من ظواهر العالم الطبيعي وصفاً يؤدي بنا الى فهمها فهماً دقيقاً أي تفسيرها تفسيراً دقيقاً . وليست تلك الفروض الوصفية المثمرة او تلك الفروض التفسيرية فروضاً تنطوي على علاقات علّية مثل العلاقة بين الحرارة والحركة أو بين تناول الطعام المسموم والوفاة أو بين البرق والرعد أو بين تراكم السحب وسقوط المطر . وليست تلك الفروض الوصفية المثمرة بما تتضمن تحقيقاً تجريبياً يقوم على الملاحظة والتجربة في أساسها وانما يقوم

(١) L. W. H. Hull, op. cit., pp. 134 - 140 .

(٢) بعد وفاة كبلر بثمان واربعين سنة طلع علينا اسحق نيوتن بكتاب « المبادئ الرياضية في الفلسفة الطبيعية » (١٦٨٧) الذي سجل فيه نظريته في الجاذبية ، وأبان أن تلك النظرية تفسر المدارات البيضاوية التي ضمنها كبلر في قوانينه الثلاثة ، وقد فسرت النظرية عدداً ضخماً من الظواهر والوقائع مثل سقوط الاجسام ودوران القمر حول الارض ودوران الارض والكواكب حول الشمس وظواهر المد والجزر : كما فسرت ايضاً ظهور النجوم ذوات الذيل Comets وأبان نيوتن ان ما هذه النجوم سوى كتل من مادة ساكنة Mere chunks of inert matter اضطرت الى دورة حول الشمس بنفس القوى التي شرحت بها حركات الكواكب . وظلت نظرية الجاذبية عند نيوتن سائدة حتى جاء ليقرئيه Leverrier في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ووجد ان عطارد لا يتسق ووصف نيوتن : اقتضى نيوتن ان يكرر اي كوكب مداره البيضاوي حول الشمس أبداً ولكن تبين أن عطارد يدور مداراً بيضاوياً ينحرف في الفضاء عن ذلك المدار مرة كل ٣ مليون سنة تقريباً . ثم تنالت الوقائع من بعد لتكشف أن نظرية نيوتن لا تفسر كل الحركات ومن ثم ظهرت الحاجة الى نظرية أخرى فكانت النظريات النسبية التي اكتشفها اينشتاين التي لم تفسر فقط كل الظواهر التي فسرتها نظرية نيوتن ولكن فسرت أيضاً عدداً هائلاً آخر من الوقائع والظواهر الفلكية والطبيعية . وكانت تقام في نفس الوقت نظريات أخرى - غير النسبية - تكون بديلة بعلم الميكانيكا النيوتوني ،

تحقيقها أولاً وقبل كل شيء على مدى اتساق التفسير الرياضي وإحكام الانتقال من مقدمات الى نتائجها انتقالاً صورياً كما هو متضمن في طبيعة البرهان الهندسي . كان ذلك حال قوانين كبلر في وصف حركات الارض والكواكب والنجوم . تلك القوانين مثل على الفروض الوصفية المثمرة بالمعنى الذي حددناه . وما كانت فروض بطليموس وكوبرنيق إلا تقديم وتمهيد لتلك الفروض . حقاً تعتبر هذين الفرضين الاخيرين من الفروض الوصفية التي كانت مثمرة في وقت ما ولكن تبين فيما بعد أن بعض عناصرها قام على اساس خاطيء وبعضها الآخر في حاجة الى تطوير . ولقد تضمنت قوانين كبلر تصحيح تلك الاخطاء وتحقيق ذلك التطوير .

الفروض الصورية

أشرنا فيما سبق الى أن المنهج العلمي المعاصر يتميز بخاصتين أساسيتين : أولاهما أنه لا ينكر مبدأ العلية ولكنه ينكر أنه مصادرة أولى منهجية ، ينكر أن يبدأ بالمصادرة على أن كل ظواهر الطبيعة ترتبط فيما بينها ارتباطاً عللياً ، ولكن يسمح هذا المنهج بالحكم على ذلك الارتباط متى وجدته بين الظواهر . لقد فصل المنهج العلمي المعاصر بمعنى آخر بين تصور العلية وتصور البحث الاستقرائي وأن الصلة بينها ليست ضرورية ، لا عيب في بحث استقرائي لا يصادر على العلية ، فاذا تبين من بحثنا أن هنالك علاقة عليّة بين عدد من الظواهر أعلنّا تلك العلاقة ، وإذا وجدنا أن عدداً آخر من الظواهر لا يتضمن تلك العلاقة فإنه لا عيب في نتائجنا التي نصل اليها من بحث تلك الظواهر .

والخاصة الثانية للمنهج العلمي المعاصر هي أن الاستدلال الرياضي واللغة الرياضية أداة تسير جنباً الى جنب مع الملاحظة والتجربة بل قد تفضل الاداة الاولى على الثانية .

وأشرنا فيما سبق أيضاً الى ان للفرض العلمي معان مختلفة في المنهج المعاصر:

ليس التفسير العليّ هو كل التفسير، فهناك تفسيرات علمية غير عليّة وضربنا نموذجين من الامثلة على هذا النوع من التفسير : النموذج الذي يتمثل في كثير من القوانين العامة التي تصل اليها العلوم الطبيعية بوجه عام والكيمياء والاحياء بوجه خاص ، والنموذج الذي يتمثل في القوانين التي يصل اليها علم الفلك وغيره مما سميناه نموذج الفرض الوصفي المثمر .

ويمكن تصنيف الفروض العلمية في المنهج العلمي المعاصر على اساس آخر غير الاساس العليّ . يمكن ان نصنف الفروض العلمية الى ما يقبل التحقيق التجريبي المباشر وما لا يقبل التحقيق المباشر . ونموذج الفروض العلمية التي تقبل التحقيق التجريبي المباشر هو ما نجده بصورة واضحة في علوم الاحياء والفسيولوجيا ، فالقانون بأن الجهد الشديد يؤدي الى زيادة لا ارادية في عمق التنفس ودرجته يمكن رده هو وغيره من القوانين البيولوجية الى قوانين اخرى اساسية تتعلق بالمركبات الكيماوية التي هي ذاتها تعميمات من الخبرة الحسية .

موضوع هذه الفقرة هو الاشارة الى النوع الآخر من الفروض التي يتضمنها المنهج العلمي المعاصر وهي تلك الفروض التي لا تتضمن تحقيقاً تجريبياً مباشراً، سنسمي هذه الفروض «فروضاً صورية»^(١) . الفرض الصوري فرض علمي لا يشير مضمونه الى ما يمكن ان يخضع للادراك الحسي ويظهر أن «صوري» Transcendental مستعارة من نظرية عمانوئيل كنت في المعرفة : يطلق «الصوري» على ما نصل إليه مستقلاً عن الخبرة الحسية وما لا يشتق منها ولكنه في نفس الوقت عنصر أساسي في فهم تلك الخبرة .

لتوضيح معنى الفرض الصوري نشير الى بعض خصائصه : الاشارة الى كائنات واقعية لا تخضع للادراك الحسي ، التحقيق التجريبي المباشر له غير ممكن ، تفسير عدد من القوانين التي سبق الوصول اليها من تعميمات تجريبية عن طريق الربط بين تلك القوانين ربطاً يساعدنا على مزيد من قبولها .

(١) أول من اقترح تسمية هذا النوع من الفروض «بالصورية» هو المنطقي الانجليزي وليم نيل . راجع : W. Kneale, Probability and Induction, p. 93 .

ان الكائنات التي يتضمنها الفرض الصوري لا سبيل لنا الى ادراكها ادراكاً حسياً ، ليست كائنات يعوزنا في الوقت الحاضر ادراكها ، وقد ندركها في المستقبل ، لا . انها كائنات غير مدركة حسياً من حيث المبدأ لا يمكن ملاحظتها بالحواس أو بأدق الاجهزة العلمية . اننا لاندرکها وبالرغم من ذلك نفترض وجودها لانها تساعدنا على فهم ظواهر معينة لا يمكننا فهمها إلا بتلك الفروض . وما دامت غير مدركة ادراكاً حسياً يلزم أنها لا تقبل التحقيق التجريبي المباشر . ولكن لا بد للفرض العلمى من اختبار صحته ومدى انطباقه على الوقائع ، وطريقنا الى ذلك هو تحقيقه تحقيقاً تجريبياً . ان الفرض الصوري موضوع لتحقيق تجريبي غير مباشر . والمقصود بالتحقق غير المباشر هو استنتاج نتائج واستنباط قضايا تلزم عن ذلك الفرض ، ثم وضع تلك النتائج والقضايا المستنبطة موضع التحقيق التجريبي . وقد يحدث أن تظل تلك النتائج والقضايا ذات طابع صوري بحت وذلك لانها مشحونة بالصيغ الرياضية أي ما يمكن التعبير عنها فقط بلغة رياضية بحتة - في تلك الحالات يجب أن نستنبط من تلك النتائج والقضايا نتائج أخرى تلزم عنها مما يمكن تحقيقها تحقيقاً تجريبياً مباشراً .

ومن خصائص الفرض الصوري - بالإضافة الى انه يدل على موجودات لا تدرك بالحواس بأي وسيلة وانه ممكن التحقيق التجريبي بطريق غير مباشر فقط - أنه يفسر عدداً من القوانين العلمية التي سبق لنا الوصول اليها بتعميم من الخبرة الحسية في مجال ظاهرة أو عدة ظواهر معينة : يحدث كثيراً أننا نصل الى قانون أو عدة قوانين تتضمن أحكاماً عامة عن سلوك هذا النوع من الظواهر أو تلك ، ولكن تلك القوانين المتعددة قد تكون مفتقرة هي ذاتها الى تفسير ، ، ويحدث كثيراً أن تلك القوانين المتعددة المتعلقة بنوع معين من الظواهر غير مترابطة أي العلاقة بين قانون والآخر غير واضحة ، وظيفة الفرض الصوري أن يقدم لنا تفسيراً لتلك القوانين ورابطة منطقية تصل بين القانون والآخر . مثال على ذلك أن القوانين المتعلقة بخواص الغازات التي نادى

بها كلارك ماكسويل C. Maxwell وهي قوانين قامت نتيجة بحث استقرائي واستدلالي دقيق ثم تبعم هذا البحث في صورة قضايا عامة أو قوانين - تلك القوانين كانت محتاجة الى تفسير ووجدت تفسيرها في افتراض وجود الذرة. لقد وجد ماكسويل للغاز ضغطاً وأن له طاقة معينة في حركته يمكن حساب سرعتها وان هنالك علاقة بين درجة حرارة الغاز وطاقة حركته وسرعتها . كانت هذه التعميمات التجريبية محتاجة لتفسير ، ووجد ماكسويل تفسيرها في الفرض الذري الذي بدأ البحث فيه على يد دالتون قبل قرن ونصف - أمكن لماكسويل أن يعطي تفسيراً بسيطاً وطبيعياً لكثير من الخواص التي اكتشفها للغازات عن طريق الفرض الذري : إمكنه ان يتصور الغاز مؤلفاً من ذرات صلبة تطير في اتجاهات غير محددة بسرعة قريبة من سرعة الرصاص المنطلق من البارود ، وان هذه الذرات يتكاثر بعضها فوق بعض وأن بعض الذرات مرتبط بالبعض الآخر . ذلك الزحام والترابط بين الذرات هو علة ضغط الغاز ، واكتشف ماكسويل أن طاقة حركة الغاز هي طاقة حرارته ومن ثم علل ارتفاع درجة حرارة الغاز بزيادة سرعة سفر تلك الذرات . ساعدت النظرية الذرية في صورتها الأولى (الصورة التي كانت معروفة في القرن الثامن عشر والثلاثة أرباع الأروى من القرن التاسع عشر) على تفسير خواص الغازات . لم يستطع ماكسويل أن يفسر كل خواص الغازات لانه كان يتصور الذرة وحدة لا تنقسم . حين اكتشفنا تفتيت الذرة من بعد ، أمكننا أن نفسر قوانين أخرى في خواص الغازات (١) .

تتضمن تلك الخاصة الثالثة في الفرض الصوري - وهي تفسير عدد من القوانين سبق لنا الوصول اليها - معنى جديداً للفرض العلمي : ليس الفرض الصوري خطوة تالية لخطوة الملاحظة والتجربة ويراد وضع اقتراح يفسر الملاحظات والتجارب كما كان الحال في الفرض عند الاستقراء التقليدي - وانما

(١) انظر : J. Jeans, The New Background of Science, p. 151.

الفرض الصوري يضع تفسيراً لقوانين وصلنا اليها فعلاً وليس صيغة قانون .
لقد بدأ ماكسويل بإقامة قوانينه بالطريق الاستقرائي أي مبتدئاً بملاحظة ما
يقع للغازات والتجريب عليها ثم البحث في تلك الملاحظات والتجارب بقصد
الوصول الى اقتراح لتفسير تلك الملاحظات والتجارب ثم الوصول من ذلك
الاقتراح الى قضايا عامة تنطوي على خواص الغازات . ولكن ماكسويل لم
ير انه وصل في تلك القضايا العامة الى كل ما يمكن ان يقال عن الغازات -
تلك القضايا هي ذاتها محتاجة لتفسير ووجد التفسير في افتراض الذرة . هذا
الفرض فرض صوري . لا شك ان الفرض الصوري يعتمد على معين من
الملاحظات والتجارب - لكن ذلك المعين هو ما قد وصلنا اليه من قبل في
اكتشافنا لبعض القوانين التي كما قلنا محتاجة لتفسير . ولا شك ان قيمة الفرض
الصوري تتحدد بمطابقة نتائجه للوقائع من بعد . الى هذا الحد والى هذا الحد
فقط يرتبط الفرض الصوري بالملاحظات والتجارب ، ولكنه في ذاته لا يصدر
عن تلك الملاحظات . وانما هو قاعدة لها . هو أشبه بمصادرة نميل الى الأخذ
بها لكي ندعم هذا القانون أو ذاك . الفروض الصورية مصادرات ؛ لعلها
بديل في العلوم المعاصرة بمصادرتي العلية والاطراد في المنهج التقليدي .

لقد قلنا ان الفروض الصورية تميز المنهج العلمي المعاصر - ونقصد بالمنهج
العلمي المعاصر ذلك المنهج الذي قامت على أساسه نظريات العلوم الطبيعية
والفلكية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن
العشرين . لا يعني ذلك أن الفروض الصورية بدأت بهذه الحقبة وانما ظهرت
بصورة واضحة في هذه الحقبة . لقد كان كثير من علماء القرن السابع عشر
يستخدمون تلك الفروض الصورية ، كان يستخدمها بعضهم دون أن يعبر عن
ذلك بوضوح ذلك لانهم كانوا اكثر اهتماماً بعرض نتائج كشفهم من عرض
المنهج الذي استخدموه في الوصول الى تلك الكشوف . ومن اشهر علماء القرن
السابع عشر الذين اشاروا الى الفروض الصورية وما كانوا يسمونه بالمنهج
الفرضي Hypothetical Method هو كريستيان هويجنز C. Huyghens

(١٦٢٩ - ١٦٩٥) العالم الطبيعي الهولندي المشهور بنظريته في الضوء ونظريته في الجاذبية اللتين كان يناقش بهما نظريتي نيوتن المعاصر له، ولقد دوّن هويجنز نظريته في كتابين عنوانها « مقالة في الضوء » Treatise on Light (١٦٩٠) و (في علة الجاذبية) De Causa Gravitatis وفيما يلي نص من مقدمة كتابه في الضوء يشير فيه الى منهجه الفرضي .

« سوف تجد هنا نوعاً من البرهان الذي لا يتضمن يقيناً عالياً كيقين البرهان الهندسي ، وهو حقاً مختلف جداً عن البراهين التي يستخدمها علماء الهندسة إذ أن هؤلاء يثبتون قضاياهم بمبادئ يقينية لا يخالجهما شك ، بينما المبادئ هنا نختبرها بواسطة النتائج التي تستنبط منها ، ولا تسمح طبيعة العلم [علم الضوء] بغير ذلك . وبالرغم من ذلك فإن من الممكن ان نصل الى درجة من الاحتمال اقل قليلاً من اليقين الكامل . يحدث ذلك حين تتفق مبادئنا المفترضة اتفاقاً تاماً مع الظواهر الملاحظة ، خاصة حين تكثر الأمثلة التي تكون موضوع تحقيق تجريبي ، ويحدث ذلك ايضاً حين نستبق ظواهر جديدة من الممكن ان تستنبط من الفروض التي نستخدمها وحينئذ نجد توقعاتنا حقيقة واقعة ... »

أمثلة لاستخدام الفروض الصورية

نريد ان نزيد فكرة الفرض الصوري وضوحاً بالإشارة الى بعض النظريات العلمية التي قامت على اساس فروض صورية . سنأخذ ثلاثة أمثلة هي نظرية نيوتن في الجاذبية ، والنظرية الموجية في طبيعة الضوء ، والنظرية الذرية . ليس غرض هذا الكتاب عرض النظريات العلمية عرضاً مفصلاً وانما غرضه أن يبين المناهج التي قامت عليها تلك النظريات . سنشير فيما يلي اشارات موجزة الى تلك النظريات الثلاثة توضح استخدامها للفروض الصورية .

١ - نظرية نيوتن في الجاذبية

قد يحاسب المرء على أقواله وقد يحاسب على أفعاله ، وقد وضعنا إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) من أقواله فيمن تحمسوا للمنهج الاستقرائي

التقليدي : صادر على مبدأ العلية كأساس تخضع له كل ظواهر العالم الطبيعي نعم ، كان ينادي أحيانا أنه لا يبحث عن علل وان ذلك هدف ميتافيزيقي ، ولكن لم يكن لذلك النداء صدى في تحويل اتجاهه الاول . أصر على ان الملاحظة الحسية والتجربة المباشرة لا النتائج الصورية التي نستنبطها من الصيغ الرياضية هي المعيار الاول والاخير لصدق الفرض العلمي . أعلن أن ما وصل اليه من كشوف وقوانين ونظريات إنما هو نتيجة لاستقراء مباشر من الظواهر^(١) . ولكننا حين نحكم على نيوتن من أعماله نجده من رواد المنهج العلمي المعاصر الذي يستخدم « المنهج الفرضي » ذلك الذي يتضمن بدوره استخدام « الفروض الصورية » . ومن ثم ففرضيته المشهورة (انا لا اخترع فروضا) كاذبة بالنسبة له . هدفنا في هذه الفقرة أن نشير الى ان نيوتن لم يصل الى نظريته العامة في الميكانيكا والى قانونه في الجاذبية نتيجة لاستقراء مباشر من الظواهر وإنما نتيجة لاتباع المنهج الفرضي .

يشار الى نظرية نيوتن العامة في الميكانيكا بقضايا اساسية ثلاثة تسمى أحيانا بقوانين الحركة . وهي تدور حول تحديد تصور « القوة » Force ويتحدد هذا التصور في إطار تصور الحركة اذ القوة عند نيوتن علة تغير الحركة . وتفهم الحركة بتصورات تسبقها هي تصورات المكان والزمان والكتلة . تلك التصورات الثلاثة يجعلها نيوتن الخصائص الاساسية للمادة : كل جسم إنما هو امتداد في المكان وله ديمومته في الزمن وحاصل على كتلة ما Mass . يعرف نيوتن الكتلة بأنها حاصل ضرب الحجم في الكثافة ، ولكن بدا هذا التعريف قاصراً لاسباب لا ضرورة لتفصيلها هنا ، ومن ثم نهض بلامبذه - وهم كثيرون لزمن اقرب من قرن ونصف - لتوضيح تصور نيوتن للكتلة ؛ نشير الى تعريف الكتلة عند نيوتن كما عبر عنه كلارك ما كسويل : للجسام كتل متساوية اذا تعرضت في وقت ما تحت ظروف متشابهة تؤدي الى تغير في السرعة متشابه في الكتل المتساوية ؛ اذا زادت سرعة جسم ما كان ذا كتلة أخف ، والعكس صحيح ؛

(١) قارن ما قلناه في فقرة موقف نيوتن من الفروض في الفصل الثالث .

فالكتلة متناسبة تناسباً عكسياً مع تغير السرعة ^(١) .

بهذه التصورات وتحديداتها تحديداً رياضياً بحتاً. يصوغ نيوتن قوانين الحركة الثلاثة وهي :

١ - « يستمر كل جسم في الحالة التي هو عليها من سكون او حركة مطردة ما لم تضطره قوة ما الى تغيير تلك الحالة » . وهذا هو القانون المعروف بقانون القصور الذاتي ، وهو يتضمن تعريفاً كيفياً لتصور القوة : القوة علة تغير الحركة .

٢ - « تتناسب القوة الواقعة على جسم ما تناسباً طردياً مع تغير كمية الحركة التي يحدثها ذلك الجسم في زمن ما ، واتجاه هذه القوة هو الاتجاه الذي يتخذه هذا التغير في كمية الحركة » ^(٢) . ويتضمن هذا القانون تحديداً كمياً ممكن القياس لتصور القوة : نستطيع بمقتضى هذا القانون ان نقدر درجة القوة واتجاهها عن طريق أثرها على الجسم الذي تعرض لتلك القوة : القوة الواقعة على جسم ما في زمن ما تؤدي الى تغير محدد في كمية الحركة . يكون هذا التغير في كمية الحركة بطيء السرعة في الكتلة الكبيرة وكبير السرعة في الكتلة الصغيرة .

٣ - « لكل فعل دائماً رد فعل مساوٍ له ولكن مضاد له في الاتجاه » ، ومعناه ان التأثير المتبادل بين جسمين تأثير متساو دائماً ولكن في الاتجاهين متقابلين . حين يقوم الجسم ا بقوة للتأثير على الجسم ب فان ب يقوم بقوة متساوية للتأثير على ا في الاتجاه المضاد . ان القوة في اساسها تأثير جسم على جسم .

(١) كلمة (سرعة) تقابل في الانجليزية كلمة Velocity ويعرفها نيوتن انها تغير الوضع في الوحدة التي نتخذها لقياس الزمن change of position per unit of time ، وكلمة (تغير السرعة) تقابل كلمة acceleration ويعرفها نيوتن بأنها تغير السرعة في الوحدة التي نتخذها لقياس الزمن change of velocity per unit of time .

(٢) (كمية الحركة) تقابل كلمة momentum لان نيوتن يشرحها بعبارة quantity of motion ويمكن الوصول اليها بضرب الكتلة \times السرعة .

من هذه القوانين وصل نيوتن الى تقرير واقعة اساسية هي ان كل جزيء مادي به قوة سماها قوة الجاذبية : كل جزيء مادي يجذب كل جزيء مادي آخر ، وليست هذه القوة موجودة فقط في الاجسام الكبيرة وانما هي موجودة دائماً في كل جزيء مهما صغر حجمه ، ويمكن قياس هذه القوة طبقاً لقوانين محددة . هي قوانين الحركة . ومن ثم وضع قانون سقوط الاجسام الذي اقترحه جاليليو في إطار قوانين الميكانيكا السالفة الذكر .

أخس نيوتن ان القوة التي تجذب الاجسام الساقطة نحو الارض هي نفسها القوة التي تجذب الكواكب في مدارها حول الشمس . ومن ثم اتجه الى علم الفلك مستعيناً بالتصورات التي حددها للحركة وتغير الحركة والسرعة وتغير السرعة والكتلة والقوة . بدأ بحثه في حركات الكواكب باتخاذ قوانين الحركة الثلاثة مقدمات ثم اثبت ببراهين رياضية بحتة ان قوانين كيبلر الثلاثة في حركات الافلاك ورسم مداراتها يمكن اعتبارها نتائج لنظريته العامة في الميكانيكا وقانونه في الجاذبية ، على اساس افتراض فرض معين هو ان تكون القوة الواقعة على الكواكب في مداراتها آتية اليها من الشمس . ولن تكون قوانين كيبلر صحيحة بغير هذا الفرض . ومن ثم افترض وجود قوة تجذب الكواكب حول الشمس وتجذب نحو كل كوكب توابعه . وقد صاغ نيوتن في هذه المرحلة من بحثه « قانون الجاذبية الكلية » .

ولكي يضع نيوتن الصيغة الرياضية لهذا القانون افترض فرضين : (ا) قوة الجذب بين أي جسمين متناسبة تناسباً طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما ؛ وقد كان يحس ان لهذا الفرض بعض الوجاهة لان هنالك حقيقتين تجريبيتين تؤيده هما ان الاجسام ذوات الكتل المتساوية لها اوزان متساوية ، وان اوزان الاجسام القريبة من الارض متناسبة تناسباً طردياً مع كتلتها . (ب) قوة الجاذبية بين اي جسمين متناسبة تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما ؛ وهذا فرض قوامه هندسي بحت . ومن ثم وصل الى صياغة قانون الجاذبية الكلية « كل جسم يجذب كل جسم آخر بقوة تتناسب تناسباً طردياً

مع كتلتها وتناسبا عكسياً مع مربع المسافة بينها ، .

واول محاولة قام بها نيوتن لتحقيق قانون الجاذبية الكلية هي افتراضه ان الارض تجذب القمر اليها ، وكان تحقيقه في صورة هندسية بحتة . وجد اول الامر ان حسابه لبعد القمر عن مركز الارض وسرعة حركة القمر في الثانية لم يأت بالنتيجة المرجوة بافتراض قانونه . كان ذلك عام ١٦٦٦ ، فترك هذه النقطة وانشغل بمدار الارض والكواكب الاخرى حول الشمس وتبين بعد ثلاثة عشرة سنة من تجربة نيوتن الاولى ان السبب في عدم مطابقة القانون لهذه التجربة ليس فساد القانون وانما خطأ نيوتن في حساب قطر الارض . علم نيوتن من خطاب شخصي من صديقه روبرت هوك Hooke عام ١٦٧٩ ان العالم الفلكي الفرنسي بيكار Jean Picard وصل الى القطر الدقيق للارض ، وحينئذ قام نيوتن بتطبيق تجربته من جديد فتحقق القانون الكلي للجاذبية .

لقد دون نيوتن نظريته في الميكانيكا وقانونه للجاذبية الكلية في كتابه المشهور « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » Philosophiae Naturalis Principia Mathematica الذي نشره في ١٦٨٧ ، والذي بدأ أبحاثه في هذا القانون وتلك النظرية منذ ١٦٦٢ . لقد تمكن نيوتن في نظريته ان يستنبط قوانين كبلر وأن يصف مدارات الارض والكواكب حول الشمس وان يفسر ظواهر المد والجذر وعدداً هائلاً من الظواهر الطبيعية ، وظل النسق النيوتوني في علوم الطبيعة والفلك والميكانيكا هو التفسير القائم اكثر من قرن ونصف ، حتى جاءت نظريتان هما النسبية والكوانتم في اوائل القرن الحالي .

ما سبق قوله اشارة موجزة كل الايجاز عن نظريات نيوتن دون دخول في تفاصيل لاتهم الباحث في المناهج . ما يهمنا على وجه التحديد هو اثبات أن تلك النظريات لم تقم نتيجة تعميم استقرائي من الخبرة الحسية كما صرح نيوتن من قبل في كتاباته وأن تلك النظريات ليست موضوع تحقيق مباشر من هذه الخبرة . وانما اساس نظرياته ما سميناه فروضا صورية . ونسوق فيما يلي اربعة نقط على سبيل المثال لاعلى سبيل الاحصاء تؤيد قضيتنا .

١ - حين أشرنا الى قوانين الحركة الثلاثة في ميكانيكا نيوتن كنا نسميها قوانين كاسماها نيوتن ، ولكنها في الواقع ليست قوانين بالمعنى المؤلف أي تعميمات من الخبرة أو نتائج استقرائية مقدماتها مشتقة من التجارب المباشرة . انها مبادئ أو مصادرات انطوت على تعريف القوة بربطها بتصور الحركة ، انها مبادئ أو مصادرات نعبر عنها بصيغ رياضية لم تكن نتائج لمقدمات وانما كانت مقدمات لنتائج . ومن جهة اخرى ليست هذه المبادئ موضع تحقيق تجريبي مباشر . ولناخذ المبدأ الأول فقط على سبيل المثال وهو المقول عنه قانون القصور الذاتي . لكي نحقق هذا المبدأ يجب ان يكون لدينا جسم ليس موضوعا لأي قوة تؤثر عليه أي يجب ان يكون لدينا جسم لا يخضع لتأثير أي جسم آخر لكي نعرف ما اذا كان سيستمر في حركته المطردة أو سيطرأ تغيير عليه ولكن وجود الجسم في هذا الظرف غير ممكن لأنه يجب أن أحضر انا أو انت على الاقل لنلاحظ ما يحدث .

٢ - قانون الجاذبية ليس مما يحقق تحقيقا تجريبيا مباشرا . اننا لا ندرك قوى الجاذبية بين الاجسام الحاضرة امامنا ادراكا حسيا . الاجسام مدركة ولكن القوي غير مدركة : إننا نستطيع ان ندرك حركات الاجسام كالأجبار مثلا تهوى على الارض اذا اسقطت من عل ، ولكن هذه الواقعة لا تؤيد قانون الجاذبية بطريق مباشر . إن مقعدى الذي أجلس الان عليه ومكتبي الذي اكتب عليه لا يتحرك الواحد منها نحو الآخر في الوقت الحاضر . نعم لا يقول قانون الجاذبيه انه يجب أن ينجذبا لأن القانون مختص بالقوى لا بالحركات الراهنة .

٣ - لم يبرهن نيوتن على وجود قوة تجذب الكواكب نحو الشمس وانما كان يبرهن فقط على إنه اذا اتخذنا قوانين الحركة مقدمات واذا اتخذنا قضايا كبلر التجريبية مقدمات كان قانون الجاذبية لازما لزوما منطقيا ، يحملنا على الاعتقاد به أن المقدمات وانتقالها الى نتائج صيغ رياضية واستنباط رياضي ، ومن ثم قوة الاعتقاد .

٤ - قوانين نيوتن انما هي فروض صورية ليست مشتقة اشتقاقاً مباشراً من الخبرة الحسية وليس سبيل تحقيق هذه الفروض هو التحقيق التجريبي المباشر ، وانما أمكن تحقيقها تحقيقاً تجريبياً غير مباشر ، أي تحقيق النتائج الرياضية أو المنطقية لتلك الفروض ^(١) .

ب - النظرية الموجية في طبيعة الضوء

لدينا نظريتان في طبيعة الضوء ظهرتا معاً في القرن السابع عشر ، وكانت تعاصر الواحدة منها الأخرى وظلت المنافسة بينهما قائمة حتى جاء القرن الحالي وأصبحتا على يد العلماء المعاصرين لا نظريتين متنافستين وانما وجهان مختلفان لنظرية واحدة - وهو موقف لم يحلم به من نادى بأيهما في أول الأمر. نقصد بالنظريتين النظرية الجسيمية Corpuscular theory التي نادى بها نيوتن والنظرية الموجية Undulatory theory أو Wave theory التي نادى بها كريستيان هويجنز C. Huyghens .

كان يرى نيوتن أن الضوء يتألف من جسيمات Particles متناهية في الصغر تصدر عن الشمس تقذفها باستمرار مما بها من مادة ، وان تلك الجسيمات شبيهة بتلك الجسيمات الصغيرة العديدة التي تصدرها طلقة البارود ، والسبب الذي من أجله تصور نيوتن الضوء مؤلفاً من جسيمات هو أنه كان مقتنعاً بأن أشعة الضوء تسير في خطوط مستقيمة . إننا نلاحظ أن الأشعة التي تصدر عن الكشاف (أو البطارية) مثلاً تصدر في خطوط مستقيمة ، وأن الأشعة التي تشع من الشمس عبر السحب تبدو مستقيمة كذلك . ولكن كان يرى هويجنز ان الضوء لا يسير في خطوط مستقيمة وانما تنحني اشعة الضوء في مسيرها ثم تلتقي مرة ثانية .

(١) انظر : L. w. H. Hull, History and Philosophy of Science, pp. 164 - 180 .
W. Kneale, Probability and Induction, pp. 99 - 100.

لاحظ هويجنز أن ظاهرة الظل التي يلجأ إليها نيوتن لتدعيم نظريته لا تدعمها حقاً . نعم حين يكون أمام الضوء جسم كبير فإنه يلقي ظلاً لا ينفذه الضوء ولكن إذا كان الجسم صغيراً فأننا نجد ان الأشعة تنحرف من حول هذا الجسم وتلتقي مرة ثانية من خلفه ومن ثم لا توجد منطقة من الظل الكامل لا ينفذ إليها الضوء . تلك الخاصة لانحراف الأشعة الضوئية تربط الضوء بالموجة أكثر منه بالقذائف Projectiles التي هي جسيمات . حين تطلق رصاصة من مصدر ما وإمامها حائل صلب فإن ذلك الحائل يحول بيننا وبين الرصاصة ولكن لن يحول بيننا وبين سماع صوتها . ذلك لان الصوت يسير في موجات ويمكن للموجات أن تنحرف من حول الجسم العائق .

لقد شبه هويجنز الضوء بالصوت وحيث ان الصوت يسير في موجات عبر الهواء ، كذلك الضوء ، مع فارق ان موجات الضوء لا تسير عبر الهواء حيث ان الضوء يمكنه السير في خلاء ؛ ولذلك اضطر الى افتراض الاثير - الذي يملأ الفراغ الكوني - لحمل الموجات . كان يرى هويجنز باختصار ان الشمس تصدر موجات ضوئية لا جسيمات ضوئية .

كانت النظرية الموجبة تحظى بقبول أكثر من النظرية الجسيمية في حياة العالمين الكبيرين ذلك لأن الأولى قدمت تفسيراً لاختلاف ألوان الطيف السبعة باختلاف ذبذبة طول موجة كل لون . وهذا ما لم نكن نستطيع تفسيره على ضوء نظرية نيوتن . (لا بأس في هذا السياق من ملاحظة أن نيوتن وليس هويجنز هو الذي اكتشف ألوان الطيف بامراره شعاعاً ضوئياً من خلال منشور زجاجي فوجد أن الشعاع ينحل من الطرف الآخر إلى ألوان مرتبة من الأحمر من أسفل ثم البرتقالي ثم الأصفر ثم الأخضر ثم الأزرق ثم البنفسجي ثم الأسود) .

لوحظ أن النقطة الأساسية التي تختلف فيها النظريتان هي تصور كل منهما لسرعة الضوء في الأوساط المختلفة : قال نيوتن ان سرعة الضوء أكثر في الوسط الكثيف منه في الوسط الأقل كثافة : بينما قال هويجنز ان الضوء يسير

أقل سرعة في الوسط الكثيف وانه يسير في الخلاء بسرعة أكبر منه في الأوساط المادية . وبالرغم من انه قد تم اكتشاف سرعة الضوء من قبل ^(١) إلا أن قياس سرعة الضوء في المسافات القصيرة نسبياً لم يكن ممكناً ؛ ومن ثم لم يتمكن العلماء وقتئذ من القيام بالتجربة الحاسمة بين النظريتين . وقد قام بهذه التجربة فوكو Foucault عام ١٨٥٠ حين صمم مقياساً لسرعة الضوء في المسافات القصيرة ووجد ان الضوء أقل سرعة في الماء عنه في الهواء ، ومن ثم تأيدت النظرية الموجية واهملت النظرية الجسيمية الى حين - إلى حين جاء ماكس بلانك M. Planck وأثبت ان الضوء يتألف من جسيمات هي الفوتونات ، وكانت أبحاثه في الفوتونات مقدمة لنظرية الكوانتم Quantum theory التي صاغها ١٩٠١ . وفيما يلي اشارة خاطفة الى ذلك التصور للضوء .

سنعلم في الفقرة التالية أن النظرية الذرية - اي ان الاجسام المادية موضوع الادراك الحسي يمكن اعتبارها مؤلفة من ذرات - اتخذت صورتها العلمية الدقيقة في أوائل القرن الثامن عشر على يد دولتون ، وكانت 'يظن طوال هذا القرن والى قبيل اواخر القرن التالي أن الذرة وحدة لا تنقسم ؛ ولكن حين قرب القرن التاسع عشر على الانتهاء أمكن تفتيت الذرة على يد تومسون J. J. Thomson وزملائه الى ما يسمى بالبروتونات والالكترونات . فاذا عدنا الى الضوء وقلنا في اطار النظرية الجسيمية انه يتألف من جسيمات تقذف بها الشمس مما بها من ذرات ، أدركنا أن ما تقذفه الشمس ليس بروتونات ولا الالكترونات وانما تقذف بشيء آخر هو ما نسميه « طاقة » ؛ توجد الطاقة في كل جزء من المادة ، وقد تكون متصلة بالمادة وحينئذ تمر من جزء من المادة الى جزء آخر ، وقد تكون حرة طليقة من هذا الاتصال أي تخرج من المادة فتسافر عبر الفراغ وهذا ما يسمى « طاقة حرة »

(١) مكتشف سرعة الضوء بأنها ١٨٦٠٠٠٠ ميل في الثانية هو رومر Roemer (١٦٧٦) .

Free energy ، وهذا نسميه بالإشعاع Radiation . فإذا اعتبرنا الضوء مؤلفاً من جسيمات فانتنا نظر الى هذه الجسيمات على انها مؤلفة من طاقة حرة أو من اشعاع ، وهذه تسميها فوتونات Photons . فالإشعاع يتألف من فوتونات ، وهو صورة من صور الطاقة . وهذا يقودنا الى تصور بلانك .

لقد بين بلانك في اواخر القرن التاسع عشر خطأ النظرية التي كانت سائدة منذ ايام هويجنز والتي استمرت في القرن التاسع عشر والقائلة بان الاشعاع انما هو موجات في الاثير . ولكن هذه النظرية أصبحت عاجزة عن تفسير كيفية انتشار الاشعاع كما انها أصبحت عاجزة عن تفسير الخصائص الاساسية للاشعاع ذاته . لقد جاء بلانك وتصور ان الاشعاع - ونقول الآن الفوتون - انما هو من طبيعة جسيمية لا موجية . اكتشف ان الفوتون يسافر عبر الحلاء في خطوط مستقيمة استدل على ذلك بتجربة بسيطة : حين يمر اشعاع في غاز ما فان عدداً قليلاً من جزيئات هذا الغاز تتبعثر بينما لا يتأثر عدد كبير من الجزيئات بمرور الاشعاع : فإذا كان الاشعاع مؤلفاً من موجات تسير عبر الاثير كنا نرى كل جزيئات الغاز تبعثرت . ومن ثم أيد بلانك نظرية نيوتن في النظرية الجسيمية في الضوء ^(١) . وكان ألبرت اينشتين - الى جانب ابحاثه في نظرياته في النسبية - متابعاً لنتائج ابحاث بلانك في الفوتونات ، فقد اعلن الأول عام ١٩٠٥ أن الاشعاع يتألف من وحدات جسيمية منفصل بعضها عن بعض كان يسميها (كوانتا الضوء) quanta of light وهي ما نعرفها الآن باسم الفوتونات : قال اينشتين حينذاك حين نسلط فوتونا على ذرة ما فان الذرة تضطرب أو تتبعثر حسب كمية الطاقة التي يحملها الفوتون

(١) هذا التأيد لا يعني أن بلانك متفق مع نيوتن اتفاقاً تاماً في نظرياته الميكانيكية : بل على العكس من ذلك فان نظرية بلانك في الكوانتا ثورة أساسية على كثير من تصورات نيوتن منها أن قوانين الحركة التي نادى بها نيوتن صالحة فقط في مجال حركات النجوم والكواكب ولكنها خاطئة في مجال حركات اجزاء الذرة ، ومنها أن حركة الذرات ليست حركة متصلة ؛ وكانت نظريات اينشتين تطيح بتصورات اساسية في مذهب نيوتن منها المكان المطلق والزمان المطلق والاثير وقانون حفظ المادة . وكانت نظريات الذرة تثور في نفس الوقت على مذهب نيوتن في مصادرة العلية والخاصة الحتمية للقانون العلمي والآلية في حدوث ظواهر الطبيعة .

وحين نلاحظ ما فقدته الذرة نجد ان من الممكن حساب طاقة الفوتون وهذا يؤيد افتراض ان الفوتون له كوانتم محددة . ومن النتائج الرئيسية لنظريات النسبية أن لكل نوع من الطاقة كتلة ترتبط بها ومن ثم للفوتون كتلة خاصة به كما أن للسيارة كتلة وللذرة كتلة ، وحيث ان الفوتون دائماً في حركة وهو يتحرك بسرعة الضوء فإنه يمكننا التحدث عن كمية حركته momentum . وقد اثبت العلماء في حوالي عام ١٩٣٠ اثباتاً تجريبياً ان للفوتون كتلة وقاموا بحسابها حساباً دقيقاً .

كانت ابحاث بلانك واينشتين نصيراً للنظرية الجسيمية في الضوء ولكن تبين فيما بعد ان هذه النظرية ناقصة اذ لم تستطع ان تفسر لنا اهم خواص الاشعاع - خاصة سرعته التي هي سرعة الضوء فلم نفهم لم كانت سرعته ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية بالذات ، وخاصة سفره عبر الفضاء . وجد ان النظرية الموجبة للضوء تساعدنا على تفسير سفر الاشعاع عبر الفضاء . واصبحت النظريتان اللتان تنافستا في القرنين الماضيين والثالث الاول من القرن الحالي حول طبيعة الضوء تكمل الواحدة منها الاخرى : نعلم الآن ان الاشعاع من طبيعة جسيمية في نطاق العالم الذري والنووي ، ولكن من طبيعة موجية حين يسافر عبر الفضاء . وقد قدمت تجارب تؤيد الطبيعة الموجية للضوء حين ننظر الى الاشعاع في النظام الكوني في مقابل النطاق الذري . ومن ثم وصل العلماء المعاصرون الى النتيجة القائلة بان النظريتين انما هما وجهان لنظرية واحدة (١) .

ما سبق قوله في هذه الفقرة انما هو اشارة خاطفة الى تطور نظريات الطبيعة في الضوء ، ولم يكن هدفنا الرئيسي عرض هذا التطور وانما هدفنا الاشارة الى هذه النظريات كمثال تطبيقي للمنهج الفرضي الذي يتضمن الفروض الصورية . سنترك تطبيق ذلك المنهج على تصور الجسم للفقرة التالية حين

(١) راجع : J. Jeans, The New Background of Science, pp. 20-32, 152 - 67.

Physics and Philosophy, pp. 128 - 133.

نتحدث عن النظرية الذرية . وفيما يلي اشارات موجزة الى ان تصور الموجة الضوئية انما هو احد الفروض الصورية :

١ - الموجة التي تحدث عنها اصحاب النظرية الموجية في طبيعة الضوء ليست مما ترى بالعين المجردة او من خلال ادق المكبرات (الميكروسكوبات) وليست مما تدرك ادراكاً حسيّاً بأي صورة اخرى ، وبالرغم من ذلك فلها وجودها الواقعي الذي لا يتطرق الشك الآن الى وجودها. اما دليل وجودها الواقعي فهو ان هذا التصور حقق لنا اغراضاً علمية كثيرة منها ان نشأت النظريات الكهرومغناطيسية Electromagnetic Theories على ايدي فاراداي Faraday وماكسويل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : لقد أبان ماكسويل في هذه النظريات ان الضوء ما هو الا صورة من صور الفعل الكهربائي ومن ثم اوجد هو وفاراداي العلاقة بين المغناطيسية التي نشأت عن الجاذبية النيوتونية والنظرية الموجية للضوء كما تصورها هويجنز ، وطوّرا هذه العلاقة في تأليف نظريات بالغة الاهمية في تفسير الضوء والكهرباء (كان العيب الاساسي في تلك النظريات أنها تضمنت ان الموجات تسافر عبر الاثير) . ودليل آخر على واقعية الموجة الضوئية أنها قدمت لنا التفسير الوحيد لسفر الضوء عبر الفضاء . للموجة الضوئية واقعيتهما بالرغم من أنها غير مدركة ولا يمكن تحقيق وجودها بالتجربة تحقيقاً مباشراً .

٢ - حين نقول ان الموجة الكهرومغناطيسية لا تدرك ادراكاً حسيّاً لا نقصد انها من الصغر في الحجم بحيث لا نستطيع ادراكها. ان هذه الموجة في مراحل النظرية المتطورة قد تكون ذا أبعاد كبيرة جداً ، وإنما لأن الموجة مجموعة مترابطة من حوادث يستطيع علم الضوء استدلال الخصائص الرياضية لتلك المجموعة ؛ أما ما طبيعة تلك الحوادث وتركيبها الداخلي فأمر لا يمكن استدلاله . إن الحوادث التي تؤلف الموجة الضوئية نعرفها فقط عن طريق آثارها على أعيننا وأعصابنا البصرية ، ولكن هذه الآثار ليست هي الموجات

الضوئية ذاتها ، (١) . قد تقول اني أرى الضوء ، ولكن ما تراه هو الجسم
المضيء الذي يمكن ادراكه ادراكاً حسياً ؛ ادراك الضوء يستلزم ادراك
صفات حسية كاللون والصلابة أو السيولة ولكن ليست هذه صفات الموجة
الضوئية : يمكن تحديد صفاتها في اطار الصيغ الرياضية البحتة فقط .

ح - النظرية الذرية

النظرية الذرية Atomic theory هي القول بأن اي جسم موضوع
لادراكنا الحسي أو ان المادة بالاجمال يمكن ان تنحل إلى جسيمات
صغيرة جداً نسميها (الذرات) Atoms ، والمعنى الاشتقاقي لكلمة (ذرة) هو
ما لا يقبل القسمة (٢) . والقول بالذرة فرض ، وفرض صوري بالذات لان
الذرة ليست موضوع ادراك حسي وليست مما نتحقق من وجودها بالخبرة
الحسية المباشرة وليس الفرض الذري مما وصلنا إليه بتعميم من تلك الخبرة .
وتعتبر النظرية الذرية أحد ثلاثة اكتشافات رئيسية معاصرة ، ثانيها نظريات
الكوانتم وثالثها نظريات النسبية ، وليست النظرية الذرية باكتشاف مستقل
عن الاكتشافين الآخرين بل هي متضمنة في هذين . نعم نظريات النسبية
مختصة بظواهر فسيحة المجال كالمكان والحلاء والزمان وحركات الكواكب
والشمس والمجوعات النجمية التي ما المجموعة الشمسية بالقياس إليها إلا قطرة في
محيط ؛ ولكن شارك اينشتين علماء الذرة في أبحاثهم من زاوية خاصة واعتبر
نتائج تلك الابحاث تدعياً لنظرياته الخاصة . وما نظرية الذرة إلا جزء من
النسق العام لنظريات الكوانتم . ولا يعني ذلك أن الفرض الذري جديد العهد
بهذا القرن أو أواخر القرن الماضي ؛ في هذا العهد بلغ الفرض دقته فقط .
وإنما الفرض الذري قديم قدم ليسيبوس Leucippus أحد الفلاسفة الطبيعيين
الاغريق في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد - يقترن الفرض الذري في

(١) B. Russell, An Outline of Philosophy, q. 161

(٢) سنرى بعد قليل أن الذرة قابلة للقسمة ، ولا يطعن هذا في المعنى الاشتقاقي ، لأن ما
سمي ذرة قبل اكتشاف تفتيت الذرة لم يكن ذرة اذن .

الفلسفة القديمة باسم ديموقريطس Democritus (٤٦٠ - ٣٦٠ ق.م) وكان أكثر شهرة من ليسيبوس مع أن هذا كان مرجع ديموقريطس في التصور الذري .
واسنا هنا بصدد تفصيل تصورهما للذرة فذلك مدون في كتب تاريخ الفلسفة ؛
يهمنا فقط الإشارة الى أنها أوائل من استخدم الفروض الصورية .

كان ارسطو عدواً للنظرية الذرية إذ هاجمها هجوماً شديداً وتطالعك
الصفحات الأولى من كتاب « الميتافيزيقا » بهذا الهجوم ، وتابعه في ذلك
الفلاسفة الاوروبيون في العصر الوسيط وديكارت . وكان جاليليو وبويل
ونيوطن من أنصار النظرية الذرية ولكنهم لا يعتبرون ممن بحثوا في الذرة بحثاً
مستفيضاً أو من طوروا النظرية القديمة . ولكن تطوير هذه النظرية جاء في
العصر الحديث من علم الكيمياء أولاً وليس من علم الطبيعة . ويرجع الفضل
في ذلك إلى دولتون Dalton (١٧٦٦ - ١٨٤٤) وأبحاثه في أول القرن
التاسع عشر . ويمكن الإشارة الى المبادئ الأساسية لنظريته في العبارتين
الآتيتين :

١ - تتألف المادة من ذرات ، ولن توجد ذرة جديدة أو تفنى ذرة
موجودة . ويتألف التغير الكيميائي من ارتباط ذرات كانت من قبل متباعدة ،
أو انفصال ذرات كانت من قبل متحدة ، ولكن الذرات ذاتها لا يطرأ
عليها تغير .

٢ - ذرات عنصر ما هي جميعاً متشابهة ، وتختلف ذرات عنصر عن
ذرات عنصر آخر باختلاف وزن هذه عن تلك .

وليست كل تفصيلات تصور دولتون الذري متفقة مع التصور المعاصر
ونشير إلى بعض الاختلافات فيما يلي :

١ - ما كان يسميه دولتون ذرة نسميه الآن جزيئاً Molecule إذ ينحل
هذا الى ذرات .

ب - ليس الاختلاف في الوزن هو كل الاختلاف بين عنصر كالماء

وآخر كما ظن دولتون إذ اتنا نعرف الآن ذرات تختلف في اوزانها ولكن تتفق في خواصها الكيميائية ، والفرق بين ذرة واخرى ليس في وزنها الذري ولكن في رقمها الذري atomic Numbes .

ج - كان دولتون يعتقد ما كان سائداً في زمنه عن العناصر أي افترض انه يمكن تصنيف المادة الى ٩٢ عنصراً تبدأ بالايديروجين وتنتهي باليورانيوم وكان ذلك حتى عام ١٧٨٩ . ولكن الرأي السائد اليوم هو أن عدد العناصر غير معروف . قد يقال ان العناصر الثلاثة هي البروتون والنيوترون والالكترون وهي ما وصلنا اليه بعد تفتيت للذرة ، ولكن ظهر الآن أن في الذرة عناصر أخرى ، ولذلك يصل هيزنبرج Heisenberg فيما يتعلق بالعناصر الى النتيجة الآتية : تلك العناصر الثلاثة أو الخمسة أو الستة ليست العناصر التي تؤلف المادة وانما نحن نعرف المادة الآن عن طريق هذه الكائنات ولكن ذلك لا يعني ان المادة تتألف منها . فقد ترد كل هذه العناصر الى عنصر واحد . وهذا ما لم نستطع الوصول اليه . الخلاصة أن اصبح البيان العددي بعدد العناصر أسطورة . ولكننا نصنف الذرات لا حسب وزنها الذري بل حسب رقمها الذري فهناك الرقم الذري ١ و ٢ الى آخره . ولكن دولتون لم يكن ليصل الى تصور الرقم الذري في زمنه .

د - من النقطة السابقة يمكن استنتاج اختلاف آخر مع دولتون هو انه كان يظن ان الذرة لا تنقسم ونحن نعلم الآن انها تنقسم .

وظللنا نعتقد ان الذرة لا تنقسم حتى اكتشف النشاط الاشعاعي Radio activity في اواخر القرن التاسع عشر وقد أدى هذا الكشف الى تفتيت الذرة . وجد أن الذرة يمكن تفتيتها أي فصل بعض اجزائها عن بعض . قد تقذف نواة الذرة بعض جزيئاتها بطريقة تلقائية وقد نفتت نحن الذرة بطرق مختلفة كاستخدام قوى كهربية حادة أو تعريضها لقذائف Bombardments قوية . واول من حاول تفتيت الذرة هو ج. تومسون J. J. Thomson وزملاؤه فقد أثبتوا أن بعض اجزاء الذرة متشابهة تشابهاً

دقيقاً بمعنى أن خواصها جميعاً واحدة ولا تتميز إلا بعددتها الذي يختلف من ذرة لأخرى ونسمي هذه الاجزاء الالكترونات Electrons . ومن ثم قلنا في بادىء الأمر أن الذرة تتألف من الكترونات تتحرك حركة سريعة حول النواة التي تكون مركز الذرة، ونواة ذرة ما تختلف في كيفها عن نواة ذرة أخرى، وإلى اختلاف نواة ذرة عن أخرى في خصائصها يرجع اختلاف جواهر مادي عن آخر في خصائصه الكيميائية . ومن بعد تومسون جاء إرنست رادرفورد Rutherford وآخرون واكتشفوا أنه يمكن تعييت النواة هي الأخرى . وكان أبرز ما في النواة هو البروتون Proton . وكتلة البروتون قدر كتلة الالكترون ١٨٣٥ مرة، وللبروتون شحنة كهربية موجبة وللالكترون شحنة كهربية مماثلة سالبة ، ومن الذرات ما تتألف من بروتون واحد والكترون واحد مثل ذرة الايدروجين . وعدد الالكترونات في الذرة يسمى بالرقم الذري atomic number ولذا نجعل لذرة الايدروجين الرقم الذري ١، ونجد ذرة الهليوم محتوية على اربعة بروتونات واثنين من الالكترونات ولذا نجعل لذرة الهليوم الرقم الذري ٢ وهكذا . ثم اكتشف العلماء ان بالنواة جزيئاً آخر غير البروتون هو النيوترون neutron وله كتلة مساوية لكتلة البروتون ولكن ليست له شحنة كهربية ، وحين تخضع الذرة لقذائف قوية التأثير نجد في النواة عنصراً ثالثاً هو البوزيترون Positron وهو إلكترون ذو شحنة موجبة . واكتشف بعد ذلك جزيئات أخرى في النواة ولكن لوحظ أنها والبوزيترون تبقى زمناً قصيراً جداً . ولذا يمكننا القول بأن الاجزاء الرئيسية في الذرة هي البروتون والنيوترون والالكترون .

يلاحظ أن الذرة تحوي - إلى جانب الجزيئات المشار إليها - ما يؤلف الطاقة وقد تتحرك هذه الطاقة في المكان غير مرتبطة بأي جزيء مادي وتسمى هذه الصورة من الطاقة بالإشعاع . نصل إلى الإشعاع حين نبعث بأي اضطراب في الذرة ، فنحصل على ما نسميه فوتوناً . وننظر إلى الفوتون على ان له طبيعة ذرية كما اوضحنا من قبل .

قلنا من قبل ان لكل جزيء في الذرة كتلة . نضيف الآن خواص أخرى مثل القصور الذاتي والجذب الكهربائي والوضع في المكان والحركة . وقد اكتشف بور Bohr في عام ١٩١٣ أن الالكترونات في الذرة تدور حول النواة دورة كوكبية أي كما تدور الأرض حول الشمس - وكان يظن بور أول الأمر أن حركة الالكترونات خاضعة لقانون الجاذبية كما نادى به نيوتن أي يدور حول النواة دورة تتناسب تناسباً طردياً مع كتلتها وتتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها ، وان الالكترونات تدور حول نواته على نحو مطرد منتظم وان من الممكن التنبؤ بتلك الحركات في اي وقت حسب قوانين ميكانيكا نيوتن .

ولكن لاحظ بور ان الالكترونات في ذرة الايدزونيوم يدور اصغر مدار ممكن ومن ثم يستمر في مداره طالما لم يزعبه شيء من خارج ، وحين لا يغير الالكترون مداره فان الذرة لا تشع طاقة ولكن حين يتحرك الالكترون في مدارات واسعة نسبياً فانه قد يقفز الى مدار اصغر وهذا يعني ان الذرة تفقد بعض الطاقة وتفقدتها عن طريق اشعاعها في صورة موجة ضوئية ووجد بور أن حركة الالكترونات حينئذ تتسقى ونظرية الكوانتم ، التي تختلف اختلافاً أساسياً في قوانين الحركة عن قوانين نيوتن . وحين يقفز الالكترون في حركة من مدار الى مدار آخر فجأة نقول ان الالكترون يتحرك حركة منفصلة أي ان الالكترون هو الآن في مكان ثم في مكان آخر دون أن يمر بإمكانه متصلة .

وصل بلانك وبور وامثالهما من دراساتهم على الذرة وما تتضمن من حركات الالكترونات والبروتونات والفوتونات إلى ميكانيكا جديدة تقلب ميكانيكا نيوتن رأساً على عقب وأبرزت نقط الاختلاف هو انكار العلية والحتمية والآلية والحركة المتصلة المنتظمة المطردة . ظاهرة قذف الذرة ببعض جزيئاتها بطريقة تلقائية دليل يقوم ضد العلية ، وحركات الالكترونات دليل يقوم ضد الحركة المتصلة والحتمية وامكان التنبؤ بحركاتها بطريقة دقيقة وهذه النتائج بعض

ما وصلت اليه نظرية الكوانتم ، ولما كانت هذه النظرية تنظر الى المادة نظرة جسيمية أي ان الذرات والاشعاع انما لهما مع الطبيعة الجزيئية : لها كتلة واتجاه في الحركة وقصور ذاتي ونحو ذلك ، فقد سميت نظرية الكوانتم بالنظرية الجسيمية Particle theory في النظر الى المادة .

ولكن تتالت الابحاث في نظرية الكوانتم ما يتضمن ان الصورة الجسيمية في النظر الى المادة لا يتفق والواقع ومن ثم نشأت نظرية يسميها اصحابها نظرية الكوانتم الجديدة New quantum theory أو نظرية كوانتم كوبنهاجن Copenhagen quantum theory نسبة الى ان اكبر أعلامها من دنرك وأشهرهم هيزنبرج Heisenberg . تميل النظرية الجديدة إلى الاخذ بالنظرية الموجية الى العالم الذري . ونكتفي من نظرية الكوانتم الجديدة بالنتائج التي وصلت اليها فيما يختص في تصورهم للالكترون وطبيعة المادة .

يتفق هيزنبرج مع انيشتين في أسس النظريات النسبية وهي القضاء على تصورات المكان المطلق والاثير . ويتفق كذلك مع ما وصلت اليه تلك النظريات من اكتشافات فيما يختص بتفسيرها للفضاء وتحديد الحركات الكوكبية والنجمية . ويطبق تلك النظريات على الالكترون : يفترض انه لا معنى للتحديث عن خواص الالكترون في اطار المكان وحده وانما يجب ان نتحدث عنها في اطار الزمن ايضاً ومن ثم يجب ان نتصور التركيب الرياضي للالكترون على أنه نسق من الموجات System of waves لا على انه جسيم يتحرك كطلقات البارود .

وينقد هيزنبرج بور في وصفه لحركات الالكترون ، ويقول اننا لا نصل الى هذه الحركات حتى باستدلال . ان البروتون وحده أو الإلكترون وحده ليس مما تمكن ملاحظتها لأن الواحد منها منعزلاً عن الآخر لا يصدر عنه شيء ومن ثم لا نعلم عن اي منها شيئاً ولن نعرف اذن ان لهما وجوداً . حين يلتقي البروتون والالكترون كما نجد في ذرة الايدروجين تحدث اشياء ومن ثم نبداً معرفتنا عن كليهما وما يحدث هو أن يصدر عن ذرة الايدروجين

فوتونات أو تمتص فوتونات من خارج كما يبدو ذلك من طيف الايدروجين Hydrogen spectrum . أما ما يصفه بور من دورة الالكترون حول البروتون فانه مما لا يمكننا ملاحظته لا بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر .

إن أي وصف للالكترون وصفاً دقيقاً - في نظر هيزنبرج - انما هو رجم بالغيب . حين توجد كرتان على منصدة البلياردو ونضرب واحدة منها صوب الاخرى فقد تذهب كرة إلى يمين والاخرى الى يسار . قل مثل ذلك في الالكترونات حين تصطدم ، مع فارق انه لا يمكننا معرفة أي الالكترونين اتجه الى يمين أو الى يسار . يعتقد هيزنبرج أن الالكترونين a و b حين يصطدمان يتألف منها نقطة من السيل الكهربائي drop of electric fluid تلك التي تتفتت من جديد لتؤلف الكترونين جديدين c و d . حين نسأل اين ذهب a بعد اصطدامه بـ b ؟ الجواب هو ان a لم يعد يوجد على الإطلاق . ومن ثم وصل هيزنبرج الى « مبدأ اللاتحديد » Indeterminacy Principle : وخلاصته أن من المستحيل - باستخدام أي جهاز لدينا أو ما يمكن تصور تصميمه في المستقبل - أن نكتشف الوضع الدقيق للاكترون وسرعته الدقيقة في حركته في وقت ما . ومعناه اننا اذا حاولنا أن نؤلف تصوراً لطبيعة الالكترون كجسم لا يمكننا تجاهل الطريقة التي نعرفه بها : ان الطريقة الوحيدة لمعرفةنا له هي تدخلنا في وجوده وبعث الاضطراب فيه باستخدام اجهزتنا ، وحين تتدخل اجهزتنا لتسجل ما يحدث للالكترون لم يعد الالكترون كما هو في طبيعته . إما أن نقيس وضعه في المكان قياساً دقيقاً ولكن حينئذ لا نستطيع قياس سرعة حركته واتجاهها قياساً دقيقاً ، وإما ان نقيس سرعته قياساً دقيقاً ولكن ذلك القياس يعبث بالوصول الى وضعه المكاني بالدقة المطلوبة .

من هذه الابحاث وصل هيزنبرج إلى أن تصور الالكترون جسيماً وتصور حركانه تصوراً دقيقاً مستحيل وصل كذلك الى نقطة في طبيعة المادة . طبيعة المادة غير معروفة لنا بمعنى اننا لن نستطيع القول ان المادة تتألف من

ذرات أو من طاقات . نستطيع فقط ان نقول اننا نعرف المادة عن طريق الذرات أو الطاقة ، وهذا لا يعني ان المادة تتألف من هذه . يستنتج أيضاً أن القول بأن الذرة تتألف من كذا وكذا ويمكن وصفها وصفاً دقيقاً وانها من طبيعة جسيمية قول لا يتسق ومعادلاتنا الرياضية المجردة التي نصل اليها . يرى هيزنبرج أن نظرية الكوانتم - التي لا تعبر عن نتائجها الا في لغة رياضية مجردة - اغراق في التبسيط ، ويضع بدلاً منها نظرية الكوانتم الجديدة التي تضع نتائجها في لغة رياضية أكثر تجريداً . ثم نقول ان هذه اللغة لا تصف لنا المادة وانما تصف معرفتنا لها . ومن ثم يلوم سابقه على قولهم ان ابجاث الذرة تنكر الحتمية والعلية يقول هو : نعم لا نرى العلية والحتمية، ولكن انعدام العلية والحتمية ليستا خصائص للمادة ولكنها خصائص معرفتنا عنها فقط . ولا زالت الابجاث في معرفتنا عن المادة تجري ، لا معرفتنا عن طبيعة المادة .

تلك اشارة موجزة إلى النظرية الذرية ، وهي اشارة غير كافية لانه لكي نعرض هذه النظرية عرضاً كافياً كان يلزمنا أن تدخل في تفصيلات ابجاث العلماء . وهي تفصيلات يمكن التعبير عنها فقط بلغة رياضية عالية ، وليس هذا التفصيل مجال الكتاب . ما يهمنا فقط أن نشير إليه هنا هو أن النظرية الذرية لم تبدأ بمصادرة العلية ، ولم تبدأ بالبحث في وقائع وتجارب مما يقع تحت الحس أو حتى تحت المكبرات ثم محاولة تفسير هذه التجارب تفسيراً علياً ثم تعميمها في صورة قوانين . لقد بدأت النظرية بفرض صوري - هو فرض الذرة - لا يشير إلى ما يدرك ادراكاً حسيماً مباشراً بصورة أو باخرى . لا شك أن قد سبق ذلك الفرض خطوات كثيرة جداً من الملاحظات والتجارب والتعميمات ، منها ما أمكن تحقيقه تحقيقاً تجريبياً مباشراً ومنها ما أمكن تحقيقه تحقيقاً غير مباشر ، ولكن لوحظ في تلك الخطوات التي انطوت على قوانين علمية أن تلك القوانين محتاجة هي ذاتها لتفسير : وكان فرض الذرة هو التفسير . وواضح من اشارتنا الى النظرية النظرية أن اللغة الرياضية البهتة

هي اللغة الوحيدة في البحث وليست تلك القواعد التي كانت ينصحننا بها فرنسيس بيكون وچون مل وأتباعها . تتضمن النظرية كذلك أنها لم تبدأ بالتسليم بمبدأ العلية كأساس في البحث . اننا نجد ان العكس هو الصحيح : وصلت نظرية الكوانتم الى انكار هذا المبدأ ، وانكرت مع هذا المبدأ مبادئ الحتمية والآلية وامكان التنبؤ الدقيق . ولكن لما تطورت نظرية الكوانتم على أيدي هيزنبرج وزملائه باسم نظرية الكوانتم الجديدة ووجدنا هؤلاء يفرقون بين الظاهر والحقيقة ، بين خبرتنا وانطباعاتنا عما يحدث امامنا وما يمكن استنتاجه من جهة وحقيقة المادة من جهة أخرى ، بين الصيغ الرياضية التي نصوغ فيها خبراتنا عن المادة ، والمادة كما هي في حقيقتها ، وأن علمنا محدود بالخبرات والظواهر وصيغها ، أما حقيقة المادة وتركيبها فمبنيها وبينها ستار - لما وصلت نظرية الكوانتم الجديدة الى ان علمنا محدود بعالم الظواهر أمكنها ان تقول : نعم : لا حتمية ولا علية ولا امكان تنبؤ - ولكن هذه محمولات لخبراتنا وما يبدو لنا . وهذا لا يعني بالضرورة أن ليس بالعالم في حقيقته حتمية أو علية . قد يكون العالم حتمياً عالياً ولكننا لا نعرف ذلك . وشتان بين هذه الأسس المنهجية والأسس كما رسمها الاستقراء التقليدي .

نعود الى الفرض الصوري الذري وطرق تحقيقه . ليست الذرة موضوع ادراك حسي مباشر لا بالحواس ولا بالمكبرات . وحين نقول ان الذرة مؤلفة من إلكترون أو عدة إلكترونات تتحرك حركة مستمرة حول النواة فاننا لا نرى أياً من هذه الجسيمات . حين لا تشع الذرة طاقة ضوئية أو لا تمتص هي طاقة من خارج لا نعرف عن الذرة شيئاً على الاطلاق . نصل إلى وجود الذرة ونبدأ نتحدث عن تركيبها حين تحدث حوادث اشعاع الطاقة أو امتصاصها . ولكن هذه الطاقة مؤلفة من موجات ضوئية أو كهرومغناطيسية . وهذه الموجات - كما قلنا في اشارتنا الى النظرية الموجية في طبيعة الضوء - لا ترى مباشرة وانما نعرف شيئاً عنها حين تصل آثارها على أعيننا والاعصاب البصرية في المخ ؛ حينئذ نبدأ نتحدث عن الطاقة التي هي مؤلفة من فوتونات؛

ولا يمكن التعبير عن تلك الفوتونات إلا بلغة رياضية : لا نرى الفوتون ولكننا نعرف انه يسافر عبر الفراغ حسب قوانين دقيقة وضحتها ماكسويل في نظريته الكهرطيسية : من تلك القوانين نستدل على وجود الفوتونات ومن ثم الطاقة .

قلنا اننا نبدأ معرفتنا عن الذرة بوصولنا إلى قوانين الاشعاع ، ومن ثم قلنا إن الذرة تتألف من الكتلونات ونواة . إن الإلكترون هو الآخر لا يرى ولكننا نستدل على وجوده من ملاحظة مداراته - هذا ما اكتشفه بور ، ولكن هيزنبرج أبان من بعد أن من المستحيل أن نتحدث عن خواص ثابتة للإلكترون مثل الوضع المكاني الثابت وسرعة الحركة الثابتة وتميزه من باقي الإلكترونات . نستطيع فقط أن نأخذ صوراً شمسية لمرات الإلكترونات : وهذه المرات ليست الكتلونات وانما اشعاعاته فقط ، وهي كل ما يرى للإلكترون . ونلاحظ أن تلك المرات والاشعاعات يمكن وصفها بلغة رياضية فقط .

أما عن النواة فمعرفتنا المباشرة مستحيلة . اننا لا نرى النواة ، ولا حتى نراها في الصور الشمسية : اننا نرى في الصور الشمسية تسجيلاً لاشعاعات . ونقول انها تخرج من مركز الذرة . ماذا يحدث داخل النواة لا يعرفه علم الطبيعة ^(١) .

المنهج الفرضي والاستقراء

نريد أن نناقش في هذه الفقرة القصيرة الرأي القائل بأن الاستقراء هو منهج البحث في العلوم التجريبية بوجه عام والطبيعية بوجه خاص ، ظناً من

(١) أهم مصادر هذه الفقرة : B. Russell, Outlines of Philosophy, pp. 160 - 165.

J. Jeans, The New Background of Science, pp. 17 - 20 , 151 - 181. , Physics and Philosophy, pp. 174 - 178.

W. Heisenberg, The Physicist's Conception of Nature, pp. 14 - 15, 38 - 46.

L. W. H. Hull, History and Philosophy of Science, p. 257, 275, 317.

قائله أن الاستقراء مقصور على المعنى الذي نادى به بـيكون، ومل . أما وقد بان لنا أن العلوم الطبيعية في صورتها المعاصرة يستخدمون المنهج الفرضي ، فقد نـمـيل الى تسمية الاستقراء البيكوني الميلي بالاستقراء التقليدي . نريد الآن أن نتساءل هل المنهج الفرضي منهج استقرائي بالمعنى التقليدي ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يلزمنا ان نشير الى أوجه الشبه وأوجه الاختلاف والعلاقة بين الاستقراء التقليدي والمنهج الفرضي .

يتشابه المنهج الفرضي والاستقراء التقليدي في أن نتائج كليهما قضايا كلية . اننا في النظرية الجسيمية أو الموجية للضوء نتحدث عن « كل الضوء » وعن « كل فوتون » وفي النظرية الذرية نتحدث عن « كل الكترون » و « كل نواة » . ولكن تبغي ملاحظة أن « الكلية » في النتائج مستخدمة في المنهج الفرضي بمعنى غير الذي استخدمه الاستقراء التقليدي — « الكلية » في الاستقراء التقليدي تتضمن « الضرورة » و « اليقين » وامكان التنبؤ الدقيق بـحوادث المستقبل ، أما « الكلية » في المنهج الفرضي فانها تتضمن « الاحتمال » — لا الاحتمال كما تفهمه نظريات الاحتمال الرياضية وانما الاحتمال بمعنى الميل الى التصديق اكثر من الانكار ، وتتضمن إمكان التنبؤ دون ثقة تامة في ذلك التنبؤ . وتغير هذا المعنى للكلية ناتج للابحاث الفلسفية التي تطورت والمتعلقة بمشكلة الاستقراء والتشكك في الحتمية التامة لظواهر الطبيعة ووقائعها .

يختلف المنهج الفرضي والاستقراء التقليدي في تصورهما للعلمية : اتخذ الاستقراء التقليدي أساساً أول ومصادرة أولى لإمكان البحث العلمي كما أنه تصور كل قضية كلية علمية انما تنطوي على علاقة عليية . أما المنهج الفرضي فانه لا يصادر على العلمية ولا يعتبرها أساساً بدونه لا يبدأ البحث العلمي : لا قوة لتصور العلمية إذا استند إلى برهان قبلي ، وله قوته إذا جاءت التجارب محققة له : وحينئذ لا مانع من أن نعلن أن هناك علاقة عليية بين كذا وكذا من الظواهر ، كذلك اذا جاءت التجارب وانطوت على عدم وجود علاقات عليية

فانا نجاهر بذلك ونثبتته .

تتبين العلاقة بين المنهج الفرضي والاستقراء التقليدي إذا نظرنا إلى الخطوات التي يتبعها كلاهما : يستخدم كلاهما الملاحظة والتجربة ويستخدم الفروض ويحقق تلك الفروض ، ولكنها ينظران إلى هذه الخطوات نظرة مختلفة . الفرض في الاستقراء التقليدي تابع للملاحظة والتجربة ويتضمن الإشارة إلى مدركات حسية ، ويستلزم أن يتحقق تحقيقاً تجريبياً مباشراً . ولكن الفروض في المنهج الفرضي فروض صورية أي تتضمن الإشارة إلى ما لا يدرك بالحس من حيث المبدأ أو هي فروض تربط الملاحظ بأشياء لا تسمح لنا طبيعتها بملاحظتها ، وإن تحقق هذا الفرض لن يكون تحقيقاً تجريبياً مباشراً ، وإنما تحقيق تجربي غير مباشر : أي يمكن تحقيق نتائج استنباطية تلزم عن ذلك الفرض ، وأحياناً تكون تلك النتائج المستنبطة لا تسمح لنا بتحقيقها وبذا نضطر للقيام باستنباط نتائج من هذه ، وهذه يمكن أن تتحقق تحقيقاً مباشراً . وهذه الخطوة - خطوة التحقيق التجربي غير المباشر - هي التي تتضمن الملاحظة والتجربة واذن فالملاحظة والتجربة خطوة ثالثة على الأقل في خطوات المنهج الفرضي - أولها تسجيل الفرض الصوري وثانيها استنباط نتائج منها . لاشك أن قد سبق تسجيل الفرض الصوري خطوات كثيرة مستندة إلى الخبرة ويفهم ذلك إذا علمنا أن هدف الفرض الصوري لا تفسير ظاهرة أو ظواهر بل تفسير قوانين وصلنا إليها من قبل بتعميمات تجريبية ويراد لها مزيد من تفسير .

إن سألتني من جديد هل المنهج الفرضي استقراء أم ليس استقراء ؟ أجبت : ليس كل منهج يستخدم الملاحظة والتجربة يسمى استقراء ، وليس كل منهج يستخدم الفروض يسمى استقراء ، وليس كل منهج يشترط التحقيق التجربي يسمى استقراء بالمعنى التقليدي . يستخدم المنهج الفرضي هذه الوسائل والشروط ولكنه لا يسمى لاستخدامه هذه استقراء كما فهمه سيكون ومل : يفهم هذا المنهج تلك الوسائل والشروط فيها مختلفاً ويرتبها ترتيباً مختلفاً : الفرض الصوري والتحقيق غير المباشر ، والملاحظة والتجربة في النهاية حين نريد التحقيق ، واسقاط العملية كأساس للبحث : هذه العناصر يرفضها التقليديون ولكنها

خصائص المنهج الفرضي . المنهج الفرضي او المنهج العلمي المعاصر يستخدم الاستقراء لكنه ليس الاستقراء : يستخدم الاستقراء أي يحتكم الى الخبرة الحسية لتحقيق نتائج ، لكنه يستخدم الاستنباط الرياضي والفلسفي الى جانب الخبرة ؛ كذلك يرفض المنهج الفرضي الاستقراء التقليدي طريقة له في البحث .

الفصل التاسع

التحقيق التجريبي

مقدمة

وصلنا في نهاية الفصل السابق الى ان المنهج الفرضي - المنهج العلمي المعاصر - والمنهج الاستقرائي التقليدي على ما بينها من اختلافات يتفقان في أن التحقيق التجريبي هو معيار صدق الفرض العلمي مهما كانت طبيعة ذلك الفرض . سنعالج هذه النقطة - التحقيق التجريبي - في هذا الفصل ، وسيكون علاجنا هذه المرة تصويراً لا لأقوال العلماء أو أقوال الفلاسفة الباحثين في منطق العلوم وانما تصوير لاتجاه فلسفي معاصر يمكن ان نضع له العبارة العامة « الفلسفة التحليلية » (حيث يندرج تحت هذه العبارة مذاهب معاصرة تختلف فيما بينها) . سنجد في تصويرنا لطرف من ذلك الاتجاه دليلاً آخر على أن الفيلسوف ينظر إلى أن التحقيق التجريبي لقضايا العلم أكثر صعوبة وتعقيداً مما تصوره الاستقراء التقليدي . نقصد الاشارة هنا الى مبدأ إمكان التحقيق Principle of Verifiability ، نادى به ألفرد فيلر إير A.J. Ayer أحد كبار الفلاسفة المعاصرين عام ١٩٣٦ . يرى إير في عرضه لهذا المبدأ أن القضية التجريبية انما هي بمثابة فرض ينتظر التحقيق ، وأن تحقيق هذا النوع من القضايا ليس بالبساطة التي كان يتصورها فرنسيس

بيكون وچون مل ؛ بل حين تطور البحث في هذا المبدأ واصبح موضوع نقد بعض الفلاسفة المعاصرين صار تحقيق القضية التجريبية اكثر صعوبة مما تصور إير نفسه . وينبغي ملاحظة أن الحديث في مبدأ إمكان التحقيق ليس حديثاً في فلسفة العلوم فقط وانما هو حديث يربط فلسفة العلوم بمشكلات نظرية المعرفة .

أعلن إير مبدأه تحت تأثير المدرسة الفلسفية المعاصرة المعروفة باسم الوضعية المنطقية Logical Positivism (وهي إحدى مدارس الفلسفة التحليلية) . تأثر إير بالفلاسفة الوضعيين المناطقة في بداية نشأتهم أي حوالي عام ١٩٣٠ ، وكانت أبرز نقطة في تلك المدرسة المنطقية هي محاولة توجيه الفلسفة وجهة جديدة تتضمن أولاً وقبل كل شيء الثورة على الميتافيزيقا وبيان أنها مجموعة خرافات لا تستحق أن تكون فرعاً من فروع الفلسفة . ولا بأس من ملاحظة أن تأثر إير بهذه المدرسة الوضعية لا يعني تبعيته لها جملة وتفصيلاً؛ إنه تأثر بهم تأثراً نقدياً أي اتفق معهم في الاتجاه ولكنه لم يتفق معهم في كل تفصيلات ما قالوه : مثله في ذلك كمثل برتراند رسل في المجلثا واستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود في الجمهورية العربية المتحدة .

لن نعرض هنا رأي فلاسفة الوضعية المنطقية في مبدأ إمكان التحقيق بوجه خاص ، وانما سنقتصر على عرض رأي إير ؛ قد نشير الى رأيهم فقط بالقدر الذي يوضح لنا فيم اتفق معهم إير وفيم اختلف عنهم .

ويمكن ملاحظة أن لم تكن الوضعية المنطقية أول مدرسة في تاريخ الفكر نادت بانكار الميتافيزيقا ، إذ يرجع بيان عقم الميتافيزيقا الى القرن الرابع عشر الميلادي حين دعا اليه بعض فلاسفة العصر الوسيط والذي قد يتمثل في وليم اوف اوكام W. Of Occam (١٢٩٥ - ١٣٤٩) الذي نادى بالمذهب الاسمي Nominalism في موضوع الكليات ، ونيقولا دوتركور N. D'Autrecourt في نفس القرن في نقده لمشكلة الجوهر . تتمثل الدعوة العدائية للميتافيزيقا كذلك في فجر الفلسفة التجريبية الانجليزية عند چون

لوك الذي أراد أن يقيم حله للمشكلات الفلسفية مستثيراً بأراء الرجل العادي وغير متجاهل لمعطيات العلوم الطبيعية وقتئذ (وان لم تخل فلسفة لوك من ميتافيزيقا) . ولعل دافيد هيوم D. Hume من اكبر فلاسفة القرن الثامن عشر رائد الوضعية المنطقية الأول . إن انكار الوضعية المنطقية للميتافيزيقا انما قام على تصنيف معين للقضايا نادى به هيوم ، اي القضايا الرياضية والمنطقية من جهة والقضايا التجريبية من جهة اخرى ، ووضح هيوم أن هذين النوعين من القضايا هي كل القضايا التي لها معنى ودلالة (١) ، ومن ثم فليس للقضايا الميتافيزيقية معنى أو دلالة حيث لا تندرج تحت أي من هذين النوعين . ولكن لم تخل فلسفة هيوم من ميتافيزيقا من نوع آخر .

مبدأ إمكان التحقيق عند إير (٢)

يعتبر مبدأ إمكان التحقيق عند إير موقفه من نظرية المعنى Theory of Meaning تلك التي تبحث في معيار الحكم على صدق قضية ما لتمييزها من القضية الكاذبة ، وهي إحدى النظريات المتضمنة في الإستمولوجيا . يخبرنا إير أن مبدأه هو معيارنا لتمييز القضايا التي لها معنى ودلالة من القضايا الفارغة من المعنى ، وبذا يصنف القضايا صنفين : قبلية وتجريبية ، ويرى أن هذين هما كل القضايا ذات المعنى ، وأن أي قضية لا تندرج تحت هذا الصنف أو ذاك فهي قضية ميتافيزيقية وابرز خصائصها انها فارغة من المعنى . القضية

(١) قارن فقرة مشكلة الاستقراء في الفصل السادس .

(٢) عرض إير هذا المبدأ في كتابه Language, Truth and Logic (١٩٣٦) وفي مقالة نشرها في نفس السنة في المجلة الفلسفية proceedings of Aristotelian Society, Vol., XXXVII وعنوانها (التحقيق والخبرة) Verification and Experience . حين ظهر الكتاب والمقالة كان مشار اهتمام الفلاسفة وتعليقاتهم مما اضطر إير الى اعادة نشر الكتاب بعد عشر سنوات مضيئاً اليه مقدمة طويلة يضمن فيها موقفه الجديد من المبدأ ، وبيان وجهة بعض اعتراضات المعارضين والرد على بعضها الآخر . لن نذكر هنا بالتفصيل عرضاً للمبدأ في كل من الطبعة الاولى والثانية لهذا الكتاب على حدة ، وانما نوجز موقفه الاخير متكاملًا .

الميتافيزيقية ما ليست قبلية ولا تجريبية (١) .

يبدأ إير شرحة للمبدأ بأن يميز بين التحقيق القوي والتحقيق الضعيف أو بمعنى أدق المعنى القوي والمعنى الضعيف لعبارة «ممكن التحقيق» strong and weak senses of verifiable . نقول عن قضية ما انها ممكنة التحقيق بالمعنى القوي اذا كان من الممكن اثبات صدقها اثباتاً حاسماً ولكن القضية ممكنة التحقيق بالمعنى الضعيف اذا كان من الممكن للخبرة أن تجعل لتلك القضية صدقاً احتمالياً (٢) . ينتقل بعد ذلك الى الإشارة الى أن القضايا التي يمكن تحقيقها بالمعنى القوي نوعان : القضايا القبلية وما يسميه القضايا الأولية . Basic Propositions

القضايا القبلية

القضايا القبلية قضايا لا يتوقف صدقها على تحقيق تجريبي واكتفاء مستقلة عن عالم الخبرة ، وذلك لأنها لا تتعلق بعالم الخبرة ولا تقدم لنا أخباراً عنه ، وبالرغم من أنه لا يجري على تلك القضايا تحقيق تجريبي فهي صادقة صدقاً مطلقاً . إن السبب الذي من أجله تكون هذه القضايا مطلقة الصدق واليقين أنها تسجل فقط طريقة استخدامنا لألفاظ اللغة أو لرموز معينة بطريقة خاصة . اذا كان لدينا قضية قبلية وعرفنا كيف نستخدم الالفاظ أو الرموز الواردة فيها استخداماً صحيحاً كانت تلك القضية ضرورية بمعنى أن في انكارها تناقضاً واضحاً . وكما أن صدقها لا يعتمد على الخبرة فان تلك الخبرة لا يمكن ان تكذبها أو تنقضها لسبب بسيط هو ان ليس لها محتوى تجريبي . ونسمى القضايا القبلية تحصيل حاصل . تكون القضية تحصيل حاصل اذا امكننا ان نستخرج منها نتيجة متضمنة فيها دون اضافة عنصر جديد غير

(١) Ayer, Language, Truth and Logic, 1st. ed. 1936, 2nd ed. 1946, 13th impression of the 2nd.ed. 1958. V. Gollancz, London, p.41.
(٢) Ibid., p.37

ما هو موحود من قبل فيها . وتسمى القضية القبلية أو تحصيل الحاصل قضية تحليلية . ومن أمثال هذا النوع من القضايا كل قضايا الرياضة والمنطق . فمثلا القضية القائلة بان $3 \times 3 = 9$ ، والقضية القائلة بان الزوايا الداخلة للمثلث قائمتان (بافتراض مكان اقليدس) ، والقضايا القائلة بان الجزء اصغر من الكل أو أن ما يصدق على القضية الكلية يصدق على القضية الجزئية المتداخلة معها أو انه لا يمكن ان تكون قضية ونقيضها صادقتين معاً أو كاذبتين معاً - كل هذه القضايا انما يبدو صدقها من مجرد النظر إلى الاعداد وعلامات الضرب والمساواة وفهم معانيها أو مجرد النظر الى الالفاظ المترابطة وفهم معانيها . حقاً قد نصل الى هذه القضايا بطريق استقرائي أول الأمر بمعنى انه لا بد واننا أتينا بورقة وقلم ورسمنا مثلثاً أو كتبنا معادلة أو شاهدنا وقائع معينة لنرى صدق هذه القضية القبلية او تلك . لا بد ان ارسطو شاهد كثيراً من الناس ماتوا ومنهم سقراط قبل أن يكتب قياسه القديم كل انسان فان وسقراط انسان اذن سقراط فان . نعم . هذا حق ولكن حالما فهمنا هذه الالفاظ والرموز التي تحتويها تلك القضايا نرى انها مطلقة الصدق وانها صادقة في كل مثال متصور . اننا لا نتصور أن $3 \times 3 = 10$ ولن نلجأ الى الخبرة لنرى صدق المعادلة أو كذبها ؛ يكفي أن نعرف ماذا يعني العدد 3 وماذا تعني علامات الضرب والمساواة لنعرف ان المعادلة خاطئة وهكذا في باقي الأمثلة .

قد يقال أن الفاظ اللغة تقليد انساني ومن صنع الانسان ، وكذلك الرموز ، ومن ثم فمن الممكن ان نتواضع على تقليد جديد ونعطي للالفاظ والرموز معان جديدة ومن ثم قد تصبح قضية ما قبلية كاذبة بعد أن اعتقدنا من قبل صدقها المطلق . هذا القول فاسد لأننا لا نقول ان لكل لفظ معنى محددأ ولكننا نقول : ان العلاقة بين المعاني التي تدل عليها الالفاظ المؤلفة للعبارة الدالة على القضية القبلية علاقة ضرورية ولا يمكن تصور كذبها . تواضع كيف شئت على استخدام جديد للالفاظ والرموز ، ستظل القضية الرياضية والمنطقية صادقة صدقاً مطلقاً : قل سألني بالرمز 3 ما كنا نعني

بالرمز ٢ ، وسوف نقول اذن $3 \times 3 = 9$. هذه المعادلة صحيحة، وصحيحة فقط إذا أردت بانك تعني بالرمز ٩ ما كنا نعني بالرمز ٩ (١) .

القضايا الأولية BASIC PROPOSITION

كان إير على اتفاق مع الوضعيين المناطق في ان القضايا القبلية أو التحليلية ضرورية الصدق وانه لا تحققها الخبرة وانما تتحقق فقط عن طريق الاستخدام الصحيح للرموز أو الالفاظ المحتواة في تلك القضايا ؛ ولكنه اختلف معهم في أمور عدة منها - وهو موضوع هذه الفقرة - ان هنالك نوعاً من القضايا تستوى مع القضايا القبلية في ضرورة صدقها وان تحقيقها تحقيق حاسم وان تحقيقها تحقيق بالمعنى القوي . تلك هي ما يسميه إير (القضايا الأولية) وهي تختلف عن القضايا القبلية في أنها قضايا تجريبية ، ويكون تحقيقها عن طريق اتفاقها أو عدم اتفاقها مع الوقائع . ومن أمثلة القضايا الأولية تلك التي تعبر عن احساسات الاشخاص حين يعلنها هؤلاء الأشخاص مصورين خبراتهم الخاصة بهم ، مثل قولنا (ارى الآن شيئاً أحمر اللون) ، (اسمع صوتاً مرتفعاً) ، (انا حزين) ، (أشكو الآن صداعاً في الرأس) ، (أحسن الجو بارداً) ونحو ذلك .

نقول يختلف إير عن الوضعيين بشأن القضايا الأولية ، لا لأن الوضعيين المناطق انكروا وجود تلك القضايا ؛ لأنهم سمحوا بها ولم ينكروا أن من الممكن تحقيقها بالخبرة ، وانما اختلف عنهم في طريقة تحقيق تلك القضايا . يرى إير أن القضايا الأولية تتحقق عن طريق اتفاقها مع الوقائع ، والوقائع هنا هي الخبرة الراهنة ، بينما يرى الوضعيون أنه يمكن تحقيقها بمقارنتها بعدد آخر من القضايا ، فان اتسقت القضية الأولية مع تلك القضايا كانت صادقة وان تنافرت كانت القضية كاذبة . يصر نيروث Neurath وهميل Hempel أنه لا معنى لمقارنة قضية بواقعة وانما يمكن مقارنة قضية بأخرى أو بعدة

Ayer, Ibid., pp. 16, 31, 41, 47, 75, 77, 79, 80, 82, 84.

(١)

قضايا أخرى ، وما يسميه إير بالقضايا الأولية يسميه هـذان الفيلسوفان « قضايا البروتوكول » Protocol Propositions . ويشترط أن تحتوي قضية البروتوكول في نظرها على اسم علم أو وصف معين لشخص ما يلاحظ شيئاً محدداً أو تحتوي على كلمات تشير الى فعل الملاحظة ^(١) . ولا يمكن تحقيق قضايا البروتوكول تحقيقاً تجريبياً مباشراً في نظر الوضعيين . ويظهر أن الوضعيين يستندون في رأيهم ذاك الى نظرية الاتساق Coherence Theory (احدى النظريات في معيار الصدق) التي ترى أن تكون قضية ما مقبولة اذا اتسقت مع القضايا المقبولة الاخرى ، ومرفوضة اذا لم تتسق مع تلك القضايا المقبولة ، والتي ترى ايضاً انه اذا كنا متحمسين لقضية ما تتعارض مع نسقنا المؤلف من القضايا فانه يجب علينا في هذه الحالة أن نستبعد قضية او اكثر من القضايا التي قبلناها من قبل .

كانت هذه النظرية الوضعية المنطقية عرضة لنقد كثير من الفلاسفة المعاصرين ، ولم تكن عرضة لنقد إير فحسب . وفيما يلي نشير الى أهم هذه الاعتراضات :

١ - من الممكن ان توجد مجموعة معينة للقضايا يؤيد بعضها بعضاً وتتألف منها جميعاً وحدة متسقة الاتساق المنطقي الدقيق ، وانها اكثر تماسكاً فيما بينها من تماسك مجموعة او مجموعات اخرى من القضايا ، بحيث انه اذا قبلنا إحدى قضايا المجموعة يجب علينا ان نقبل كل القضايا الاخرى في تلك المجموعة - من الممكن وجود مثل تلك المجموعة من القضايا ومع ذلك فهي مجموعة من القضايا الكاذبة . يمكن القول بمعنى آخر أنه قد توجد مجموعة من القضايا المتسقة فيما بينها ومع ذلك فالمجموعة كلها مستندة الى غير اساس اي لا يوجد اساس يجعلنا نقول ان المجموعة كلها تتألف من قضايا مطلقة الصدق أو يقينية . ويحق لنا ان نساءل : ولم نقبل المجموعة كلها ؟ مثل تلك المجموعة من

(١) Ayer, 'Verification and Experience' in Proceedings of Aristotelian Society, Vol., XXXVII, 1936 - 37, pp. 139 - 40.

القضايا كمثل صورة معينة من برهان ما يحكم من الناحية المنطقية ولا يتضمن اغلوطة صورية بحيث ان المقدمات تلزم عنها نتيجة ضرورية ومع ذلك فالمقدمات الأولى في ذلك البرهان مقدمات كاذبة أو على الأقل محتملة الصدق. حتى إذا قبلنا المقدمة الأولى على انها احتمالية فانما يستند احتمالها إلى قضية أخرى خارجة على النسق الذي تكون تلك المقدمة عضوا فيه (١).

(٢) يستنتج إير من النقد السابق أن نظرية الاتساق تتضمن وجود عدة مجموعات من القضايا كل مجموعة متسقة فيما بينها ومع ذلك فكل مجموعة قد تختلف أو تعارض مجموعة متسقة أخرى من القضايا أو مجموعات متسقة أخرى، ومن ثم لا نستطيع أن نسند الصدق المطلق لمجموعتين من القضايا تعارض الواحدة منها الأخرى، ولا نستطيع أن نقول إن مجموعة ما لها الصدق المطلق دون المجموعات الأخرى. ولكن يرد كارناب R. Carnap - وهو من أئمة الوضعيين المناطقة المعاصرين - على هذا الاعتراض بقوله إن التناسق والاتساق بين مجموعة من القضايا ليس كل ما نرغب فيه، وانما نريد التناسق والاتساق في المجموعة التي تتضمن قضية من قضايا البروتوكول، ويستند صدق هذه القضية بدورها إلى نتائج الملاحظات التي يقوم بها العلماء المعاصرون وهذا أساس ثقتنا في قضايا البروتوكول. على هذا الاعتراض يرد إير بتساءله: ولم نثق بعلمائنا المعاصرين ثقة مطلقة؟ إنهم مثلنا معرضون للخطأ. إن ثقتنا فيما يقوله لنا العلماء لا بد أن يقوم على أساس من الخبرة الحسية. (سنشير فيما بعد في هذا الفصل إلى أن صدق نتائج العلماء - حتى النتائج المستندة إلى تحقيق تجريبي مباشر - ليس واضحا بينا كما يظن بعض العلماء ولكنه أكثر تعقيداً) (٢).

(٣) إن موقف الوضعيين المناطقة - الذين اشرنا اليهم - في يقين القضايا

(١) هذا النقد للفيلسوف الانجليزي المعاصر پرايس H.H. price ويسجل إير هذا النقد ويقول انه أخذه من محاضرة لهذا الفيلسوف عنوانها «التحقيق وامكان التصحيح» Verification and Corrigibility راجع المرجع السابق لإير ص ١٤١ .
(٢) المرجع السابق لإير ص ١٤٣ .

الأولية خيانة لمذهبهم لا يتسق واتجاههم العام : اتجاههم العام هو الثورة على الميتافيزيقا والدعوة للأساس التجريبي ، ولكنهم انكروا الالتجاء الى الخبرة الحسية في موقفهم من تحقيق القضايا الأولية وأصروا أن يكون تحقيقها فقط في إطار النسقات اللغوية (١) .

(٤) أراد الوضعيون توجيهنا نحو معرفة شاملة للالفاظ واللغات دون ان تستند تلك المعرفة الى عالم الوقائع . كأنهم يقولون إن العالم الحقيقي هو عالم الالفاظ أما عالم الواقع فهو عالم وهمي illusory . وهذا يذكرنا بالترقية الافلاطونية بين عالم المثل وعالم الحس . يتضمن موقف الوضعيين لا أن نقول (كان يوجد رجل اسمه «سقراط») وإنما نقول فقط («سقراط» اسم) .

بعد أن نقد إير الوضعيين في موقفهم من تحقيق القضايا الأولية عاد الى توضيح رأيه في تحقيق تلك القضايا . يقول انها تتحقق تحقيقاً حاسماً بالالتجاء الى الخبرة الحسية المباشرة الراهنة ، ويتضمن هذا التحقيق أنه إذا أبدت الخبرة الخاصة الراهنة قضية اولية كانت تلك القضية صادقة صدقاً مطلقاً ولا موضع لشك فيها . لا شك في ان القضايا الأولية تعتمد على تواضعاتنا اللغوية من حيث أننا نصوغها في صور لغوية ومن حيث انه يجب علينا مراعاة الاستخدام الدقيق للالفاظ وقواعد النحو والتركيب ، ولكن تعتمد تلك القضايا أيضاً على طبيعة المعطى أو طبيعة الخبرة . القضية الأولية قضية تجريبية وتعتبر عن واقع ما ومن ثم تحقيقها كائن في مطابقتها لذلك الواقع .

(١) هذا النقد والنقد الأخير للفيلسوف برتراند رسل ضمنها مقالة بعنوان « في التحقيق »

On Verification نشرها في Proceedings of Aristotelian Society, Vol., XXXVIII, 1937 في السنة التالية للنشر إير (اللغة والصدق والمنطق) وقد اتفق رسل مع إير في موقفه من القضايا الأولية ونقده للوضعيين وزاد موقفه وضوحاً . وكان رسل وإير متفقين في تأثرهما بالوضعية المنطقية في السنوات الأولى لانشاء هذه المدرسة ، ولكن ما لبث كلاهما أن اختلف عن تلك المدرسة في بعض التفاصيل مع الاحتفاظ بالاتجاه العام . أعلن رسل ذلك بنفسه في عام ١٩٤٠ في مقدمة كتابه (بحث في المعنى والصدق) ولكن من الواضح أن موقف رسل النقدي من الوضعية قد تبلور قبل نشر هذا الكتاب بسنوات .

حين أقول اني حزين فاني أقصد وصف حالتي الانفعالية في الوقت الراهن -
وقت قول القضية . لئن سألت : وكيف عرفت انك غضبان ؟ يكون
جوابي : أني أحسه واشعر به . وكذلك ان سألت : وكيف عرفت أن
هذه الوردة حمراء ؟ أو كيف عرفت أن هذا الصوت عال ؟ يكون جوابي
دائماً : اني أراه ، اني اسمعه . ولا يمكن ان يكون هذا الجواب خاطئاً إلا
في حالات خاصة مثل اني لا استخدم الالفاظ استخداماً صحيحاً أي لا أعرف
الدلالة الدقيقة للالفاظ التي استخدمها ، أو اني أقول قضية ليفهم سامعي أني
أعبر عن حالتي الراهنة مع اني كاذب فيما أقول . أما اذا كنت استخدم
الالفاظ استخداماً صحيحاً واذا كنت صادقاً في التعبير عن احساساتي فان
القضية الاولى التي تصف تلك الاحساسات لا يمكن إلا ان تكون صادقة ،
وقائلها لا يشك في صدقها ، ولا يمكن لسامعها أن يكون له رأي أو اعتراض
عليها . ومن ثم يقول إير إن القضية الأولى لا تقبل التصحيح أو التعديل أو
الشك incorrigible . والسبب في صدقها المطلق أن العلاقة ضرورية
- والضرورة هنا منطقية بمعنى عدم تصور نقيضها - بين القضية الأولى
وقائلها : أنا الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يعرف احساساته وانفعالاته
والذي يستطيع ان يعبر عنها ، أما الآخرون فلا يعرفون عنها شيئاً من غير
ان انقلها لهم في صورة لغوية أو صورة تعبيرية أخرى . «انك لا تحس ألم
اسناني ، ، انا لا احس صداد راسك» قضايا ضرورية (١) .

يؤيد رسل موقف إير في موقفه من القضايا الأولى ، وقد ذكر تأييده في
مقال (في التحقيق) الذي اشرنا اليه الآن يعرف رسل القضية الاولى بانها
ما نعتقد بها اعتقاداً تاماً عن طريق خبرة واحدة . ويحلل تلك القضية من
جوانبها النفسية والمعرفية . أما من الجانب النفسي يقول رسل اذا قلت « اني
اسمع صوتاً خارج الحجرة التي اجلس فيها » وأقول ما هذا الصوت ؟ ان
سؤالي هذا لا يتضمن شكاً في حدوث الصوت فذلك ما اعتقد بحدوثه تماماً

(١) مرجع إير السابق ص ١٥٢ - ١٥٦ .

ولكنه يتضمن محاولة معرفة مصدره وظروفه . لم اعتقد بهذه القضية قبل سماع الصوت ، وحين اعتقدت بها اعتقدت بها لسبب وحيد وهو اني سمعت الصوت . قد يقال ان الخبرات السابقة قد ساعدتني على سماع الصوت . هذا حق إذا كنت اعني ان تلك الخبرات ساعدتني على أن اصوغ اعتقادي في صورة لفظية . ولكن ليست هذه الخبرات سبب الاعتقاد . سبب الاعتقاد هو المعطي الحسي ذاته . وتتميز القضية الاولى بأنه لا يعرض لها شك وانها ليست نتيجة استدلال أو نتيجة خبرة لاحقة . وأما خلاصة تحليل رسل المعرفي للقضية الاولى فهي ان الخبرة تأتي أولاً ثم يأتي بعد ذلك وضعها في صورة لغوية ثم يأتي دور الخبرة ذاتها لتحقيق تلك الصورة اللغوية .

تحقيق القضايا التجريبية العامة

أشرنا من قبل الى ان مبدأ إمكان التحقيق انما هو نظرية في المعنى بفضلها نستطيع أن نميز القضايا التي لها معنى من القضايا الفارغة من المعنى ، والى ان القضايا التي لها معنى هي القضايا القبلية من جهة والقضايا التجريبية من جهة أخرى ، وان القضايا الميتافيزيقية قضايا لا معنى لها . أشرنا ايضاً الى أن المبدأ يتضمن التحقيق بالمعنى القوي والتحقيق بالمعنى الضعيف : وان القضايا القبلية تتحقق بالمعنى القوي أي انها قضايا ضرورية مطلقة الصدق واليقين وتتميز تلك القضايا بانها مستقلة عن الخبرة الحسية ولا يعتمد تحقيقها على مطابقتها للواقع وانما على مجرد استخدام صحيح للالفاظ وعلى علاقات ثابتة بين تلك الالفاظ ، وأن القضايا الرياضية والمنطقية كلها قضايا قبلية وتتحقق بالمعنى القوي . أشرنا اخيراً الى ان هنالك نوعاً فريداً من القضايا التجريبية تشارك مع القضايا القبلية في انه ممكن التحقيق بالمعنى القوي أي انها قضايا ضرورية مطلقة الصدق واليقين بالرغم من ان تحقيقها يعتمد على مطابقة الخبرة الحسية لها وهي القضايا الاولى ومن امثلتها كل القضايا الوجدانية الخاصة والقضايا التي تعبر عن الاحساسات والانفعالات الشخصية .

نشير في هذه الفقرة الى طريقة تحقيق القضايا التجريبية العامة وأن تحقيقها

يمكن فقط بالمعنى الضعيف أي يمكن تحقيقها فقط بالرجوع الى الخبرة الحسية وأن تأييد تلك الخبرة لها لا يحيلها يقينية الصدق وانما يجعلها فقط احتمالية الصدق . يرى إير ان القضية التجريبية إنما هي بمثابة فرض ينتظر التحقيق بالاثبات او الانكار . إنها بمثابة سؤال نلقيه على الطبيعة ويتحدد الجواب بالوصول إلى مجموعة من الملاحظات الحسية التي تؤيد هذا الفرض أو تنكره . تتميز القضية التجريبية بأنه يجب أن تصف جزءاً من عالم الخبرة الراهنة أو الممكنة فاذا أيد عالم الخبرة هذه القضية كانت صادقة واذا تنافرت مع ما لدينا من وقائع أو حوادث أو ظاهرات كانت قضية كاذبة . واذا لم يكن مضمونها مما يؤدي بنا الى خبرة حسية حاضرة أو ممكنة لم تكن قضية تجريبية على الاطلاق ، واذا لم تكن كذلك قضية قبلية بالمعنى الذي أشرنا اليه آنفاً كانت القضية بلا معنى (١) .

القضايا التجريبية العامة مثل « كل انسان فان » ، « كل معدن يتمدد بالحرارة » ، « كل ذرة تتركب من الكاترون أو الكاترونات من حولها النواة » ، « تناول الطعام الفاسد قاتل » ... الخ أمثلة لتلك القضية التجريبية التي هي بمثابة فرض ينتظر التحقيق ، وأن التحقيق الممكن هو التحقيق بالمعنى الضعيف وان ذلك التحقيق ممكن فقط اذا كان لها ما يقابلها في عالم الحس والواقع بطريق مباشر أو غير مباشر . هذا هو موقف إير من القضية التجريبية وتحقيقها ، وهو موقف يختلف عن موقف الوضعية المنطقية من هذا النوع من القضايا . كان يرى شليك Schlick ووايزمان Waismann من أئمة الوضعيين أن كل قضية - بما فيها القضية التجريبية العامة - إنما تتحقق تحقيقاً يحيلها مطلقة الصدق واليقين . ومن ثم أدخل إير تمييزه بين التحقيق الحاسم والاحتمالي من جهة وتمييزه بين المعنى القوي والمعنى الضعيف لكلمة تحقيق من جهة أخرى - ليوضح اختلافه عن الوضعيين . رأى الوضعيون ان هنالك طريقة واحدة في التحقيق هي التحقيق الحاسم ، ورأى إير ان

Ayer, Language, Truth and Logic, pp. 31, 35, 41.

(١)

ليس من طبيعة القضايا التجريبية أن تتحقق تحقيقاً حاسماً .

يقول إير ان الوضعية حين جعلت القضايا التجريبية العامة مما تتحقق تحقيقاً حاسماً كانت تطمع فيما هو مستحيل . لا يمكن اقامة الصدق الكلي لقضية تجريبية بتأييد الخبرة الحسية لها مهما كثرت حالات تلك الخبرة ؛ كلما كثرت تلك الحالات كثر احتمال صدق القضية (والاحتمال هنا بمعنى قوة ميلنا نحو تصديقها) . والسبب الذي من أجله لا يمكن للقضية التجريبية ان تتضمن الصدق المطلق إن أيدتها الخبرة هو أنه يندرج تحتها عدد لامتناه من الأمثلة الجزئية منها ما كان في الماضي ولم يقع تحت خبرتنا ، ومنها ما هو قائم في الوقت الحاضر ولكنه لم يقع تحت خبرتنا ومنها ما لم يقع في خبرتنا بعد لأنه في طي المستقبل . بعد أن أوضح إير هذه النقطة في طبيعة القضية التجريبية يعقب على موقف الوضعيين من تحقيقها بقوله إنهم يخرجون القضايا التجريبية من نطاق القضايا التي لها معنى ودلالة لأنهم يحدسون القضايا ذات المعنى فيما يمكن تحقيقها تحقيقاً حاسماً ؛ أما وأنه بان لنا أنه لا يمكن ذلك التحقيق للقضايا التجريبية تصبح هذه اذن عديمة المعنى ، ولكنهم هم التجريبيون ! يستدرك إير بقوله إن الوضعيين أدركوا أن في موقفهم هذا مفارقة - المفارقة الناشئة من تمسكهم بمعيارهم الحاسم للتحقيق من جهة والنتيجة بان القضايا التجريبية التي يتحمسون لها ستصبح حسب معيارهم هذا قضايا ميتافيزيقية وهي ما هم متحمسون لانكارها . يستدرك بقوله ان الوضعيين أدركوا المفارقة ولكنهم لم يضعوا حلاً لهذه المفارقة ^(١) . لقد حل إير هذه المفارقة بالتمييز بين طريقة تحقيق القضايا القبلية والقضايا الاولية من جهة وطريقة تحقيق القضايا التجريبية العامة من جهة أخرى .

يوضح إير موقفه من تحقيق القضايا التجريبية العامة بقوله ان من تلك القضايا ما تحققه الخبرة تحقيقاً مباشراً ومنها ما تحققه الخبرة بطريق غير مباشر . لم يجد إير مشكلة في التحقيق المباشر للقضية التجريبية . ولكنه

Ibid., p. 37.

(١)

يزيد موقفه شرحاً في حالات التحقيق غير المباشر . يقول ان من القضايا التجريبية ما لا تشير الى واقعة أو حادثة يمكن إدراكها مباشرة في الخبرة ، وفي هذه الحالة يجب علينا أن نستنتج من هذه القضايا قضايا أخرى ، يمكن إخضاعها للخبرة الحسية ، وقد يحدث أن تلك القضايا الأخرى لا تتصل بالخبرة مباشرة ولذلك يلزم أن نستخرج منها سلسلة من القضايا حتى نجد ما يمكننا تحقيقه تحقيقاً مباشراً . ومن ثم فالقضية التجريبية إنما هو القيام بسلسلة من تحقیقات تجريبية تتناول القضايا التجريبية ذاتها ^(١) . ومن ثم يعرف إير القضية الممكنة التحقيق تحقيقاً مباشراً بأنها تلك القضية التي تعبر عن ملاحظة مباشرة أو هي القضية التي اذا أضفنا اليها قضايا تعبر عن ملاحظة مباشرة تؤدي بنا هي الأخرى الى ملاحظة مباشرة . ويعرف القضية الممكنة التحقيق تحقيقاً غير مباشر اذا كانت بالاضافة إلى عدة مقدمات تحليلية أو قبلية يمكن ان تتحقق تحقيقاً مباشراً . ويشير إير أن تعريفه للتحقيق غير المباشر هدفاً هو قبول النظريات العلمية التي لا تتضمن اشياء ملاحظة ^(٢) .

يشير إير الى نقطة لها قيمتها البالغة في طبيعة القضية التجريبية مما لها أثر كبير في تصورنا لتحقيقها تحقيقاً تجريبياً . وهي ما يمكننا تسميتها « الغموض الطبيعي » المتضمن في كل قضية تجريبية . لكل جسم مادي عدد لا متناه من الصفات أو الخصائص نعرف بعضه ونجهل بعضه الآخر ، وهناك طرق لا نهاية لها لمعرفة أي من هذه الصفات وهنالك ظروف لا نهاية لها تظهر فيها هذه الصفة أو تلك ؛ قد يمكننا الوصول الى بعض هذه الطرق وتلك الظروف ولكننا لا نستطيع حصرها جميعاً . حين نقول للنحاس صفات الامتداد والصلابة وجودة التوصيل للكهربية لانقول اننا قد احصينا كل صفات النحاس فان معرفتنا لصفاته تتسع كلما اتسعت تجاربنا ، وليست هنالك طريقة واحدة لاختبار صلابته وانما عدد لا متناه من الطرق لاختبارها ، وقد تنشأ ظروف

Ibid., p. 94.

(١)

Ibid. , p. 13

(٢)

جديدة لمعرفة مزيد من صفاته وطرق اختبارها . ومن ثم تحقيق قضية عن النحاس هو دائماً تحقيق ناقص . ولا يطمع هذا النقص والغموض في صحة التحقيق ولكن يعني ان تحقيق القضية التجريبية لن يكون تاماً . ولا يطمع هذا النقص والغموض في قيمة التحقيق لأن التحقيق لا يستلزم الشمول والاحاطة وانما يستلزم فقط الوصول الى خبرة حسية تؤيد قضيتنا . يكفيننا الوصول الى خبرة واحدة او عدد محدود من الخبرات لعدد لا متناه من الخبرات (١) .

ويبدو ان رأي إير أثر في الوضعيين المناطقة بعد نشره الطبعة الثانية من كتابه « اللغة والصدق والمنطق » ، ومن تأثروا به فردريك وايزمان الذي اشرنا من قبل الى انه اشترك مع شليك في بدء قيام المدرسة الوضعية في القول بان القضايا التجريبية العامة بما يجري عليها التحقيق الحاسم . لقد غير وايزمان رأيه ذاك تحت تأثير كتابات إير فكتب مقالاً بعنوان « إمكان التحقيق » Verifiability (١٩٤٧) (٢) من السنة التالية لنشر إير الطبعة الثانية من كتابه المذكور . ويمكن الاشارة هنا الى اهم نقطتين في تلك المقالة .

الاولى : أي تصور تجريبي وأي قضية تجريبية تحتوي على هذا التصور انما تتميز بميزيتين اساسيتين النقص Incompleteness والتركيب المفتوح Open texture . يوضح وايزمان النقص المتضمن في وصف اي شيء مادي بمثال : اذا اردت وصف يدي اليمنى التي ارفعها الآن فقد اقول شيئاً عن شكلها او حجمها او لونها او تركيب انسجتها او التركيب الكيماوي لعظامها وخلاياها وقد اضيف اشياء اخرى ؛ ولكن مهما زادت عناصر وصفي فاني لن اصل الى نقطة اقول عندها لقد اصبحت وصفي تاماً كاملاً . من الممكن دائماً من الناحية المنطقية ان نضيف وصفاً آخر غير الذي وصفنا وقبل مثل ذلك

Ibid. , pp. 12-13

(١)

F, Waismann, Verifiability , in Proc-Arist Soc. 1937 , and (٢)
now included in Logic and Language , ed. by A. Flew, 1st. Series ,
pp. 147-144 , Blachwell , Oxford , 1st. ed, 1951

في وصف اي شيء مادي مبتدئاً بالقلم الذي اكتب به الى الالكترون او الفوتون . ويمكن مقارنة التصور التجريبي بالتصور الرياضي لنجد ان وصف اي مثلث مثلاً يمكن ان يكون تاماً ، وقل مثل ذلك الوصف التام الكامل حين تريد وصف لعبة الشطرنج مثلاً وقواعد لعبها .

ويوضح وايزمان خاصة التركيب المفتوح المتضمن في اي تصور تجريبي واي قضية تجريبية على النحو التالي . اذا اردنا ان نحقق صدق قضية قبلية في الرياضة او في المنطق فاننا نأتي بعدد من القضايا تنحل إليها تلك القضية وتقوم دليلاً على صدق القضية الأصلية ، ويكون ذلك العدد من القضايا مساو لتلك القضية . ولكن تحقيق اي قضية تجريبية يختلف في طبيعته عن تحقيق القضية قبلية . حين نحقق القضية التجريبية لا نكون جملة القضايا التي تعبر عن ملاحظات تؤيدها- لا تكون هذه القضايا مساوية للقضية الأولى . ما يقصده وايزمان بخصوص التركيب المفتوح للتصور التجريبي او القضية التجريبية أن ينكر أن يكون اي تعريف او اي شرح لذلك التصور او تلك القضية تعريفاً او شرحاً دقيقاً دقة مطلقة بحيث نكون قد احصينا كل صفات موضوع التصور او قدمنا الشرح الشامل للقضية . يقصد القول انه سيظل دائماً ممكناً ان نحصل على صفات جديدة لاي شيء مادي عدا ما نعرفه الآن عنه وان نحصل على قضايا شارحة في المستقبل غير ما لدينا . يستنتج وايزمان من الاشارة الى هاتين الخاصتين للتصور التجريبي ان القضية التجريبية لا تقبل التحقيق الحاسم وذلك لوجود عدد لا متناه من الاختبارات على اي شيء مادي ومن ثم لن نستطيع اتمام وصفه . قد ننظر الى المنضدة مثلاً من عدد لا متناه من المنظورات في المكان دون اتمام كل الإمكانيات وقد يوجد دائماً إمكان الوصول الى وصف للمنضدة لم نكتبأ به من قبل ، ويوجد دائماً إمكان الوصول الى خبرات جديدة تساعدنا على مزيد شرح اي قضية تجريبية .

الثانية : نقطة يسوقها وايزمان للاشارة إلى أنه لا توجد على الاطلاق شواهد من الخبرة تثبت صحة قانون علمي ، وكل ما تعيننا الشواهد المؤيدة

للقانون أنها تقوي احتمالنا في صدقه ، لكنها ان تبرهن عليه . إن قلنا ان القضية س دليل على صدق القانون ، فقد قلنا تعبيراً تعوزه الدقة لأن صدق س لا يأتي من صدق س وحدها وإنما يأتي من صدق س مضافاً اليها صدق مقدمات أخرى في الغالب مضمرة . من تلك المقدمات التي يتحدث عنها وائزمان مقدمات يمكن إظهارها ومنها ما لا يمكن . ان الشروط التي يجب توافرها لتحقيق التجربة التي تؤيد القانون يمكن ان تصاغ في صورة قضايا . ولكن هنالك مقدمات تظل دائماً مضمرة ويعتمد عليها صدق القانون مثل (لا توجد عوامل عاتقة عن تحقيق التجربة) او (هـا نحن في الظروف المعتادة التي نستلبقها وملائمة لتحقيق القانون) . فالعلاقة بين القانون وشواهد المؤيدة هي توفر شروط معينة لحدوث تلك الشواهد وتوفر شرط آخر هو عدم وجود عوامل تعوق توفر هذه الشروط . ولكن ليس تحقيق الشرط الاخير في متناول العالم الباحث واذن يظل التحقيق الكامل لأي قانون علمي غير ممكن . الشواهد تضعف القانون أو تقويه ولكنها لا تبرهن عليه .

ثبت بأهم أسماء الأعلام والموضوعات

(انظر بكون ومل)	- ١ -
حدسي ٢٧ ، ٣٥ - ٣٩	أجاسيز ٩١
والمنهج العلمي ١٣٣ - ١٣٤ ،	احتمال ٢٤ - ١١٥ ، ٢٥ - ١٣٤
١٨٦ - ١٨٣	معانيه ١١٦ - ١١٩
امم العلم ١٤ - ١٥	نظرياته الرياضية ١١٦ - ١٢٨
ومفهومه ١٦ - ١٧	واستقراء ١٢٨ - ١٣٤
إشعاع ١٣٨ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧	أرستارخوس ١٥١ ، ١٥٣
اطراد الحوادث والاحتمال ١٣٢ -	أرسطو ٢٩ ، ٢٧ - ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٥٤ ، ٦١
١٣٤	١٧٥ ، ١٠٤
ومشكلة الاستقراء ١٠٨ - ١١٠	استدلال ١٣ ، ٢٠ ، ٢٢
(مل) ٧٥ - ٧٨ ، ٨٦ - ٨٨	رياضي (جاليليو) ٧٠ ، ٧١ ،
والمنهج العلمي ١٣٥ - ١٣٦	١٤٠ - ١٤٣
(نيوتن) ٥٥ - ٥٦	(نيوتن) ٥٦ - ٥٧
(هيوم) ١١٠ - ١١٤	استقراء ٢٠ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٧٤ ، ١٠٩
أفلاطون ١٠٤	بالاحصاء البسيط ٣٣
إقليدس ١٥٠	تام أو بالاحصاء التام (ارسطو)
إلكترون ١٧٧ - ١٨٣	٢٧ - ٣٤
إليس ١٢١	تقليدي أو ناقص ٢٤ ، ٤١ -
إمكان التحقيق (انظر إير)	٥٧ ، ٥٩ ، ١٢٨

انطباع حسي (هيوم) ١٠٣	والاستقراء التقليدي ٥٩-٧١
أنواع (ارسطو) ٢٨٠-٣٠	
أورجانون (انظر بيكون)	
أوستفالد ١٤٧	
اوكام ١٨٨	
أوهام (انظر بيكون)	
إير ١٨٧-٢٠١	
اينشتين ونظريات النسبية ٤٢-٤٣	
١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٦	
١٧١	
- ب -	
باسكال ١١٩	
بركلي ١٠٣	
بروتون ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢	
بطليموس ١٥٤-١٥٠	
بلانك ونظرية الكوانتم ٤٣ ، ١٣٨	
١٧٠-١٧١ ، ١٧٨-١٧٩	
بور ١٧٨-١٨٠ ، ١٨٣	
بوزيترون ١٧٧	
بيرس ١٢١	
بيرلوي ١٢١	
بيرسون ١٤٧	
بيكون (فرنسيس) ٤١ ، ٤٥ ، ٧٣	
١٠٣ ، ١٨٢	
والاستقراء التام ٣٤	
- ج -	
جاليليو ٤٢-٤٣ ، ٥٩ ، ١٠٣	
١٤١-١٤٣ ، ١٥١	
جلبرت ٥٩	
جملة خبرية ١٧ ، ١٨	
انشائية ١٨	
جوزيف ٩٣	
جيفونز ٥١	
جينز ١٣٦	
- ح -	
حد ١٣ ، ١٧-١٨	
انواعه ١٤-١٥	

(حد) اول ٣٦	- س -
حتمية (بيكون) ٦٦-٦٧	ستبنج ٩٣
(انظر نيوتن، بلانك، بور، هينزنبرج)	- ش -
	شليك ١٩٨
- د -	- ض -
دارون (ابظر تطور)	ضرورة ٢٣، ١٠٦، ١١٩
دوتركور ١٨٨	منطقية ٢٣، ٧٦، ١٠٤
دولتون ١٧٠، ١٧٥ - ١٧٦	تجريبية ٢٣
ديكارت ٥٤، ١٠٤، ١٧٥	نفسية ١٠٧
ديموقريطس ١٧٥	ضوء (النظرية الجسيمية) ١٦٨،
ديناميكا حرارية ٩١	١٧٠، ١٧٢
- ذ -	(النظرية الموجية) ١٦٩-١٧٠،
ذرة ١٢٧، ١٣٩، ١٧٤ - ١٨٣	١٧٣ - ١٧٤
والفرض الصوري ١٨٢	- ط -
ونظريات الكوانتم ١٧٨ - ١٧٩	طاقة ١٧٠، ١٧٧، ١٨٢
والرقم الذري ١٧٧	طبيعة المادة ١٨٠ - ١٨١
	طومسون ١٣٨-١٣٩، ١٧٠، ١٧٧
- ر -	- ع -
رابطة ١٨ - ١٩	علم (عملي ونظري) ٦٠ - ٦١،
راذرفورد ١٣٩، ١٧٧	١٤٤ - ١٤٧
رسل ١٠٢، ١٣٨، ١٩٦ - ١٩٧	علة ٥٣-٥٦، ٧٨
رومر ١٧٠	(ارسطو) ٧٨-٧٩
ريد (توماس) ٧٦ - ٧٧	(بيكون) ٦٦
- ز -	تفسير ٦٦، ٩٩
زكي نجيب محمود ١٨٨	(جاليليو) ٧٩-٨١
	(الرجل العادي) ١٠٤

فيثاغورس ١٥١-١٥٣

علة (الفلاسفة العقليون) ١٠٥

(المعاصرون) ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٨١ ،

- ق -

١٨٤

قانون علمي ٦٦ ، ٢٠٢-٢٠٣

(مل) ٨٣-٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢

والتفسير ١٤٧

(مل : نقد) ٨٨-٨٩ ، ١٠٧

والوصف ١٤٧-١٤٩

(النظرية الذرية) ١٨٢

قوانين الحركة (نيوتن) ١٦٤

(نيوتن) ٨١-٨٢

قوانين الفكر ١٠٥

(هيزنبرج) ١٨١

قضية ١٣ ، ١٧ ، ٢١

(هيوم) ٨٢ ، ١٠٤-١٠٨

قضايا اولية (إير) ١٩٢-١٩٧

عنصر ١٢٧ ، ١٧٦

البروتوكول ١٩٣-١٩٤

- ف -

المنطق والرياضة ١٨ ، ١١٠

فتجنشتين ١٧

(انظر القضايا القبلية ، والتحليلية)

فرض

المتافيزيقا ١٨٩-١٩٠

تجريبية عامة ١١١ ، ١٩٧-٢٠٣

انواعه (تصنيف اول) ٤٨-٥٠

تأليفية ١٨

(تصنيف ثان) ١٤٩

تحليلية ١٨ ، ١٠٦ ، ١٩١

(تصنيف ثالث) ١٥٨

حلية ١٩

شروط تكوينه ٥٠-٥٢

شرطية ١٩

(بيكون) ٧٠

ضرورية ٣٥ ، ١٩٦

(مل) ٨٩-٩١

قبلية ١١١ ، ١٩٠-١٩٢

(نيوتن) ٥٢-٥٧

متقابلة ٢٠

فرض صوري ١٥٨-١٦٢ ، ١٨١

قياس ٢٠-٢٥

فلسفة تحليلية ١٨٧

أشكاله ٢١

فن ١٢١

قيمه العلمية ٩٨

فوتون (انظر إشعاع ، طاقة)

مبدؤه ٢٢-٢٣

فوكو ١٧٠

نقده ٤٤

— ك —

كارناب ١٩٤

كپار ١٥٧-١٥٤

كليات ١٤ ، ١٨٨

كنط ١٥٨

كوپرنىق ١٥٢-١٥٥

كونت ٧٣

كينز ١٢٣-١٢٨

— ل —

لوك ٣٠ ، ١٨٩

لاپلاس ١٢١

ليپرشي ١٥٤

ليسيپوس ١٧٤-١٧٥

ليقريبه ١٥٦

— م —

ماخ (مارنست) ١٤٧

(انظر القانون الوصفى)

ماصدق ١٥-١٦

ماكسويل ١٦٠-١٦٣

مفهوم ١٥-١٦

مل (چون) ٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٥

٧٣-٩٩

ملاحظة ٤٥-٤٧

منطق ١٣

صوري ٢١ ٢٣

(نقده) ٦٢ ، ٧٣-٧٤

منهج علمي معاصر ١٥٧ ، ١٨٣ -

١٨٦

(نيوتن) ٥٥-٥٧

منهج فرضي ٤٣

(انظر الفروض الصورية)

منهج الاستبعاد (بيكون) ٦٥-٦٧

— ن —

نن (پيرسي) ٤٩

نيراث ١٩٢

نيل (وليم) ٩٣

نيوترون ١٧٧

نيوتن ٤٢ ، ٥٢-٥٧ ، ٨٩ ، ١٣٦ ،

١٥٦ ، ١٦٨

والمنهج الفرضي ١٦٣-١٦٨

ونظرية الجاذبية ٥٣ - ٥٤ ،

١٦٢-١٦٨

— ه —

همبل ١٩٢

هويجنز ١٦١ ، ١٦٩

هپارخوس ١٥١

هيزنبرج ١٠٢ ، ١٧٦ ، ١٨٢-١٨٣

ومبدأ الاتحاد ١٨٠

ونظريه الكوانتم الجديدة ١٧٩	- و -
هيوم ٤٣ ، ٧٣ ، ١٠١ - ١١٤ ، ١٨٩	وايزمان (فردريك) ١٩٨ ، ٢٠١ -
والاحتمال ١١٥ - ١١٤	٢٠٣
والاستقراء ١١٠ - ١١٤ ، ١٣٢ -	وضعيون ١٤٧ - ١٤٩
١٣٣	وضعية منطقية ١٨٨ ، ١٩٢ - ١٩٥ ،
	١٩٨

تصويب أخطاء

الصفحة	السطر	الكلمة الخطأ	الصواب
١٧	١١	بأصبعه	بأصبعه
	١٩	من	في
١٨	٦	مجرها	محمولها
١٩	٣	من	في
٢٠	١٤	متقابله	المتقابلة
٢١	٢	موجز	موجزة
٢٢	٢	صدقها	صدقها
٢٩	١٥	الذي	التي
٣٠	١٠	أو	أو من
٣٣	١٨	Induchion	Induction
٣٤	هامش ١	Orgarum	Organum

Bibliotheca Alexandrina



0390373



دار الجامعات المصرية
٢٢ شارع الدكتور مصطفى مشرفة
اسكندرية ت ٢٢٤٦٩